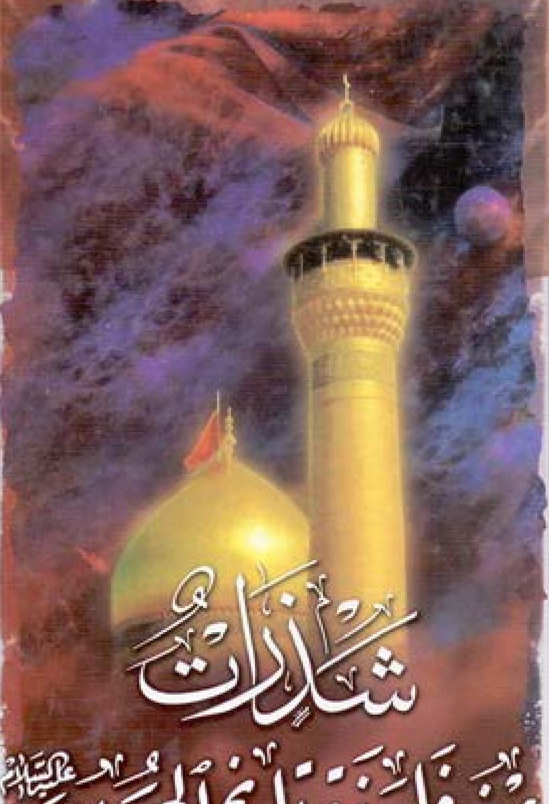

شذرات من فلسفة تاريخ الحسين عليه السلام

محاضرات
سماحة آية الله السيد محمد صادق الصدر قدس سره
تقرير
الشيخ أسعد الناصري

تحقيق
مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

شذرات

من

فلسفة تاريخ الحسين[ع]

حقوق الطبع والنشر محفوظة

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اسم الكتاب: ....شذرات من فلسفة تاريخ الحسين (ع)

تأليف: .... آية الله السيد محمد صادق الصدر (قدس سره)

تقرير: .... الشيخ أسعد الناصري

تحقيق: .... مؤسسة أم القرى

الناشر: .... مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

الطبعة الأولى: ....ذي الحجة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م

لبنان / بيروت / الغبيري ص.ب ٢٧٨ / ٢٥

info@Omalqora.com

شذرات

من فلسفة تاريخ الحسين [ع]

محاضرات

سماحة آية الله السيد محمد صادق الصدر (قدس سره)

تقرير

الشيخ أسعد الناصري

تحقيق

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدمة المؤسسة

قضية الامام الحسين عليه السلام سرٌ من الأسرار الإلهية، تتجدد عبر العصور، ويستضيء بنورها عشاق الحرية، وتروي بمادئها ومفاهيمها الإنسانية، فهي الحقيقة الحية التي لا تموت.

ثورة الإمام الحسين عليه السلام ليست حدثاً تاريخياً عابراً، بل هي ثورة خالدة بخلود السنن الإلهية، تجلت في الحسين بن علي بن أبي طالب وأهل بيته عليهم السلام وأنصاره، لتكون هي الشجرة المباركة الطيبة، فأصبحت رمزاً ربانياً، وشعاراً إلهياً، اجتازت جميع القيود والحدود لتجدد الصرخات في وجه أعداء الإنسانية والخارجين عن العبودية، فكل أرض كربلاء وكل يوم عاشوراء.

هذه الثورة المباركة احدثت تغييراً في الوجدان الشيعي بشكل خاص، والوجدان الإسلامي والعالمي بشكل عام، لتجسد أجمل المعاني في الشجاعة والتضحية والإيثار

«لم أخرج أشراً ولا بطراً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد صلى الله عليه وآله».

ومؤسسة أم القرى تتشرف أن تقوم بطباعة ونشر هذا السفر المبارك «شذرات من فلسفة تاريخ الحسين عليه السلام» لسماحة آية الله الشهيد السيد محمد صادق الصدر (قدس سره) وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها الشهيد، تعزيزاً للثقافة الحسينية في أوساط الجيل الجديد، ودفعاً لبعض الشبهات التي أثيرت حول حركة الإمام الحسين عليه السلام، وإكمالاً لمشروعه الذي بدأه في كتابه السابق

«اضـواء على ثورة الحسينعليه السلام»، وبذلك يكون قد نذر نفسه لإصلاح ما فسد من أمـور الأمـة، ونال شرف الشهادة، أسوة بجده الحسينعليه السلام ليكون درساً عملياً في الشجاعة والتضحية والإيثار عند ما اختلطت دماؤه الزكية بمداد قلمه الشريف.

وقـد قام الفاضل الشيخ أسعد الناصري جزاه الله خيراً بتقرير هذه المحاضرات تحت اشراف الشـهيد السـعيد، وقـد تـمّ طباعة الكـتاب سـابقاً من دون تحقيق، فارتـأت المؤسسـة أن تلبـي رغبة الشهيد السعيد في تحقيق هذا الكتاب وتدقيقه، وقـد اشـتمل هـذا التحقـيق علـى تخـريج مصـادر الآيـات والـروايات ومصـادر الاحداث التاريخية قدر الإمكان إضافة إلى تقويم المتن.

وفـي الخـتام لا يسـعنا إلاّ أن نتقدم بالشكر الجزيل لجميع الإخوة الذين بذلوا جهدهم في إخراج هذا الكتاب القيّم.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنّ على الجميع بالهداية والتوفيق للعمل الصالح.

مؤسسة ام القرى للتحقيق والنشر

مقدّمة الكتاب

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

ينبغي أن يلتفت القارئ الكريم في هذا الكتاب إلى عدّة نقاط :

النقطة الأُولى : أنّ هذه هي المجموعة الثانية من المحاضرات التي ألقيتها على مجموعة من طلاب الحوزة الشريفة في ذكرى شهادة الحسين الشهيد عليه أفضل الصلاة والسلام .

أمّا المجموعة الأُولى فقد مضى عليها عدّة سنوات وطبعت عدّة مرات بعنوان : (أضواء على ثورة الحسين عليه السلام) .

وغالباً ما يتمّ إلقاء أمثال هذه المحاضرات خلال الأشهر الخاصة بتلك المناسبات ، وهي شهري محرم الحرام وصفر الخير الهلاليّين .

وقد تمّ إلقاء هذه المجموعة الثانية في عام ١٤١٨ للهجرة النبوية الشريفة على مهاجرها أفضل الصلاة والتحيّة .

النقطة الثّانية : أنّه كان في الإمكان أن يكون هو الجزء الثاني لذلك الكتاب . ولكنّنا وجدنا ـ كما سيجد القارئ أيضاً بعد اطّلاعه على كلا الكتابين ـ أنّ هذا الكتاب مختلف عن سابقه اختلافاً جوهرياً ، بالرغم من اتّحادهما في الموضوع العام .

ومن هنا رجّحنا أن يكون كتابنا مستقلاً، واخترنا له هذا العنوان: (شذرات من فلسفة تأريخ الحسين عليه السلام).

النقطة الثالثة: أنّ فكرة ما يسمّى بالتقريرات في الحوزة الشريفة موجودة بكثرة وخاصة في علم الأُصول. حيث يقوم الأستاذ بإلقاء المحاضرات، ثمّ ينبري أحد الطلاب الأذكياء المستوعبين للمادة إلى كتابة تلك المحاضرات وطبعها باسمه واسم أُستاذه. فتلك هي (التقريرات).

وقد سمعت من بعض الفضلاء أنّ كتاب (فقه الرضا) وكتاب (تفسير العسكري) إنّما هي نوع من التقريرات، كتبها بعض طلاب الأئمة عن محاضراتهم عليهم السلام.

وهذا الكتاب الذي بين يديك هو نوع من التقريرات، حيث قام جناب الأخ الفاضل الشيخ أسعد الناصري دام عزّه بكتابة وضبط تلك المحاضرات بشكل منسّق وجميل. فكان ذلك هو هذا الكتاب جزاه الله خير جزاء المحسنين.

وقد قرأت كتابته بتدبّر فوجدتها متكاملة وشاملة ومماثلة لما كنت ألقيته من تلك المحاضرات بحمد الله وحسن توفيقه.

النقطة الرابعة: أنّنا اتّفقنا فيما بيننا: أنّه لا حاجة إلى أن تكون عبارة الكتاب جزلة ورصينة ـ كما يعبّرون ـ بل يحسن أن تكون بنفسها انعكاساً لسلاسة المحاضرات الأصلية ووضوحها، فإنّه سيكون أعمّ فائدة، وأشمل نفعاً.

ومن هنا كان الأُسلوب في هذا الكتاب، هو أُسلوب الدرس نفسه، وليس أُسلوب التدريس الرصين المتكامل.

إلّا أنّه بطبيعة الحال أصبح صورة عن المحاضرات، بسهولتها وصعوبتها أيضاً، فإنّها ـ بلا شكّ ـ تمثّل لغة الحوزة ومصطلحاتها، حين تحين الحاجة إلى تلك المصطلحات.

ومن ثمّ فقد يجد القارئ الاعتيادي، بعض الصعوبة الناتجة من اختلاف الفكر

الحوزوي واللغة الحوزوية عن اللغة السوقية . وكان هذا ممّا لابدّ منه .

النقطة الخامسة : لم تكن مهمّة جناب الشيخ المقرّر دام عزّه سهلة ؛ لأنّ المحاضرات نفسها ، فيها مكرّرات أحياناً وإيضاحات واستدراكات وغير ذلك ، ممّا يقتضي الحذف أحياناً ، والتقديم أو التأخير أحياناً . وقد قام بكلّ ذلك مشكوراً .

هذا وقد أعطيته الحرية التامّة بالتعبير ، فلم أُغيّر من كتاباته شيئاً ، بل أقررته عليها ، وإن صادف أحياناً أنّها تختلف قليلاً عن مضمون الدرس نفسه . فإنّها يكفي أن تكون ممثّلة لفهمه من تلك المحاضرات . وهو فهم كاف ومعتدّ به ، والحمد لله وحده .

النقطة السادسة : يلاحظ القارئ الكريم كون هذا الكتاب خالياً عن المصادر والتحويل على الأجزاء والصفحات والطبعات[١] .

فقد اعتدت شخصياً على ذلك في عدد من مؤلّفاتي مثل : ثورة الحسين عليه السلام وفقه الأخلاق . ثمّ قد يوفّقنا الله سبحانه في الطبعة الثانية إلى بيان ذلك . كما كان فعلاً في الكتابين المذكورين في طبعتهما الثانية .

النقطة السابعة : يجد القارئ الكريم أنّ هذا الكتاب غير مستوعب لكل تاريخ الحسين عليه السلام . بل فيه نقص رئيسي ، وهو عدم تعرّضه لواقعة يوم الطفّ . وإنّما تعرّض الكتاب إلى هذا الإمام الهمام من أوّل أمره إلى قضية مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام في الكوفة ، بصفته سفيراً للحسين عليه السلام . وكان ذلك كافياً في إنجاز هذا الكتاب ، ويبقى الحديث الباقي عن وقائع يوم الطفّ وغيره موكولاً إلى ضمير الغيب ، لعلّ الله سبحانه يوفّقنا إليه إذا بقيت الحياة .

النقطة الثامنة : أنّه لا شكّ أنّ النظر إلى فلسفة تاريخ المعصومين وأفعالهم وأقوالهم عليهم السلام من الصعوبة بمكان ؛ لأنّ ذلك حتماً فوق المستوى الاعتيادي للبشر . كما حاولنا البرهنة عليه في مقدّمات كتابنا عن ثورة الحسين عليه السلام .

---

(١) يعني الطبعة الأُولى .

ومن هنا يكون أي كلام مخالفاً للواقع، من الكذب على الله تعالى وعلى المعصومين عليهم السلام، وهو من أعظم الكبائر في الدين. فبينما يريد به الفرد الإفادة والثواب، فإنّه ينال اللعنة والعقاب.

إلّا أنّ الذي يهوّن الخطب، هو أُسلوب الأُطروحات الذي عرضناه وعرفناه في مقدّمة (منّة المنّان)[1]. وهو الأُسلوب الذي اتخذناه هنا أيضاً، بل هو موجود أيضاً في أغلب مؤلّفاتي ودروسي.

فإنّ كثيراً من الوجوه والاعتبارات والالتفاتات، لو صحّ التعبير، إنّما هي أُطروحات مناسبة للمقدار الذي نستطيع أن نفهمه ونعلمه عن مستوى المعصومين عليهم السلام.

ويبقى الواقع منحصراً بضروريات الدين وواضحات التاريخ من ناحية، وبما يعلمه الله سبحانه من الأسرار الواقعية التي نحن في مستوى النقص والقصور عن الالتفات إليها والحصول عليها.

وفي النهاية أتمنّى على الرب الرحمن الرحيم أن يجعل في هذا العمل، وغيره، القربة والرضا، وأن يعفو عن ما قد يكون فيه من نقائص وهفوات، ناتجة من النفس الأمّارة بالسوء، وأتمنى على الإخوان المؤمنين الدعاء بخير الدارين، وكل ما تقرّ به العين. ومن الله نستمدّ كلّ توفيق.

والحمد لله رب العالمين

١ / شوال / ١٤١٨هـ

محمّد الصدر

---

(١) منّة المنّان: ١٢، طبعة بيروت.

مقدّمة المقرّر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بطن خفايات الأمور ، ودلّت عليه أعلام الظهور ، وامتنع على أعين البصير ، فلا عين من لم تره تنكره ، ولا قلب من أثبته يبصره . سبق في العلو ، فلا شيء أعلى منه ، وقرب في الدنوّ ، فلا شيء أقرب منه ، فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه ، ولا قربه ساواهم في المكان به . لم يطلع العقول على تحديد صفته ، ولم يحجبها عن واجب معرفته ، فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود ، تعالى الله عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً .

اللهم يا من خص محمداً وآله بالكرامة ، وحباهم بالرسالة ، وخصّصهم بالوسيلة ، وجعلهم ورثة الأنبياء ، وختم بهم الأوصياء والأئمّة ، وعلّمهم علم ما كان وما بقي ، وجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، صلّ على محمد وآله الطاهرين . وافعل بنا ما أنت أهله في الدين والدنيا والآخرة إنّك على كلّ شيء قدير .

ها هو السيف الصارم والليث الهزبر ، في صولة من صولاته الحيدرية ، وخطوة من خطواته الحسينية ، يقف بجرأة وبسالة ليفيض علينا من بحر جوده وكرمه أنفاساً مقدّسة ، وأفكاراً حاسمة . فيسلط الأضواء على (شذرات من فلسفة تاريخ جدّه الحسين عليه السلام) . فإنّه يأبى أن نمرّ بتاريخ أبي الأحرار عليه السلام مروراً تقليدياً ، وإنّما يريد

الخوض في هذا التسلسل التاريخي ، ليعطينا المعاني الحقيقية لتلك الخطوات التي سارت وفق الحكمة الإلهية المتعالية ، ويقطع الألسن التي تحاول الطعن بهذه الثورة المباركة ، فيكون سبباً ومسبباً في أن يبقى صوت الحسين عليه السلام هادراً على مرّ السنين ، ينسف عروش الظالمين ، ويجمع كلمة المسلمين .

وقد منّ الله على الجاني المقصّر كاتب هذه الأسطر بأن رزقني متابعة المحاضرات التي ألقاها سماحة السيّد دام ظلّه في مسجد الرأس الشريف ، فقمت بكتابة وجمع تلك المحاضرات ، ثمّ تنسيقها وترتيبها بالشكل الذي تراه أمامك ، بما تتطلّب هذه العملية من حذف المكرّرات ، وإرجاع بعض المطالب التي هي عبارة عن استدراكات إلى مكانها المناسب لها . حيث يقوم سماحته بالتكلّم عن إشكال مثلاً يعود إلى موضوع قد سبق التكلّم عنه قبل درس أو درسين أو أكثر ، وهكذا . وتسلسل الكتاب الذي تراه أمامك ليس تماماً كالتسلسل الذي سار عليه سماحة السيّد دام ظلّه في الدرس . وإنّما قمت بتقديم بعض المواضيع وتأخير البعض الآخر بما أراه مناسباً مع التسلسل الزماني والتاريخي ؛ لأنّ منهج الدرس يسير مع ما ينقدح في الذهن أو يعرض من إشكالات متفرّقة ، تتحدّث عن أمور متفرّقة في التأريخ من حيث الزمان . وهذا ما أشار إليه سماحته دام ظلّه في مقدمة الدرس بقوله : « وهذا إلى حدّ ما صادق ، ولا أستطيع ان أضبط المطالب مئة في المئة ، وإنّما بعد إلقائه وكتابته يمكن ترتيبه بشكل من الأشكال » .

وأنا أعتبر أنّ هذه العبارة بمثابة الضوء الأخضر بأن أخذ الحرية في ذلك من ناحية التقديم والتأخير بما أراه مناسباً ومترابطاً ومتماشياً مع التسلسل التاريخي .

ولا يفوتني هنا أن أذكر أنّ هذه هي أوّل محاولة لي في الكتابة ، سائلاً المولى القدير أن تكون فاتحة خير لي لنفع الدين والمجتمع الإسلامي ليدّخر ما يمكن ادّخاره ليوم لا ينفع فيه لا مال ولا بنون .

وأسأل الله أن يتجاوز عنّي كلّ خطيئة وتجاوز .

وأتوجّه إلى أهل البيت عليهم السلام، وخصوصاً سيّد الشهداء عليه السلام، بأن يصفحوا عن كلّ خطل وزلل منّي.

واستميح سيّدي ومولاي السيّد الصدر عذراً، واستغفره عن كلّ إساءة.

وأسال الإخوة المؤمنين الدعاء في مظانّ الإجابة.

والحمد لله على ما أنعم

١٩/ ذي الحجّة/ ١٤١٨هـ

العبد الفاني

أسعد الناصري

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدّمة الدرس

في حدود فهمي : أنّ هذه الدروس تصلح ان تكون تكملة لكتابي (أضواء على ثورة الحسين عليه السلام) ، وإلى ساعة متأخّرة كنت أحسبها ليست ذات منهج معيّن ، وإنّما هي عبارة عن مجموعة أسئلة على غرار درس التفسير ، حيث يعرض السؤال ثمّ يجاب عليه ، مع نقطة ضعف توجد هنا ، وذلك أنّ درس التفسير مرتّب على ترتيب آيات القرآن الكريم ، بينما نجد أنّ هذا الدرس ليس كذلك .

وهذا إلى حدّ ما صادق ، ولا أستطيع أن أضبط المطلب مئة في المئة ، وإنّما بعد إلقائه وكتابته يمكن ترتيبه بشكل من الأشكال .

وإذا كانت هذه الأُمور التي سوف أطرحها تكملة لكتاب (أضواء على ثورة الحسين عليه السلام) ، فهناك تحدّثنا عن كبرى وصغرى . أي قاعدة عامّة ، وتطبيق للقاعدة العامّة ، والتي استوعبت حوالي نصف الكتاب ، وذلك في إعطائه فكرة عن أنّ نحمل المعصومين وأصحابهم على الصحة ؛ لأنّهم تربية رسول الله صلى الله عليه وآله ، أو لأنّهم ملهمون ونحو ذلك . فأي شيء شككنا فيه من ذلك فإنّما هو لقصورنا وتقصيرنا ، وليس لنقص فيهم ـ والعياذ بالله ـ .

وهذا يعتبر كقاعدة عامّة ، وأمّا التطبيق فتحتاج إليه بعض النفوس ، فقد يأتي السؤال بقوّة في الذهن ، فإذا حصل شيء من ذلك فإنّه يحتاج إلى الجواب .

وقد تركت التعرّض إلى بعض الأسئلة هناك ، فلربّما أن بعض الأسئلة يصعب جوابها خصوصاً أمام العوامّ ، وإنّما ذكرت أشهر الأسئلة وأوضحها مع أجوبتها

وليست كلها كذلك.

والأمر هنا كذلك، فإنّنا نعرض السؤال الذي نستطيع أن نجيب عنه، وأمّا إثارة السؤال الذي لا نستطيع الإجابة عنه فغير صحيح، فإنّ مثل ذلك يثير الشبهات في أذهان السامعين، فيفهمون السؤال ولا يفهمون جوابه.

مع العلم أنه يحرم إثارة الشبهات التي لا يمكن الإجابة عليها أمام الناس.

والأسئلة سوف تكون على تقدير صحّة الروايات، وأكثرها روايات تاريخية ضعيفة، فإنّنا لو وزناها بالميزان الفقهي لا تكون معتبرة. فمن هذه الناحية فإنّ أسهل ما يقال في مثل ذلك هو ضعف السند، والأصل عدم صدوره، فنتخلّص من أصل المشكلة.

ولكن بعض الأمور قابلة للتفسير دينياً، أو عقلائياً، أو عرفياً، أو بدرجة من درجات الباطن.

فإذا كان الأمر كذلك نستطيع أن نتنزل عن عدم اعتبار السند، ونقول: لو كان هذا القول أو العمل موجوداً فجوابه كذا وكذا.

نصرة الحسين عليه السلام

روي عن الحسين عليه السلام أنه قال: «من سمع واعيتنا فلم ينصرنا أكبه الله على منخريه في النار»(1).

فإنّه يرد على ظاهر هذه الرواية إشكال رئيسي، يتسجّل بالالتفات إلى عدّة مقدّمات، فإذا استطعنا مناقشتها، أو مناقشة بعضها، فالإشكال ساقط:

المقدّمة الأُولى: أنّهم قالوا في اللغة: إنّ الواعية هي الصراخ على الميت(2)، وهي لا تحصل إلّا بعد الموت. فواعية الحسين عليه السلام وأصحابه لا تكون إلّا بعد استشهادهم. فمعنى قوله: «واعيتنا» أي من سمع أنّنا متنا، بحيث سمع البكاء أو الصراخ علينا. ولا معنى لوجودها قبل الموت.

المقدّمة الثانية: أنّ النصر المتوقّع له إنّما يكون حال حياته، وحال حربه مع جيش الأعداء، أو قبل ذلك، أي حينما كان يدعو الناس في المدينة؛ إذ لا معنى للنصر بعد الموت الذي يكون قد حصل.

المقدّمة الثالثة: أنّ المفهوم عادة من (ينصرنا) أو (انصرنا) أو (هل من ناصر لنا) هو النصرة في المستقبل، فإنّ إطاعة الأمر تكون استقبالية دائماً.

فيكون المعنى كالآتي: من سمع واعيتنا ـ أي بعد موتنا ـ، فلينصرنا ـ أي بعد

---

(1) الفوائد الرجاليّة ٣: ٧٠، ومثله في أمالي الصدوق: ٢١٩، المجلس الثلاثون.

(2) تاج العروس ١٠: ٣٩٤.

حصول الشهادة ـ، وقد قلنا في المقدّمة الثانية : إنّه لا معنى للنصر بعد حصول الشهادة والوفاة.

إذن فلو تمّت كلّ هذه المقدّمات لأصبحت العبارة لاغية ولا معنى لها.

ويمكن الجواب على ذلك بعدّة مستويات :

المستوى الأوّل: أن نتنزل عن المقدمة الأولى ، وهي أنّ الواعية هي الصراخ على الميّت ، فنقول : إنّ الواعية كما هي الصراخ على الميت هي أيضاً مطلق الصراخ ، وإن لم يكن على الميّت.

قال ابن منظور: والوعى والوعى بالتحريك ، الجلبة والأصوات ، وقيل : الأصوات الشديدة[1] ... والواعية كالوغى. فكما أنّ الوعى : الأصوات ، فكذلك الواعية أيضاً.

وقال الأزهري : الواعية ، والوعى ، والوغى كلّها الصوت ، والواعية هي الصارخة[2]. أي أنّ الواعية كما أنّها تستعمل كمصدر فإنّها تستعمل كاسم فاعل ، أي الفاعل للصوت ، أو الناطق به. وإنّما سمّي الصراخ على الميت واعية ؛ لأنّه صوت وضوضاء ، أي حصة من الصوت والضوضاء.

فيكون معنى الخبر الوارد « من سمع واعيتنا » أي سمع صوتنا ، وسمع استغاثتنا ، ولم يأت لنصرتنا مع تمكّنه من ذلك ، أكبّه الله على منخريه في النار. وهو أمر مطابق للقواعد فقهياً وعقائدياً ، ولا يحتاج الحسين عليه السلام إلى بيانه ، ولكنّه بيّنه إيضاحاً وتنبيهاً للغافل وغير الملتفت ، وكذلك لإقامة الحجّة على الجيش المحارب له ، فإنّهم بطبيعة الحال يكونون مصداقاً لذلك ، بل هم المخاطبون بالمباشرة ، وباقي الناس إنّما يبلغهم النداء بالنقل والرواية ، ومن الواضح تاريخياً أنهم لم يستجب منهم

---

(١) لسان العرب ١٥ : ٣٩٧.

(٢) المصدر المتقدّم.

أحد إلّا الحرّ بن يزيد الرياحي عليه السلام[(١)] وربّما معه ولده أو خادمه.

المستوى الثاني: التنزل عن المقدّمة الثالثة: فإنّ قوله: «ولم ينصرنا» وإن كان ظاهراً بالاستقبال في نفسه، كما هو مقتضى طبيعة الأمر، إلّا أنّه لمّا كان يلزم منه اللغوية ـ بعد التنزل عن الأجوبة الأُخرى ـ فإنه يمكن صرفه إلى الماضي، وخاصّة مع وجود حرف (لم) الذي يفيد الماضي، فيكون المعنى: ولم يكن قد نصرنا خلال حربنا واستغاثتنا، أكبّه الله على منخريه في النار. وهو أمر مطابق للقواعد أيضاً.

المستوى الثالث: التنزل عن المقدّمة الثانية التي تقول: بأنّ النصر المتوقّع المطلوب أنّما يكون في حالة حياة الحسين عليه السلام وأصحابه، أي نصرهم ضدّ الجيش المقابل لهم. فنقول: إنّ ذلك ليس هو الفرد المنحصر أو المعنى الوحيد، وإن كان هو القدر المتيقّن. فإنّ النصرة يمكن أن تكون في كلّ وقت، حتّى بعد الشهادة وحتّى الآن وحتّى في المستقبل، فيمكن نصرته في أي مكان، وفي أي زمان، وفي أي جيل، ومن قبل أي شخص، وعلى كلّ المستويات.

فيكون المعنى: من سمع واعيتنا، أي بعد حصول الشهادة للحسين عليه السلام وأصحابه، فيجب عليه أن ينصرنا في أي زمان ومكان بمقدار ما يستطيع. وما يتيسّر له من إمكانيات.

والنصرة أيضاً ليس منحصرة بالقتال، وإن كان هو القدر المتيقّن منها، إلّا أنّها يمكن أن تكون بإطاعة أوامره، وتطبيق شريعته التي قُتل من أجلها، وضحّى في سبيلها، وكذلك هداية الآخرين نحو أهدافه، وكشف زيف أعدائه، وكذلك تطبيق الإصلاح الذي استهدفه وذكره في بعض خطبه عليه السلام[(٢)]، ونحو ذلك.

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٩، بحار الأنوار ٤٥: ١٠.

(٢) بقوله: «إنّما خَرَجْتُ لِطَلَبِ الإصْلاحِ في أُمَّةِ جَدِّي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله». انظر بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

ومن هنا يكون كلّ من يأخذ بثأر الحسين عليه السلام فهو ناصر له بلا إشكال، وأوضح الأمثلة في ذلك أمران:

الأوّل: حركة المختار الثقفي، فإنّه ناصر للحسين عليه السلام وليس مشمولاً لقوله: «من سمع واعيتنا فلم ينصرنا».

الثاني: الأخذ بالثأر من قِبل الإمام المهدي (عج)، فإنّه ناصر للحسين عليه السلام بعد شهادته.

إذن، فالإشكال من هذه الناحية منسدّ ولا معنى له.

ثمّ إنّه يوجد هناك سؤال آخر، وهو سؤال أقرب إلى الفهم الفقهي. والفهم الفقهي يحتاج إلى صحة السند.

فإذا قلنا: إنّه غير تامّ سنداً فحينئذ ينسدّ باب السؤال من الناحية الفقهية، ولكنّنا لو تنزلنا وقبلنا بصحة السند، أو الاطمئنان بصحته، والاطمئنان حجّة، فحينئذ يأتي السؤال، وهو: أنّنا بعد أن عرضنا الجواب عن السؤال الأوّل، بأنّ معنى قوله عليه السلام: «من سمع واعيتنا فلم ينصرنا»، أي في المستقبل ولو بعد الشهادة بمئة سنة أو ألف سنة أو أكثر، فإنّ هذا يدلّ على وجوب نصرة الحسين عليه السلام دائماً في كل مكان وفي كلّ زمان.

جوابه: أنّه يحول دون ذلك أمران بعد غضّ النظر عن السند:

الأمر الأوّل: إن كان المراد بالانتصار للحسين عليه السلام هو مطلق الانتصار وليس بخصوص القتال فقط، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وباقي أحكام الشريعة، فإنّ الحسين عليه السلام فدى نفسه لأجل ذلك، إذن فنصرته تكون بتطبيق منهجه وشريعته وأهدافه. وحينئذ فعلينا أن ننظر إلى التكليف ماذا يقتضي، فالواجبات يجب تطبيقها، والمستحبات يستحب تطبيقها. فلا يحتمل أن يكون المراد هو وجوب تطبيق المستحبات، فإنّها نصرة للحسين عليه السلام ولكن بمقدار موضوعها.

الأمر الثاني: إن كان المراد من الانتصار للحسين عليه السلام هو الحرب والقتال، فإنّ عمل الحسين عليه السلام الرئيسي هو القتال، فعلى كل جيل أن يمارس القتال لأجل نصرته حتّى في المستقبل، أي بعد شهادته، فهل هذا الأمر صحيح أم لا ؟

وجوابه: إنّ هذا يكون منوطاً بأمرين:

الأوّل: وجود المصلحة، أو الحكم الشرعي بالوجوب أو الاستحباب ونحو ذلك من الأمور.

الثاني: وجود القدرة والتمكّن، وأمّا إذا كانت القدرة غير موجودة، فإنّ التكليف ساقط لا محالة؛ لأنّه تكليف بما لا يطاق، وهو قبيح عقلاً.

ولا يبعد القول: إنّ هذا غير متوفّر في أغلب الأجيال. نعم، لو أحسّ أي واحد وجود الشرائط لديه في أي مكان أو زمان، لأمكن الفتوى بوجوب ذلك، ومقتضى القواعد هو ذلك، فلا يحتاج معه إلى البحث عن صحّة السند.

بقي الإلماع إلى أمر، وهو أنّ هذا الوجوب مهما فسّرناه فإنّه متوقّف على مقدّمتين، فقد أشارت الرواية إلى واحدة وأهملت الأخرى؛ لأنّه تقييد عقلي موجود لسائر الأحكام، بل إنّ كلّ الأحكام الشرعية مقيّدة بهذين القيدين:

الأول: العلم.

الثاني: القدرة أو التمكّن.

فشرطية العلم قد ذكرت في الرواية بقوله: «من سمع واعيتنا»، أي علم بها، فبمفهوم المخالفة، أنّه إذا كان الإنسان جاهلاً فإنّه يكون معذورا أكيداً، سواء كان في ذلك الحين أو كان في أي مكان أو زمان.

ومع عدم التمكّن يكون العجز، والعاجز معذور لا محالة. وهذا أيضاً لا يختلف فيه من كان في أي زمان أو مكان.

فمثلاً: هذا الذي دعي لنصرة الحسين عليه السلام في حياته، وخرج من البصرة قاصداً

نصرته ، فوصله خبر مقتله[١] ، فإنّه يكون معذوراً ومأجوراً .

إن قلت : إنّ بعض الأحكام الشرعية ليست بذلك المستوى من الأهمية ، بحيث يستصرخنا الحسين ﷺ لأجلها ، فإنّ الاستنصار والاستصراخ للأهمّ الأهمّ منها ، وأمّا الباقي فإنّه موكول إلى تطبيق الأحكام الشرعية .

قلنا : إنّ أوضح جواب على ذلك أنه قد ورد ما مضمونه : (انظر لمن تعصي)[٢] ، فإنّ الذنب يكتسب أهمية بقدر المعصي وليس بقدر العاصي ، والله سبحانه لا نهائي وحقّ الطاعة له جلّ جلاله ، وحقّ الطاعة للّانهائي لا نهائي ، والمعصية تكتسب مسؤولية أخلاقية لا متناهية ، حتّى ولو كانت في أقلّ المعاصي وأصغرها .

إذن ، كلّ حكم فقهي مشمول لاستنصار الحسين ﷺ ، فعلى الإنسان أن يطبّق أوامر الله تعالى صغيرها وكبيرها ، قليلها وكثيرها ، ظاهرها وباطنها ، مهمّها وبسيطها ، فطاعة الله تعالى بتلك الأهمية بحيث إنّ الحسين ﷺ على عظمته يقتل في سبيلها ، ويداس تحت أقدام الحيوانات . فكلّ تلك المصائب التي حصلت في عرصة كربلاء إنّما هي قربان بسيط وقليل بإزاء طاعة الله تعالى ، وتطبيق منهجه ، وتحقيق أهدافه ، ومصالحه الواقعية التي ذخرها الله لنا .

---

(١) أي يزيد بن مسعود النهشلي ، انظر مثير الأحزان لابن نما : ١٧ ، وبحار الأنوار ٤٤ : ٣٣٧ .

(٢) تحف العقول : ٥ ، وردت : « انظر مَن تعصي به » .

علاقة الحسين عليه السلام بمن قبله ومن معه ومن بعده

يميل البعض من المفكّرين ممّن يريد إثبات وعيه ، وإخلاصه في كتابته للتأريخ أو فلسفة التأريخ ، إلى القول بترابط حلقات التأريخ عموماً ، أو تأريخ المعصومين عليهم السلام خصوصاً .

فإنّ التأريخ ليس مجموعة عشوائية من الحوادث ، وإنّما هو عبارة عن حوادث مترابطة ، أي أنّ فيه اتّصالاً ، وعلّية ومعلولية . بل بالإمكان القول : إنّ هناك نحواً من التخطيط والحكمة من أوّل التأريخ إلى آخره ، سواء كان التأريخ عموماً ، أو تأريخ معصومي ما بعد الإسلام ، ابتداء من النبيّ صلى الله عليه وآله وانتهاءً بالإمام المهدي عليه السلام خصوصاً . فالأئمّة عليهم السلام نفّذوا مخطّطاً واحداً مشتركاً ومدروساً ومتّفقاً عليه بينهم ، ولو كان أي منهم في محلّ الآخر لفعل نفس فعل الآخر . فلو كان الإمام الهادي عليه السلام مثلاً بدلاً من الإمام الصادق عليه السلام لفعل نفس فعله ، وكذلك العكس ، فإنّ المصلحة في زمن الإمام الصادق عليه السلام تقتضي الفعل الذي فعله الإمام عليه السلام ، فأي شخص من الأئمّة لو كان في ذلك الزمن لكان عليه أن يفعل ذلك الفعل ؛ لأنّ المصلحة الواقعية واحدة لم تتغيّر .

ثمّ إنّهم يذكرون لذلك المخطط وجوهاً واطروحات مستندة إلى ما استطاعوا فهمه من مجموعة الأقوال والأفعال الصادرة من المعصومين عليهم السلام وغيرهم .

ولا تنافي قطعاً بين كون التأريخ عموماً مخططاً عن حكمة ودراية وبين تاريخ المعصومين عليهم السلام وكونه مخططاً كذلك . وبتعبير آخر أنّ تاريخ المعصومين عليهم السلام

هو حصّة ، أو مصداق من التخطيط التاريخي العام . ولكنّهم عادة يبرزون فرقاً بينهما . وحاصله :

إنّ التخطيط العام للتاريخ تكويني ، والتخطيط في التاريخ الإسلامي تشريعي ، أو قل : إنّ ذلك تلقائي ، وهذا عمدي . نعم ، كلاهما عمدي بالنسبة إلى الله تعالى ، ولكنّنا نتحدث بالنسبة إلى الأفراد ، فإنّه لم يدلّ الدليل على أنّ الأفراد قبل الإسلام كانوا يعلمون الحكمة الإلهية ، وأنهم ملتفتون إلى التخطيط الإلهي بما فيهم الأنبياء عليهم السلام فضلاً عن عامّة الناس . ولكن الدليل دلّ على أنّ المعصومين بعد الإسلام كانوا ملتفتين إلى ذلك التخطيط ، وإلى الحكمة الإلهية ، كما ورد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أمير المؤمنين عليه السلام بالصبر ، فطبّقه الإمام عن علم وعمد[1] ، حتّى ورد أنّهم جاءوا إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه وقالوا له : إنّ إمامك يجرّ بحمائل سيفه ، ألا تنصره ؟ فقال : « والله لو أقسم على الله لانطبقت ذه على ذه »[2] . فإنّه ساكت عن علم وعمد تسليماً لأمر الله تعالى .

وإلى حد ما نستطيع أن نقول : إنّ هذه القاعدة ثابتة ومبرهن عليها في علم الكلام من ناحية ، وفي الفلسفة من ناحية أُخرى ، فإنّنا حينما نؤمن بوجود الله تعالى ، ونؤمن بعدله ، وحكمته اللّامتناهية ، بتسبيب الأسباب والمسبّبات ، إذن ، فكلّ شيء - مهما كان صغيراً - فهو مطابق للحكمة الإلهية التي نؤمن بها ، ويحتاجه التسبيب الكوني ، سواء أكان على وجه الكرة الأرضية أم خارجها .

هذا من ناحية علم الكلام . وأما من الناحية الفلسفية ، فإنّ الأُمور تفلسف بدقّة أكثر ، بحيث يجعلون الكون على شكل هرمي في المسؤولية الإلهية ، ابتداء من الصادر الأوّل ، وانتهاء بأدنى شيء . مضافاً إلى فكرة أُخرى ، وهي أنّ العلل العليا

---

(١) كتاب سليم بن قيس : ٢١٥.

(٢) الاختصاص : ١١.

ليس لها ماضٍ وحاضر ومستقبل فإنّ هذه الحدود تخنقنا؛ لأنّنا فيها، وأمّا من ينظر إليها من فوقها، فهو في غنى عنها، ولا يحتاج إليها، فليس لها ماضٍ وحاضر ومستقبل، بل إنّ كل ذلك هو تحت سيطرة العلل العليا، وبمعنى من المعاني كلّه مخلوق ومسطور من الأزل إلى الأبد، لا يتخلّف منه طرفة عين ولا ذرّة ضوء ولا غير ذلك من الأمور.

إن قلت: إنّ هذا قول بالجبر.

قلنا: إنّ من جملة فقرات هذا التخطيط هو اختيارية كل المخلوقات؛ لأنّ الفلاسفة المتعمّقين يقولون: إنّ كل الخلق له نحو من العقل والعلم والإرادة، كلّ حسب مرتبته؛ لأنّ هذه الأوصاف ملازمة للوجود، فما دام الشيء موجوداً فإنّ له نحواً من هذه الأوصاف مهما قل، فمن هذه الناحية يكون الاختيار مع الإرادة موجوداً.

إذن، فهذه الفكرة ثابتة ومبرهن عليها، ولكن مع ذلك فإنّها قابلة للمناقشة من عدّة وجوه محتملة:

الوجه الأوّل: أنّنا لا ننفي وجود هذا الترابط بين كلّ حلقات التاريخ، وهذا ما طبّقناه في كتابنا (اليوم الموعود) وسمّيناه بالتخطيط الإلهي لليوم الموعود، وذكرنا له هناك أطروحة محتملة[1].

إلّا أنّنا في مناقشة هذا الوجه نقول: إنّ هذا الترابط وإن كان واقعياً ومبرهناً، إلّا أنّه ممّا لا يعلمه إلّا الله سبحانه وتعالى. ونحن لا نستطيع أن نفهم الواقعيات وكنه علم الله سبحانه وتعالى؛ لأنّنا محجوبون وبعيدون عن الواقعيات، فخير لنا أن نتجنّب الخوض في أمثال هذه الأمور.

---

(١) اليوم الموعود: ٤٢٥.

جوابه: أنّنا إن كنّا بعيدين عن ذلك، فالأئمّة عليهم السلام يعلمون بالواقعيات حسب تعليم الله لهم. إذن فهم كانوا يسيرون ويتصرّفون حسب المخطّط المدروس الذي يبدأ ببيعة النبيّ صلى الله عليه وآله وينتهي (أو لا ينتهي) بظهور الإمام المهدي عليه السلام، والذي يستهدف نصرة الحقّ باستمرار بالمعنى الذي هم يفهمونه من النصرة.

إذن، فهذا العلم ليس مختصّاً بالله سبحانه، بل هو مبلغ إلى المعصومين عليهم السلام بالإلهام. وأمّا نفيه بالمرة أو الاستدلال على عدمه، فهو غير ممكن؛ للجزم بوجود قوانين عامّة إلهية تحكم التاريخ من ناحية، ووجود مصالح عامّة وخاصّة بشرية تحكم المجتمع من ناحية أُخرى. مع العلم أنّ المصالح تتحدد بما قبلها وبما بعدها من الأُمور والحوادث، ممّا يعلمه الله سبحانه. فلولا وجود خريطة معلومة لله سبحانه من المصالح، لكان العمل لغواً وعشوائياً، وهو محال على الله سبحانه وعلى المعصومين عليهم السلام.

الوجه الثاني: أنّ غاية ما نستطيع التعرّف عليه من تاريخ المعصومين عليهم السلام هو أنهم طبّقوا تكاليفهم الشرعية الواقعية، وليس فيهم أي تقصير في ذلك. وهذا معناه أنّ هناك مصدراً لهم من قبيل الرواية إن كان اتّجاهنا عامياً، أو إلهامياً، وإن كان اتجاهنا خاصياً، وقد ورد أنّ الإمام إذا أراد أن يعلم شيئاً أعلمه الله تعالى ذلك(١). وهذا معناه أنّهم طبقوا تكاليفهم العامّة والخاصّة. وهذا لا يلازم وجود التخطيط الذي أشرنا إليه.

والمقصود أنّ هذا يكفي لتفسير عمل المعصومين عليهم السلام، وهو الذي يدركه عوام المتشرّعة، ولا حاجة إلى افتراض علمهم عليهم السلام بما وراء ذلك أو أسبابه من المصالح الواقعية أو التخطيط الذي هو في علم الله سبحانه، ومعه فإذا لم يكن الأئمّة عليهم السلام عالمين بذلك فنحن أوْلى بعدم العلم به.

---

(١) الاختصاص: ٢٨٦، والكافي ١: ٢٥٦، ح١، وبحار الأنوار ٢٦: ٥٧، ح١١٩، ١٢٠، ١٢١.

جوابه : أنّ هذا فيه نقطة قوّة ، ونقطة ضعف ، أمّا نقطة القوة فإنّ هذه المقدّمة التي قيلت مقنعة إلى حدّ ما ، وهي أنّ قيام الأئمّة عليهم السلام بتكاليفهم الشرعية كافٍ في فهم التاريخ بهذا السير الذي ساروه ووصل أكثر خبره إلينا .

وأمّا نقطة الضعف ، فهي أنّ هذا وإن كان كافياً ، ولكنّه هل ينفي الزائد ؟ فإنّه لا ينافي أن يكون هناك مسلك عام ومشترك ومعلوم ومدرك بالنسبة إلى المعصومين عليهم السلام وخاصّة بعد أن نبرهن على بعض المقدّمات ، والتي **منها** : أنّه إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك .

ومنها : أنّ لهم ولاية تكوينية وتصرفاً في الكون عموماً ، بما فيها الفترة التي عاشوها من الدنيا .

ومنها : أنّهم خير الخلق على الإطلاق ، فما يكون عند الأدنى يكون عند الأعلى مع زيادة ، فإذا قال القائل : إنّ هذا المخطّط الإلهي يعلمه جبرائيل أو ميكائيل أو فلك الأفلاك ونحوه ، فالإمام خير منهم جميعاً . إذن ، فهو أوْلى بالمعرفة .

نعم الدليل المباشر دلّ على تعرّف الإمام سنوياً على الحوادث ـ في ليلة القدر ـ إلى مثلها في العام الذي يلي[(١)] ، ولكن هذا لا ينفي علمه بما هو أوسع من ذلك[(٢)] .

وإذا كان المعصومون عليهم السلام عالمين بذلك ، انسدّ ما قاله المستشكل من أنّهم إذا لم يكونوا عالمين به ، فنحن أوْلى بعدم العلم ، بل يكونون عالمين فعلياً ، وغيرهم عالم به إمكاناً واقتضاءاً .

وإذا كان هذا المخطط التاريخي العام موجوداً في علم الله سبحانه ، وفي علم المعصومين عليهم السلام ، كان في إمكان غيرهم التعرف عليه ، أو على أهم خصائصه ،

---

(١) شرح أُصول الكافي ٦ : ١٧ ، ح٨.

(٢) الكافي ١ : ٢٥٧ ، ح٣ ـ ٤.

أو جوانبه ، أو على بعضها أيّاً كان على أقل تقدير.

نعم ، يبقى هذا منوطاً بأمرين :

أحداهما : مقدار استفادته من الكتاب والسنّة ، فإنّ السنّة هي قول المعصوم أو فعله أو تقريره ، فهي داخلة تكويناً في هذا المخطّط . إلّا أنّ ما يمكن استفادته بنحو واضح ومطابق منها قليل جدّاً . وذلك بسبب نقص المصادر أساساً ، فإنّ كثيراً من الكتب قد تلفت خلال التاريخ ، أمّا عن علم وعمد ، وأمّا بالصدفة ، وكثير منها قد تلفت بسبب العوامل الخارجية من دون تعويض . فإنّ عشرات الآلاف من الكتب قد تلفت ، يكفي أنّنا نعلم بحسب النقل ، أنّ السيّد المرتضى علم الهدى ﷺ كانت تحتوي مكتبته ثمانين ألف كتاب مخطوط[1] ، فأين هي ؟ وكلّ علمائنا السابقين ، كانوا يمتلكون عدداً كبيراً من الكتب لم يصل منها إلينا إلّا النادر . فنقصان الكتب له دخل كبير في إلقاء الضباب والغبار على هذا الشيء الذي نتكلّم عنه .

الثاني : مستوى الفرد المفكّر الذي يحاول الفهم والاستفادة ، لوضوح أنّ الناس يختلفون بكلّ خصائصهم عقلياً ونفسياً وروحياً وثقافياً واجتماعياً ممّا تجعل النتائج عندهم مختلفة لا محالة .

ومن هنا اختلفت الأُطروحات والنتائج التي توصل إليها المفكّرون ، والمحاولات ليست كثيرة العدد ، إلّا أنّها كثيرة الاختلاف . فمثلاً : أنّ بعضهم يميل إلى فهم تاريخ المعصومين كقطعة واحدة ، وبعضهم يميل إلى تقسيمه إلى ثلاثة أقسام ، وبعضهم يميل إلى تقسيم كلّ حياة إلى عدة أقسام ، فيكون المجموع عشرات الأقسام وهكذا .

مضافاً إلى اختلافهم في فلسفة وأسباب التاريخ والأقوال والأعمال التي قام بها المعصومون عليهم السلام وأعداءهم وغيرهم ، مضافاً إلى مستوى النظر إلى المعصومين

---

(١) الانتصار : ٢٣ ، والخلاف ١ : ١٣ .

أنفسهم كقادة دنيويّين أو دينيّين أو معصومين ، أو خير الخلق ونحو ذلك . مضافاً إلى اختلاف مذهب المؤرخ أو الفيلسوف .

ونحن الآن لا حاجة لنا إلى إعطاء قانون عام أو فلسفة موحدة لأعمالهم أو للتأريخ ، وقد فرغت ذمّتي من ذلك بعد أن أعطيت صورة واضحة منه في (اليوم الموعود) .

وإنّما يكفينا هنا مجرّد إدراك ترابط العلل والمعلولات في علم الله تعالى ، وعلم المعصومين عليهم السلام قطعاً . فقد قال شخص في يوم من الأيام [١] : إنّ العشر سنين السابقة على الظهور فيها إعداد للظهور ، فقلت : نعم ، إلّا أنّ هذا الإعداد يحتاج إلى سبب وهو العشر سنين السابقة عليه وهكذا ، إلى أن يصل إلى صدر الإسلام ، بل إلى آدم عليه السلام .

فيكفينا هنا ملاحظة بعض العلاقات وإلقاء بعض الضوء عليها بمقدار ما هو مستنتج ومفهوم من الكتاب والسنّة .

---

(١) وهو المرحوم والدي قدس سره .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

علاقة الحسين عليه السلام بمن قبله

الآن نبدأ بعلاقته عليه السلام بمن قبله، وينبغي الكلام في عدّة أُمور، ونبدأ بالأسبق منها فالأسبق بمقدار ما هو ممكن، ولا حاجة إلى زيادة في التفصيل:

علاقة الحسين عليه السلام بمن قبل الإسلام

أي بالأنبياء السابقين وتابعيهم، وهذا فيه عدّة نقاط:

النقطة الأُولى: أنّ وجود الحسين عليه السلام كإمام مفترض الطاعة، وابن رسول الله صلى الله عليه وآله، ونحو ذلك، كما هو جزء من الإسلام، وحركته كذلك هي جزء منه، وخاصّة بعد أن نسمع قول النبي صلى الله عليه وآله: «**حُسَينٌ مِنّي وَأَنا مِنْ حُسَينٍ**»[1] فنسبة الحسين عليه السلام إلى السابقين هي نسبة الإسلام لهم؛ لأننا إذا نظرنا إلى الإسلام ككل بما فيه الحسين عليه السلام، إذن، فقد نسبنا الإسلام بما فيه الحسين عليه السلام إلى السابقين عليه.

النقطة الثانية: أنّ الحسين عليه السلام مدافع عن عقيدة التوحيد، وعن طاعة الله سبحانه، وهو أمر ثابت ومشترك بين الإسلام وما قبله، كما قال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾[2].

---

(١) الناصريات: ٩٠، والإرشاد ٢: ١٢٧.

(٢) آل عمران: ٦٤.

النقطة الثالثة: أننا نؤمن بدليل كاف للاطمئنان ، بعضه ظاهري ، وبعضه باطني ، أنّ الأنبياء السابقين كانوا مسلمين ، بل كانوا مسؤولين عن ولاية أهل البيت عليهم السلام ، إذ لا نجاة لأي بشر من آدم إلى يوم القيامة ، إلّا بولايتهم ، وأولى من يلتزم بولايتهم هم المعصومون السابقون على الإسلام ، الذين هم الأنبياء والرسل .

ويستشهد على ذلك من الكتاب والسنة بشي من النتف البسيطة ، كقوله تعالى : ﴿ **فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[١] ، وقوله تعالى : ﴿ **أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾[٢] ، فإنّ بعض الروايات تقول : « **ما كان تمنّي لوط للركن الشديد إلّا تمنّياً لوجود المهدي (عج)** »[٣] . ومن هنا ورد أنّ قسماً منهم على الأقل كانوا يعلمون بالتاريخ المستقبل الذي يحصل لأهل البيت ، فمن ذلك ما ورد : أن موسى والخضر حين اجتمعا ، كان من جملة ما ذكراه ، مصائب الحسين عليه السلام وما يحدث له في طف كربلاء ، وبكيا طويلاً لذلك[٤] .

ومن ذلك ما ورد في التوراة والإنجيل ، فقد ورد فيهما ظهور النبي صلى الله عليه وآله وظهور المهدي (عج) ، وبعض التفاصيل عن الحسين عليه السلام بالرغم من أنّ هذين الكتابين محرفان ، إلّا أنه مع ذلك وجد فيهما مثل هذه الأمور بشكل وآخر .

إذن ، فهناك علاقة حميمة بين من قبل الإسلام وبين من بعده بما فيه الحسين عليه السلام .

علاقة الحسين عليه السلام بنبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله

لا حاجة إلى كثرة الحديث في هذا الأمر ، لأن المسألة تعتبر من ضروريات الدين ، وضروريات التاريخ وإنّما نريد أن نقتبس شيئاً من كلمات الحسين عليه السلام كشاهد

---

(١) البقرة : ١٣٢.

(٢) هود : ٨٠.

(٣) كمال الدين : ٦٧٣ ، ح٢٦ ، وبحار الأنوار ١٢ : ١٧٠ ، ح٣٠.

(٤) مستدرك سفينة البحار ٧ : ٢١٣.

على علاقته برسول الله صلى الله عليه وآله وبدين رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك من كلمات النبي صلى الله عليه وآله ومن أفعاله كشاهد على ذلك أيضاً.

منها: أنّه قال الحسين عليه السلام في بعض خطبه: **«إنّي لَمْ أخْرُجْ أشراً، وَلا بَطراً، وَلا مُفْسِداً، وَلا ظَالِماً، وَإنّما خَرَجْتُ لِطَلَبِ الإصْلاحِ في أُمّةِ جَدّي رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، اُريد أن آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَأنْهىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب. فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ، وهو خير الحاكمين»**(١).

ومنهـا: أنّه قال: **«لا مَحِيصَ عَنْ يَوْمٍ خُطَّ بِالْقَلَمِ، رِضَى اللهِ رِضانا أهْلَ الْبَيْتِ، نَصْبِرُ عَلىٰ بَلائِهِ، وَيُوَفِّينا أجْرَ الصّابِرِينَ، لَنْ تَشُذَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله لَحْمَتُهُ، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ لَهُ في حَضِيرَةِ الْقُدْسِ، تَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ وَيُنْجَزُ بِهِمْ وَعْدُهُ، مَنْ كانَ باذِلاً فِينا مُهْجَتَهُ، وَمُوَطِّناً عَلىٰ لِقاءِ اللهِ نَفْسَهُ فَلْيَرْحَلْ مَعَنا، فَإنّني راحِلٌ مُصْبِحاً إنْ شاءَ اللهُ تَعالى»**(٢).

ومنهـا: أنّه قال: **«أمّا بَعْدُ، فَانْسِبُوني فَانْظُرُوا مَنْ أنا، ثُمَّ ارْجِعُوا إلى أنْفُسِكُمْ وَعاتِبُوها، فَانْظُرُوا هَلْ يَصْلُحُ لَكُمْ قَتْلي وَانْتِهاكُ حُرْمَتي؟ ألَسْتُ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وآله، وَابْنَ وَصِيِّهِ، وَابْنَ عَمِّهِ، وَأوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقَ لِرَسُولِ اللهِ بِما جاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ؟ أوَلَيْسَ حَمْزَةُ سَيِّدُ عَمّي؟ أوَلَيْسَ جَعْفَرٌ الطَّيّارُ في الْجَنَّةِ بِجناحين عَمّي؟ أوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ ما قالَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله لِي وَلِأخي: هٰذانِ سَيِّدا شَبابِ أهْلِ الْجَنَّةِ؟»**(٣).

ومنها: قوله: **«ألَا ترون أنّ الحقّ لا يُعْمَلُ بِهِ، وَأنّ الباطل لا يتناهىٰ عَنْهُ... وإنّ الدِّينَ لَعَقٌ عَلىٰ ألْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ ما دَرَّتْ مَعايِشُهُمْ، فَإذا مُحِّصُوا بِالْبَلاءِ**

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) مثير الأحزان لابن نما: ٢٩، وبحار الأنوار ٤٤: ٣٦٧، واللهوف: ٣٨.

(٣) الإرشاد ٢: ٩٧، وكشف الغمّة ٢: ٢٢٢ مثله.

قَلَّ الدَّيَانُونَ»[١].

وأمّا كلمات رسول الله ﷺ فقد ورد أنّه بكى على مقتل الحسين عليه السلام وبكى له أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام.

وبكى أمير المؤمنين عليه السلام حينما رأى كفّي العباس عليه السلام حين ولادته[٢]. وقد ورد عنه أنّه قال لعقيل أن يخطب له امرأة ولدتها الفحول ليتزوّجها **«لتلد غلاماً زاكياً شجاعاً لينصر ولده أبا الشهداء في ميدان كربلاء»**[٣].

ويروى أنّ الحسين عليه السلام حين كان صغيراً صعد على ظهر جده حال السجود، وهو إمام في صلاة الجماعة في المسجد، فبقي رسول الله ﷺ ساجداً والجماعة كلها ساجدة إلى أن نزل باختياره عن ظهره، وعندئذ رفع رأسه[٤].

وهذا له معنى ظاهري وباطني. أما الباطني فمن الأسرار، وأما الظاهري فالإعلام بأهمية الحسين لدى جده إلى حد يتعب هو في سبيله، ويتعب الناس في سبيله، فإنّ في إطالة السجود صعوبة لا محالة.

فيريد أن يبين بذلك العلاقة الاجتماعية التي بينه وبين الحسين، وباللغة الحديثة الإعلام أو الإعلان عن أهميته، وأخذه بنظر الاعتبار مئة في المئة، حتّى لو كان طفلاً صغيراً.

فهناك اثنان فقط من خلق الله تعالى صعدا على رسول الله ﷺ وهما: أمير المؤمنين عليه السلام[٥] وولده الحسين عليه السلام.

---

(١) بحار الأنوار ٧٥: ١١٧.

(٢) العبّاس بن عليّ، المقرّم: ٣٢.

(٣) العبّاس بن عليّ، المقرّم: ٢٢.

(٤) كتاب سليم بن قيس: ٢٧٦، باختلاف يسير.

(٥) علل الشرائع ١: ١٣٦، ووسائل الشيعة ١٣: ٢٠٧، وبحار الأنوار ٢١: ٣٩٨، ح٢٢.

وورد عنه صلى الله عليه وآله: «أُحبهما وأُحب من يحبهما»(١).

وورد عنه صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»(٢). يعني سيدا أهل الجنة؛ لأنهم كلهم شباب، وهما خير الناس على الإطلاق بعد الثلاثة الآخرين من أصحاب الكساء.

وورد عنه صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»(٣). وذلك لعلمه صلى الله عليه وآله بأن أحدهما لن تتوفر له ظروف الحرب وسوف يقعد عنها، والآخر تتوفر له ظروفها فيقوم بها. والمهم وثاقتهما في نظر رسول الله صلى الله عليه وآله بحيث لا يختلف عنده أنهما قاما أو قعدا، يعني أن ما يريان أنه المصلحة هو الحق والصحيح.

وورد عنه صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين ولداي من صلب علي»(٤).

وهذا يعني أنّ انتساب الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله بالبنوة الحقيقة له. فهو والدهم الحقيقي والواقعي، وإن كان أبوهما الظاهري هو أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن هنا قال: ولداي ولم يقل ابناي، وهذا أوكد من هذه الناحية؛ لأن الابن قد يكون بالمعنى الأعم، لكن الولد لا يكون إلّا بالمعنى الأخص، فمن هذه الناحية اختار أصرح اللفظين وأوضحهما.

فإنّ انتساب الحسن والحسين عليهما السلام وإن كان بحسب الأسباب الدنيوية إلى الزهراء. ولكن المسألة ألصق من ذلك، فهم أولاد النبي مباشرة. وهذه مزية لم تعط لأحد من الخلق غيرهما.

---

(١) بحار الأنوار ٢٧: ١٠٦، و ١٠٩: ٧٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤: ١٧٩، وعيون أخبار الرضا ١: ٣٦، ح٥٦.

(٣) علل الشرائع ١: ٢١١، ح٢، ومناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٣، وبحار الأنوار ٤٣: ٢٩١، ح٥٤.

(٤) ورد في روضة الواعظين: ٩٥، «ذرّيّة كلّ نبيّ من صلبه، وذرّيّتي من صلب عليّ».

ويمكن أن نفهم ذلك من القرآن الكريم، وذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ** ﴾[١]، فمحمد وعلي نفس واحدة، ونور واحد، فإذا كانا واحدا فما يكون لهذا يكون لهذا. وكما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: «**إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى**»[٢].

فإنّ بعض العلويين كالعباس ومحمد بن الحنفية وغيرهم، وإن كانوا علويين وأشراف، بل هم من الصلب المباشر لعلي عليه السلام وهذا مهم جداً، إلّا أنه لم يرد فيهم «**ولداي**» كما ورد في الحسنين عليهما السلام. بل حتّى لو كانت الذرية من علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام كمحسن وزينب عليهما السلام فإنّ الحسن والحسين أفضل.

إن قلت: إن قوله تعالى: ﴿ **وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ** ﴾ ليس دليلاً على وحدة محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام، وذلك بأن نلتفت إلى أنه يكفي في صدق ﴿ **أَنفُسَنَا** ﴾ وحدة الجماعة بوحدة الهدف، ووحدة المصالح. أي جماعتنا وجماعتكم. بدليل أنه لا يحتمل أن يكون المسيحيون كل واحد منهم هو عين الآخر، فكما أنه لا نقول بالنسبة للمسيحين بالوحدة[٣]، فكذلك لا نقول بالوحدة بالنسبة إلى المسلمين.

قلنا: إننا نضم قضية خارجية قطعية، وهي أن النبي صلى الله عليه وآله لم يطبق عنوان ﴿ **أَنفُسَنَا** ﴾، إلّا على اثنين: هو وأمير المؤمنين[٤]. في حين أنه طبق المسيحيون ذلك على جماعة متعددين. فـ«نساؤنا» منحصرة بالزهراء عليها السلام، و«أبناؤنا» منحصرة بالحسنين، و«أنفسنا» منحصرة بعلي عليه السلام بعد أن نلتفت أنّ النبي صلى الله عليه وآله هو الداعي.

والشيء الآخر الذي وودت الإشارة إليه، هو أن علياً نفس محمد، ولكن ليس

---

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) نهج البلاغة ٢: ١٥٨، وبحار الأنوار ١٤: ٤٧٦.

(٣) يعني: المسيحيّين الموجودين عند المباهلة.

(٤) تفصيل أمير المؤمنين: ٢١، وبحار الأنوار ٢١: ٣٢١.

بالمنازل المتدنية ، فهما بالدنيا اثنان ، وفي الآخرة كذلك اثنان ، وإنّما هما نور واحد في قمة عالية جداً . وظاهر الكتاب والسنة مكرس على الاثنينية تقريباً ، فلذا ورد أنه نام على فراش النبي صلى الله عليه وآله مثلاً ، أو تزوج بنت النبي صلى الله عليه وآله ، وأنه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونحو ذلك من الأمور .

فكل هذه الأُمور تدعم بوضوح وصراحة الاثنينية ، وإنّما هي إثنينية في عالمها .

إذن ، فعلي عليه السلام فيه جهتان : جهة استقلالية ، وجهة فنائية في رسول الله صلى الله عليه وآله أو قل جهة غيرية وجهة عينية ، وقد حاز في كل جهة شيئاً من المميزات . فمثلاً أنّ قوله صلى الله عليه وآله : « **إنّك ترى ما أرى ، وتسمع ما أسمع** »(١) ، وقوله صلى الله عليه وآله : « **ما عرف الله إلّا أنا وأنت** »(٢) ، فانه باعتبار الجهة الفنائية والعينية .

فقد ولد علي عليه السلام الحسنين عليهما السلام من الجانب الفنائي ، فأصبحا أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة . وقد ولد الآخرين بالجانب الاستقلالي ، أي بصفته مغايراً له . وبالنتيجة فقد ولد كل أولاده بالجانب الاستقلالي ما عدا الحسنين عليهما السلام .

فإن قلت : إنّ علياً عليه السلام فيه جانب فنائي وجانب استقلالي ، فمن قال : إنه ولد الحسنين بالجانب الأول دون الثاني . بل الأظهر أنه ولدهما بالجانب الاستقلالي والغيري .

قلنا : إنّ المسألة إذا بقيت على هذا المقدار فلا بأس ، لكننا نستطيع أن نقيم قرائن ودلائل على أنهما ولدا من علي عليه السلام بعنوان العينية والفنائية :

منها : ذلك الخبر الوارد : « **الحسن والحسين ولداي من صلب عليّ** »(٣) .

---

(١) نهج السعادة ٧: ٣٣.

(٢) مختصر بصائر الدرجات : ١٢٥ ، ومدينة المعاجز ٢: ٤٣٩ ، وتأويل الآيات ١ : ١٣٩ .

(٣) ورد في روضة الواعظين : ٩٥ ، « **ذرّيّة كلّ نبيّ من صلبه ، وذرّيّتي من صلب عليّ** » .

ومنها: شهرتهما أنهما ابنا رسول الله ﷺ حتّى كان كل منهما ينادى بذلك[١].

ومنها: أهميتهما البالغة في نظر الرسول ﷺ ممّا لم تعط لأحد من إخوتهما حتّى من أبناء علي وفاطمة عليهما السلام أنفسهما.

على أنه يمكن القول: إنّ مميزات الحسين عليه السلام أكثر من مميزات الحسن عليه السلام مثل ما ورد: «**الشفاء في تربته، وإجابة الدعاء تحت قبّته، والأئمّة من ذرّيّته**»[٢]، مضافاً إلى أنه وفق إلى نوع من الشهادة لم يرزق غيره منها بما فيها أبوه وأخوه. ولولا وجود الدليل على أنّ «**أبوهما خير منهما**»[٣] لقلنا: إنه خير من أبيه، ولكن ليس إلى ذلك من سبيل.

مضافاً إلى أنه ليس هناك أحد غيره شاء الله في نسائه ان يراهن سبايا على أقتاب المطايا، أو أن يقتل ابنه الرضيع في يده، أو أن تدوس الخيل صدره وظهره، أو أن يقتل جائعاً عطشاناً. وأهميه الجوع والعطش عند الموت أمام الله سبحانه واضحة، قد أرادها أمير المؤمنين عليه السلام، لنفسه حين قال: «**إنّما هي ليالٍ قلائل حتّى يأتي أمر الله وأنا خميص البطن**»[٤] وأرادها العباس عليه السلام لنفسه، حيث ألقى بالماء ولم يشربه[٥]، وهذا ما ذكرناه في (الأضواء).

الشيء الآخر بهذا الصدد: أنّ هناك رواية أخرى تدل على فضيلة للحسين عليه السلام، وهي بحسب المضمون: أنه لما ولد الحسن عليه السلام أتاه النبي ﷺ وإذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، وقال للزهراء عليها السلام: لا ترضعيه إلى أن أرجع ثم خرج. فتأخر

---

(١) وسائل المرتضى ٣: ٢٦٤، والسرائر ٣: ٢٣٨، ومختلف الشيعة ٩: ١٢.

(٢) وسائل الشيعة ١٤: ٥٣٧، وعدّة الداعي: ٤٨.

(٣) بحار الأنوار ٣٩: ٩٠، ح١، والصراط المستقيم ١: ٢١٠، وعلل الشرائع ١: ١٧٤، وعيون أخبار الرضا ١: ٣٦.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٩: ١٨٧.

(٥) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، ومناقب آل أبي طالب ٣: ٢١٥.

النبي ﷺ فبكى الحسن عليه السلام برهة من الزمن فأخذها ما يأخذ النساء، أي من الشفقة، وأرضعته.

ولما ولد الحسين عليه السلام جاء جده ﷺ أيضاً، وأذن في أُذنه اليمنى وأقام في اليسرى، ثم قال لها: لا ترضعيه إلى أن أرجع. فلم ترضعه إلى أن رجع رسول الله ﷺ. حينئذ أقبل النبي ﷺ، فوضع إبهامه في فم الحسين عليه السلام، فارتضع الحسين عليه السلام من إبهام النبي ﷺ. ولعل ظاهر الرواية أنّها ليست مرة واحدة، بل استمر على ذلك أياماً[1]، ولعل هذا من أسباب المميزات التي ذكرناها قبل قليل، فإنها مزية لم تكن لأخيه الحسن عليه السلام. فكان يتغذى بنفس رسول الله ﷺ.

والرواية حينما تقول: **«فأخذها ما يأخذ النساء أي من الشفقة»**، فهو بحسب الظاهر قول الراوي، وإلّا لو كان كذلك، لأخذها نفس الشيء في حالة الحسين عليه السلام؛ لأن الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد، وإنّما ذلك حسب ما رأت سلام الله عليها من المصلحة، والحكمة الواقعية.

فإن قلت: فهل أن الزهراء عليها السلام عصت رسول الله ﷺ وقد قال لها عند ولادة الحسن عليه السلام: لا ترضعيه.

قلنا: إنّ جواب ذلك من عدة وجوه:

الأوّل: ضعف سند الرواية، فلعلها موضوعة، أو مزيد فيها. ولو لم يكن إلّا هذا الجواب لكفى.

الثاني: إنّما تكون الزهراء عليها السلام مقصرة وحاشاها، فيما إذا كان الأمر إلزامياً، فيحرم عليها الإرضاع، وأما إذا لم يكن الأمر إلزامياً فلا إشكال، ولعلهم متفقون فيما بينهم على أنّ هذه الأوامر لا تكون إلزامية، وإنّما هي اقتراحات، أو ترجيحات، أو نحو ذلك.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٠٩، وبحار الأنوار ٤٣: ٢٥٤.

الثالث: أنه ما من شيء حرمه الله إلّا وأحله في وقت الضرورة، وهذا حكم شرعي نافذ على المعصومين وغيرهم. ومن الممكن القول ببساطة، ووضوح: إن الزهراء عليها السلام شعرت بالضرورة والعسر والحرج. فالضرورة أسقطت الأمر بوجوب تأجيل الإرضاع.

الرابع: أنها تلقّت من الله أمراً عن طريق الإلهام، بأن ترضعه؛ لأن ذلك استحقاقه، والإلهام مقيد لأمر النبي صلى الله عليه وآله ويكفي لنا أن نحتمل ذلك، في أن نحملها على الصحة.

وهذا الخبر كما يدل على علاقته برسول الله صلى الله عليه وآله، يدل على علاقته بالزهراء عليها السلام.

علاقته بالزهراء عليها السلام

وفيها عدة أمور رئيسية:

الأوّل: حديث الإطعام[1]، ونزول القرآن في ذلك ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً**﴾[2].

ولا يخطر في الذهن أنهم قالوا ذلك بلسان المقال، ولو قالوا ذلك لكانت نقطة ضعف فيهم، حيث إنهم يمنون على الطرف المقابل. ولكن الله تعالى نطق عنهم، وعن اتجاههم. ولو قالوه بلسانهم لفشلوا، بحسب فهمي.

الثاني: حديث الكساء[3]، وهو مشار إليه حتّى في كتب العامة: وله أهمية عالية، ولو كان هناك واحد من الخلق لا من البشر فقط يستحق الدخول تحت الكساء لقدر الله ذلك.

ومن جملة القرائن على ذلك: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله منع أم سلمة من الدخول،

---

(١) عيون أخبار الرضا ١: ٢٠٥، وأمالي الصدوق: ٣٢٩، ح ٣٩٠، والإرشاد ١: ١٧٨.

(٢) الإنسان: ٨ و ٩.

(٣) الكافي ١: ٢٨٧، وكتاب سليم بن قيس: ٢٩٨، وكلمات الإمام الحسين: ٥١، ح ٣٥.

وقال لها: «أنت على خير»[١] في حين أنّها عظيمة ومهمة، والحسين قد أعطاها ترابا من تراب كربلاء، ومع ذلك فقد منعت.

إن قلت: إنّ القضية ليست بهذه الأهمية، فإنّ جبرئيل عليه السلام إذن له بالدخول تحت الكساء.

قلنا: إنّ جبرئيل دخل لأجل تكامل نفسه، وبطلب منه، بعد أن افتخر الله سبحانه بهؤلاء الخمسة، لا لأنه مستحق في المرتبة السابقة. فهؤلاء دخلوا؛ لأن المكان مكانهم، ولكن جبرئيل دخل كشي استثنائي. مضافاً إلى أنه دخل مفتخراً، وليس غيره كذلك، ويتضح من ذلك أنه أدنى من أي واحد منهم.

وقد يخطر في الذهن: أنهم سلام الله عليهم قد دخلوا تحت الكساء مترتبين حسب الأفضلية. ولكن هذا منقوض بأمرين:

الأوّل: ان الحسن عليه السلام قد دخل تحت الكساء قبل الحسين عليه السلام وليس الحسن عليه السلام أفضل من الحسين عليه السلام وإن كان هو ظاهراً إمامه في فترة حياته.

الثاني: تأخر الزهراء عليها السلام في الدخول مع أنّها أفضل من ولديها مؤكداً. وإنّما حصل ذلك لأنها المضيفة، والواقعة حدثت في دارها، فكان من الطبيعي لها أن تتواضع وتتأخر.

آية القربى:

ثم إنه من الآيات التي تشمل الزهراء عليها السلام والحسين معاً، آية المودة في القربى، وهي قوله تعالى: ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾[٢]

---

(١) كمال الدين: ٢٧٨، وأمالي الطوسي: ٥٦٥، وبحار الأنوار ٣٥: ٢١٩، والمعجم الكبير ٣: ٥٤، ح٢٦٦٧، وتاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٤١، وينابيع المودّة ٣: ٣٦٨.

(٢) الشورى: ٢٣.

ونحن نعلم أنّ القربى لا يقصد منهم إلّا أربعة: وهم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وأما باقي المعصومين فهم في الدرجة الثانية.

فالمودة في القربى هي أجر رسول الله صلى الله عليه وآله، مقابل ما ضحى في سبيل الله، وفي سبيل كل مؤمن ومؤمنة.

فان كانت في قلب الفرد الولاية لهم، إذن فقد أدى أجر رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن لم تكن الولاية في قلبه، إذن فقد خان رسول الله صلى الله عليه وآله.

فإن قلت: إنّ المودة هي الحب والعاطفة، وأما الولاية فهي شيء آخر، وما هو المذكور في الآية هو المودة وليست الولاية. فكيف نحمل الآية على خلاف ظاهرها؟

قلنا: إنّ جوابه من عدة وجوه:

الوجه الأوّل: أنّ العاطفة النفسية لا فائدة من ورائها، وهي ساقطة تماماً. فإذا كان مجرد الحب لهم هو الذي ينجي، فإنّ كثيراً من الناس ممن هو خارج التشيع، وخارج الإسلام، يحبونهم ويحترمونهم بدرجة معتد-بها. فهل نعترف بأنهم ناجون؟

فالولاية تشير إلى شيء يكون سبباً للنجاة. والحب وحده لا يكون كذلك، إذن فلابد لنا أن نصرف الآية عن ظاهرها إلى ما يكون سبباً للنجاة، وهو الولاية.

الوجه الثاني: أننا لو تعمقنا بمقدار معتد به، نرى أنّ كثيراً ممن يدعون أنهم محبون لأهل البيت عليهم السلام كاذبون، (لأن المحب لمن يحب مطيع)[1] في حين أننا نرى أنّ حياتهم ليست مبنية على الطاعة. إذن فالحب الحقيقي مساوٍ للولاية الحقيقية تساوي المثلين، فيبدآن من نقطة واحدة وينتهيان إلى نهاية واحدة.

وكذلك من الآيات التي تشمل الزهراء عليها السلام والحسين عليه السلام آية التطهير.

---

(١) مقطع من بيت شعر روي أنّ الإمام الصادق عليه السلام تمثّل به. انظر وسائل الشيعة ١٥: ٣٠٨، ومناقب آل أبي طالب ٣: ٣٩٥.

آية التطهير:

وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[١].

أُريد أن أبين هنا ـ بمقدار ما يناسب ـ شيئاً من تفسير هذه الآية.

وأول شيء أبدأ به هو معنى البيت، في قوله تعالى: ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾، فهو معنى إضافي حذف طرفه في الآية الكريمة، فهو لم يقل أهل بيت من؟ فان فيها أُطروحتان:

الأُطروحة الأُولى: أنهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وهي الأُطروحة المشهورة.

الأُطروحة الثانية: أنهم أهل بيت الله سبحانه.

وأنا أُريد الآن أن أُقيم القرائن على نفي الأُطروحة الأُولى وتعين الثانية. وذلك ضمن خطوات:

الخطوة الأُولى: أن نعطي المعنى اللغوي للبيت. فالبيت هو ما نسميه باللغة الحديثة الغرفة أو الحجرة. ويسمون الخيمة بيتاً، وأما المجموع من البيوت فتسمى داراً، لأنّ الحائط يدور على سائر البيوت.

ويظهر أنّ للنبي صلى الله عليه وآله في داره عدة بيوت (غرف) بعدد أزواجه، وكان يأوي في كل ليلة إلى واحدة منهن.

الخطوة الثانية: أنه لم يثبت إطلاقاً أنّ للنبي صلى الله عليه وآله، بيتاً خاصاً به.

إذن، فما هو الذي يصدق عليه أنه بيت رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فإنّ ما يسمى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فيه عدة احتمالات. وكلها غير صحيحة:

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

الاحتمال الأوّل: الدار مجموعاً. وهي لا تسمى بيتاً بضرورة اللغة.

الاحتمال الثاني: غرفة خاصّة به، ولم يثبت أنّ لـه غرفة خاصّة به، ولو ثـبت ذلك لما شاركه فيها أحد.

الاحتمال الثالث: بيوت زوجاته. وهي إنّما بيوتهن، وليست خاصّة به.

فإن قلت: فان لفظ (أهل البيت) يراد به تمثيل وجود رسول الله صلى الله عليه وآله كالخيمة على أهله، وهو تمثيل عرفي، فمن يكون تحت هذه الخيمة فهو من أهل البيت.

قلنا: إنّ هذا قابل للمناقشة من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ هذا معنى مجازي، والحـمل عـلى المـعنى الحـقيقي أولى، ولا يوجد عندنا معنى حقيقي لبيت رسول الله صلى الله عليه وآله.

الوجه الثاني: أن خيمته المعنوية غير خاصّة بالمعصومين عليهم السلام، بل شاملة لسائر المسلمين والمؤمنين.

فإن قلت: فإنّ نسبة البيت إلى الله سبحانه أيضاً مجازية وليست حقيقية.

قلنا: نعم، لاستحالة وجود البيت بالمعنى المادي لله سبحانه وتعالى، فيتعين أن يكون بيته معنوياً.

فإن قلت: إنّ بيت رسول الله صلى الله عليه وآله المعنوي إذا كان شاملاً لجـميع المسـلمين، فان بيت الله المعنوي شاملاً لكل الخلق، وليس خاصّة بأحد.

قلنا: نعم، إلّا انه يختلف باختلاف المستويات والدرجات. ونستطيع ان نجعل لكل مجموعة بيتا خاصا بهم. فاخص الخلق أجمعين هم الأحق بـالبيت الخـاص بهم، وهم الخمسة أهل الكساء.

قد يقال: اننا ان تحدثنا عن النبي صلى الله عليه وآله خلال فترة حياته المتأخرة عن وفاة خديجة سلام الله عليها، فهذا الذي قلناه صحيح حيث كان في داره عدة بيوت، ويسكن في

كل بيت واحدة من أزواجه . اما إذا تحدثنا عنه في عصر وجود خديجة معه فالحال يختلف ، حيث انه من الأكيد ، ومن ضروريات التاريخ ، انه لم يتزوج غيرها على ان توفيت . ومعه فقد يكون له بيت مستقل ، فيصدق عليه انه بيت رسول الله صلى الله عليه وآله .

جوابه : اننا نسأل ان الآية الكريمة ، هل انها نزلت في حياة خديجة عليها السلام أم بعد وفاتها ؟

وحسب فهمي ان خديجة عليها السلام ماتت ، ثم تزوج النبي صلى الله عليه وآله المتعددات ، ثم ولد الحسن والحسين عليهما السلام ثم نزلت الآية الكريمة وهذا ينبغي ان يكون واضحا .

كما انه ينبغي الالتفات إلى ان دار رسول الله صلى الله عليه وآله كانت في حركة دائمة ، منذ وفاة خديجة ، إلى حين وفاته صلى الله عليه وآله من حيث الأزواج ، فلربما كانت تضيق على عدد زوجاته ، ويكفي ان نلتفت انه صلى الله عليه وآله توفي عن تسع حرائر بالعقد الدائم ، أي عن تسع زوجات . فهل كان في داره تسع غرف ؟ كلا طبعا . وربما يسكن عدة زوجات في غرفة واحدة . والمهم انه ـ مع هذا الحال ـ لا يمكن ان تكون له غرفة مستقلة .

كما ينبغي الالتفات انه على فرض وجود بيت مستقل له ، فهو خاص به لا يسكنه أحد غيره . ولا أقل ان تكون نسبة غيره إليه مجازية جزما كائنا من كان ، حتّى عليّ وفاطمة عليهما السلام . فنحن امام مجاز بكل تأكيد ، أي بكل محتملات الفهم في الآية . ولا أقل ان يدور الأمر بين اعتبارهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله لحبه لهم ، أو أهل بيت الله تعالى لحبه لهم ، ودرجاتهم العالية عنده . والثاني أولى ، لأن النسبة إلى الله تعالى دائماً هي الأولى .

فإن قلت : انه قد تسمى الدار بيتا مجازا .

قلنا : إنّ المجاز يحتاج إلى قرينة وهي غير موجودة . واعتقد أنّ هذا المعنى كان مستنكراً لغة .

فإن قلت : إننا نستصحب ذلك استصحابا قهقرياً إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وآله ، أي

أننا الآن نسمي الدار بيتاً، ونشك أنه كان كذلك فيما مضى، فنستصحبه استصحاباً قهقرياً، ونقول: إنه كذلك في صدر الإسلام، أو في زمن نزول الآية الكريمة.

قلنا: إننا لا نريد أن ندخل في مناقشة الاستصحاب القهقري. وإنّما كل ما في الأمر أنّ هذا الاستصحاب معارض باستصحاب أصلي معاكس؛ لأن الناس قبل الإسلام كانوا يطلقون لفظ الدار على مجموع الغرف، ولفظ البيت على الغرفة الواحدة، فهل انتفى ذلك في عصر النبي ﷺ أم لا؟ فنقول: إنه بقي على هذا الاستعمال، إلى أن نحرز خلافه في العصور المتأخرة عن النبي ﷺ، حيث أخذ الناس يخطأون ويسمون الدار بيتا.

حينئذ ينتج من ذلك نتيجتان:

النتيجة الأُولى: أنّ أزواج النبي ﷺ ليس فيهن واحدة داخلة في مفهوم أهل البيت، وإن كن ساكنات معه في داره، وذلك لعدة تقريبات ظهرت ممّا سبق.

منها: أننا لو قبلنا أنّ له بيتاً خاصاً به، فليس إحداهن تسكنه.

ومنها: أنّ كل واحدة من زوجاته هي أهل بيتها، وليس بيتها بيت النبي ﷺ.

ومنها: أننا بعد أن قربنا أنّ المراد بالبيت بيت الله تعالى، فهل هن أهل لهذه النسبة؟ فمن كانت أهلاً لذلك نسبناها، ومن كانت ليست أهلاً رفضناها كائنة من كانت.

فانه لم يدع أحد عصمتهن، ولم يدع أحد عدم صدور الذنوب منهن، فضلاً عن صدور ذنوب كبيرة من بعضهن، فهل تكون من قد حاربت إمام زمانها أهلاً لأن تنسب إلى المقام الأعلى القريب من الله تعالى حتّى لو تابت. فلذا قال تعالى: ﴿ **لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾[١]، أي أنّ من أذنب في حياته ولو بذنب واحد فإنّه

---

(١) البقرة: ١٢٤.

لا يصلح أن يكون أهلاً للإمامة ؛ لأن ذلك الذنب يؤثر فيه أثراً يبقى معه طيلة حياته حتّى لو تاب. فإنّ عبادة الأصنام أو شرب الخمر أو الزنا، تجعل إمامة من قام بها متعذرة.

النتيجة الثانية: أنّ ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ معنى خاص بأصحاب الكساء الخمسة ؛ لأنهم خير الخلق على الإطلاق، ولا يشمل غيرهم بما فيهم التسعة المعصومون من أولاد الحسين ﷺ، وبما فيهم الأنبياء والأولياء السابقون.

مضافاً إلى أنه توجد الكثير من الروايات الواردة عن النبي ﷺ أنه يقول: «**إنها نزلت فيَّ وفي علي وفاطمة والحسن والحسين**»[1].

وإنّما قال ذلك ؛ لكي لا يخطر في ذهن أحد كائناً من كان إنه منهم.

إن قلت: إنه لا يوجد فيها مفهوم مخالفة، فإنّه حينما قال: «**إنها نزلت فيَّ وفي علي وفاطمة والحسن والحسين**». لم ينف الزائد.

قلنا: إنّ لسان الحال يؤكد على أنّها نزلت في هؤلاء فقط. ويقرب ذلك أمران:

الأمر الأوّل: أنّ غيرهم أوضح في عدم الانطباق ؛ وذلك لعدم معاصرتهم لرسول الله ﷺ.

الأمر الثاني: أنّ ظاهر الآية هو انطباقها على مصاديق متحققة فعلاً، وليس على مصاديق سوف تأتي.

فإن قلت: إذا كان المراد بالبيت بيت الله تعالى وليس بيت رسول الله ﷺ، فإنّ بيت الله شامل للأزمنة الثلاثة أي الماضي والحاضر والمستقبل، ولا دخل

---

(١) أمالي الطوسي: ٥٦٥، وبحار الأنوار ٣٥: ٢١٨، ح٢٥، و ٣٦: ٣٠٨، ح١٤٧، والمعجم الكبير ٣: ٥٣، ح٢٦٦٦، وخصائص الوحي: ١٠١، ح٣٥، وشواهد التنزيل ٢: ٩٥، ح٧٢٠، وينابيع المودّة ٣: ٣٦٨.

لولادة التسعة المعصومين عليهم السلام. فإنّ لم يكونوا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، فهم أهل بيت الله.

قلنا: إننا لا بدّ أن نلتفت إلى الفرق بالقرب الإلهي، بين هؤلاء الخمسة، وهؤلاء التسعة. فإنّ الفرق موجود، ودلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة.

إذن، فإذا كان أهل الكساء عليهم السلام أعلى مرتبة من التسعة المعصومين عليهم السلام، فإنّ بيتهم خاص بهم، ولا يتعدى إليه غيرهم.

فإن قلت: إنّ المعصومين التسعة عليهم السلام إذا خرجوا عن موضوع الآية، فقد خرجوا عن محمولها أيضاً؛ لأنها تقول: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾[1]، فالموضوع هو أهل البيت والمحمول هو التطهير. فأي واحد قد دخل في الموضوع، فهو داخل في المحمول، أي إذا كان من أهل البيت فهو مطهر، وإذا لم يكن منهم فهو ليس بمطهر.

فإذا زعمنا أن التسعة المعصومين عليهم السلام ليسوا من أهل البيت، إذن، فهم لا يدخلون في الوعد بالتطهير، فحيث إنهم خارجون موضوعاً، فسوف يكونون خارجين محمولاً.

وهذه النتيجة باطلة أكيداً؛ لأنهم مطهرون أيضاً، وشمولهم محمولاً من دون أن يكونوا مشمولين موضوعاً غير معقول، فماداموا مشمولين محمولاً فهم مشمولون موضوعاً، إذن نعرف أنهم مندرجون في ضمن أهل البيت.

جوابه: أننا لو اقتصرنا على ظهور الآية فقط، إذن فأهل البيت هم أهل الكساء عليهم السلام، وهم المطهرون فقط. ولكننا يمكن أن نقيم أدلة خارجية على عصمة التسعة عليهم السلام، وعلى إمامتهم، وعلى ولايتهم العامة وعلى وجوب طاعتهم.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

ومن هنا يتعذر الاستدلال بالآية على عصمتهم ، بل نستدل بعصمتهم على كونهم مشمولين للآية ، وبعد شمولهم بالآية والتطهير يمكن أن نقول : إنهم من أهل البيت على مقدار مستواهم من الوجود .

إن قلت : إننا بعد أن قربنا أنّ المراد (بيت الله) ، فبيت الله معنى عرفي ومتشرعي ومفهوم يطلق على المسجد الحرام عامة وعلى الكعبة الشريفة خاصّة ، والألف واللام أظهر بالعهدية ، فهي عهد إليه . وخاصّة بعد ان نلتفت إلى أن البيت المعنوي مجازي ، وهذا المعنى حقيقي ومتسالم على فهمه .

جوابه من أكثر من وجه واحد :

الوجه الأوّل : أنّ الأهلية لها سببان ، إمّا أنّ للإنسان يداً عليه ، وإمّا أن يكون ساكناً فيه ، والكعبة لم يسكنها أحد أكيداً ، ولم تكن لأحد يد عليها فهم ليسوا أهل الكعبة بهذا المعنى .

الوجه الثاني : أننا إذا تنزلنا عن ذلك ، وقلنا : بأنّ معنى الأهلية هنا هو الولاية العامة ، فأولياؤها هم المشرفون عليها شرعاً . ولكن هذا المعنى مجازي ، فلماذا لم يقل (أولياؤه) . فالأولياء يراد بهم معنى ، والأهل يراد بهم معنى آخر . فإذا قارنا بين المعنيين ، فلابد أن نختار أهل بيت الله المعنوي وليس البيت المادي ؛ لأنهم ساكنون سكنى معنوية بأنوارهم العليا ، وأرواحهم المقدسة ، في ذلك المكان العالي وليسوا ساكنين بالكعبة ، لا بأجسادهم ولا بأرواحهم .

ويمكن الجمع بين الفكرتين بعد الالتفات إلى فكرة أخرى قد سجلتها في بعض مؤلفاتي[١] ، وحاصلها أنّ الكعبة وجود تجريدي رمزي عن التوحيد ، فإنّ المعنى المعنوي والتجريدي يحتاج إلى رمز مادي ليكون قريب المنال من العقول القاصرة والمقصرة ، والمادية الدنيوية ، فالكعبة مثال للتوحيد .

---

(١) انظر : ما وراء الفقه ـ كتاب الحجّ .

حينئذ نقول : إن المفهومين قد اقترنا ، أي البيت المعنوي لله والبيت المادي له ، فهذا رمز وذاك مرموز إليه ، وكما أنّ هذا البيت رمز لذلك ، هو رمز عن ساكني ذلك البيت ، وبتعبير آخر ، كما أنّ الكعبة رمز عن التوحيد ، هي رمز عن الموحدين أيضاً .

فإن قلت: إنه قد ورد متواتراً قول النبي صلى الله عليه وآله : **« سلمان منّا أهل البيت »**[1]. ثم نضم إلى ذلك مقدمة أخرى ، وهي أنّ التسعة المعصومين عليهم السلام أفضل من سلمان الفارسي ، ثم نضم إلى ذلك مقدمة ثالثة ، وهي أنّ ما عند الأدنى عند الأعلى مع زيادة . فإنّ كان سلمان رضي الله عنه من أهل البيت ، فإنّ التسعة المعصومين عليهم السلام منهم من باب الأولوية . مع العلم أنّ ظاهر الكلام السابق أنهم ليسوا من أهل البيت ، وأنّ هذا العنوان خاص بأصحاب الكساء الخمسة عليهم السلام .

قلنا: إنّ هذا يمكن الإجابة عليه من عدة وجوه :

الوجه الأوّل: أننا نفهم أن سلمان من أهل البيت عليهم السلام من السنة ، لا أننا نفهمه من الكتاب ، إلّا في صورة واحدة وهي أننا نجد أنّ الرواية شارحة ومفسرة للآية الكريمة . وإذا لم تكن مفسرة للآية ، فإننا نفهم أنّ سلمان من أهل البيت بأخبار الرواية بذلك كما قلنا .

فان أصحاب الكساء قد دل عليهم الكتاب أنهم من أهل البيت ، وأما الباقون بما فيهم التسعة المعصومون وسلمان ، ولربما آخرون . فقد دلت عليهم السنة أنهم كذلك .

الوجه الثاني: أنه يمكن أن نقول كما قلنا : إنّ نفس هذا العنوان إذا فهمناه بمعنى

---

(١) الخلاف ١: ١٠٧، وسبل السلام ١: ٧٧، وعيون أخبار الرضا ١: ٧٠، ح٢٨٢، وتحف العقول: ٥٢، وشرح الأخبار ٣: ١٤، ومناقب آل أبي طالب ١: ٧٥، وبحار الأنوار ١٧: ١٧٠، وينابيع المودّة ٣: ١٧٣.

أوسع، فسوف تكون لـه حصص ودرجات عديدة، أو أننا نـقول فـيه بـالتشكيك بإصطلاح المنطق وعلم الأُصول.

حينئذ ماذا نفهم من ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ في الآية ؟ هل نفهم مطلق الأهل أم الأهل المطلق ؟ فمطلق الأهل أي جميع حـصص ودرجـات ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، والأهـل المطلق، أي الحصة الأرقى، والدرجة العالية من هذا العنوان.

فإذا فهمنا من ذلك مطلق الأهل، فإنّه يشمل الجميع، بما فيهم أصحاب العصمة الثانوية من الأولياء، ويكون مقتضى الإطلاق ذلك. لكنهم قالوا في علم الأُصول: بإنّ الإطلاق ينصرف إلى أكمل الأفراد، ومن جملة تطبيقات ذلك، أنّ أكمل الأفراد لظهور صيغة الأمر هو الوجوب، فمقتضى إطلاق صيغة الأمر هو الوجوب.

حينئذ نقول: إنّ أكمل الأفراد في ﴿ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ هم أعلى تطبيقات وحصص وأشكال أهل البيت عليهم السلام، وأعلى الحصص ليس أكثر من خمسة؛ لأنهم خير الخلق على الإطلاق، ثـم التسـعة المـعصومون عليهم السلام بـدرجـة أدنـى مـن أهـل الكسـاء، ثم سلمان رضي الله عنه بدرجة أدنى من التسعة المعصومين عليهم السلام، وهكذا.

مضافاً إلى أنّ دليل أهل الكساء هو القرآن، وهو أعلى درجة من دليـل البـاقين الذي هو السنة.

فإن قلت: إنّ عدداً من الروايات قد وردت، تنص عـلى اقـتران نـزول الآيـة، بحادثة الكساء، وهي كثيرة ومستفيضة، ومتواترة، وفيها يقول النبي صلى الله عليه وآله: «**اللّٰهُمَّ هٰؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخاصَّتي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً**»[1]، وكذلك ورد

---

(١) شرح الأخبار ٢: ٣٠٠، ومناقب آل أبي طالب ٢: ٦٦، والعمدة: ٣٣، والطرائف: ١٢٧، ح١٩٦، والصراط المستقيم ١: ١٨٦، وبحار الأنوار ٣٥: ٢٢٤، ومسند أحمد ٦: ٢٩٢، وخصائص الوحي: ١٠٠، ح٣١، وتـفسير ابـن كـثير ٣: ٤٩٢، والدرّ المـنثور ٥: ١٩٨، وتاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٠٤، وتهذيب التهذيب ٢: ٢٥٨، وينابيع المودّة ١: ٣٢٠.

في بعض الزيارات: «يا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ»[١]، إذن فكيف نقول: ان المراد هو بيت الله؟

جوابه من أكثر من وجه:

الوجه الأوّل: أنه لا منافاة بين الأمرين، فهم أهل بيت الله وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنه لا منافاة بين الله وبين نبيه صلى الله عليه وآله.

الوجه الثاني: أنه من باب «كلم الناس على قدر عقولهم» فلو قال: أهل بيت الله، فهل يفهم أحد كلامه؟

الوجه الثالث: انه حينما يقول أهل بيتي، فليس لكلامه مفهوم مخالفة، أي أنّه لا ينفي غيره الذي هو أهل بيت الله.

وفي بعض تلك الروايات عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«نزلت هذه الآية في خمسة: في وفي علي وفاطمة والحسن والحسين، إنّما يريد الله»**[٢] الحديث، وهذا يخرج أي واحد من الآخرين، بما فيهم زوجات النبي صلى الله عليه وآله وبما فيهم التسعة المعصومون عليهم السلام المتأخرين من أولاد الحسين عليه السلام. وإنّما نعتبرهم من أهل البيت عليهم السلام باعتبار الدليل على إمامتهم، كما سبق، ولن يكونوا في نفس المنزلة، لأنّ البيت الإلهي ذو درجات، كما قال الله تعالى: ﴿ **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ** ﴾[٣]، ولو كانت الآية شاملة للزوجات، أو خاصّة بهن، لكن مشمولات لقوله صلى الله عليه وآله وهو خبر متواتر من الفريقين: **«ألا إني تارك فيكم الثقلين، أحدهما: كتاب الله، من اتبعه كان على هدى، ومن تركه كان على ضلالة، ثم أهل بيتي، اذكركم الله في**

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٦١٠، ووسائل الشيعة ١٤: ٣٩١، والمختصر: ١١٩.

(٢) بحار الأنوار ٣٥: ٢٢٢، وخصائص الوحي المبين: ١٠٦، ح٤٧، وينابيع المودّة ٢: ٤٢٩.

(٣) غافر: ١٥.

أهل بيتي ، ثلاث مرات »[١]. ولم يقل بشمولها للزوجات أحد ، فيلزم من بطلان التالي بطلان المقدم . وإنّما يذكر المجتمع بأهل بيته باعتبار علمه بظلمهم بعده ، ولم تظلم بعده إحدى زوجاته إطلاقاً .

الخطوة الأُخرى بهذا الصدد : أنّ الآية الكريمة لو كان مرادها أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ، للزم خروج النبي صلى الله عليه وآله نفسه عنهم . فلو قلت : أولاد آدم ، لم يشمل آدم ، ولو قلت : آل النبي ، لم يشمل النبي ، ولو قلت بني تميم لم يشمل جدهم تميم نفسه . فأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله غيره وليس هو منهم . وهذا غير محتمل إطلاقاً ، فهو من المقدسين بهذه الدرجة ، فنفهم من بطلان التالي بطلان المقدم . إذن فلا يراد من أهل البيت في الآية أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ، وإنّما يراد أهل بيت الله .

فإن قلت : إنّ أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله غيره ، ولكنه قد دخل معهم بالأولوية .

قلنا : كلا ، بل هو خارج تكويناً ولغة ، ومعنى ذلك أنّ قداسته ورفعة شأنه ليست ناشئة من كونه من أهل البيت عليهم السلام ، مع العلم أنه مندرج في الآية بضرورة الدين ، وهو أولى من يندرج في الآية .

الفكرة الأُخرى التي أود أن أتعرض لها : ان لفظ ﴿ **أَهْلَ الْبَيْتِ** ﴾ ورد في القرآن مرتين : في هذه الآية ، وفي قوله تعالى : ﴿ **أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ** ﴾[٢] ؛ وذلك حينما بشرت زوجة إبراهيم عليه السلام بولد ، فقالت : ﴿ **ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخاً** ﴾[٣] ، فأجابوها بذلك الجواب .

فإننا نقول هنا بأنّ المراد من أهل البيت ، هم أهل الكساء ، وليس هذه المرأة .

---

(١) مناقب أمير المؤمنين ٢ : ١١٧ ، وحديث الثقلين : ٦٨ ، والمعجم الكبير ٥ : ١٨٢ ، وتفسير الميزان ١٦ : ٣١٩ .

(٢) هود : ٧٣ .

(٣) هود : ٧٢ .

فإن قلت: إنّ القرينة المتصلة تقتضي أن يكون المراد من أهل البيت هم أهل بيت إبراهيم عليه السلام ؛ لأن المخاطبة هي زوجته ، ولا يحتمل صرف الخطاب من المخاطب إلى أشخاص سوف يولدون بعد آلاف السنين ، والذين هم أهل الكساء .

جوابه من عدة مستويات :

المستوى الأوّل: أنّ القرينة المتصلة في الآية على نفيه وعلى خلافه ، فإنّ من يعترض على بشارة الملائكة ، ويتعجب من أمر الله ، وهو بوحي من الله قطعاً ، هل يصلح لأنْ يكون من أهل البيت ، وأنْ تكون تلك المرأة هي المخاطبة بذلك الخطاب ؟ حاشا لعدل الله أنْ يكون ذلك .

المستوى الثاني: أن نقول ولو احتمالاً : إنّ عملاً تخريبياً قد أنجز خلال التاريخ ، وهو وضع الآيات الخاصة باهل الحق بين قرائن مغلوطة ، لكي تنسب إلى غير أهلها ،كما نسبوا هذه الآية إلى أهل إبراهيم ، ونسبوا تلك الآية إلى نساء النبي صلى الله عليه وآله . وهذا ليس قولاً بالتحريف الذي هو معنى النقيصة ، وإنّما هو قول بتغيير محل بعض الآيات .

فمن المحتمل أنّ هذه القرينة المتصلة ليست بقرينة أصلاً ، ولم تنزل وحياً هكذا. فتتوقف دعواهم على يقينية القرينة . فلا يمكن القول بذلك ؛ لاحتمال الفصل بالوحي بين الآيتين . والاحتمال مبطل للاستدلال .

المستوى الثالث: أنني قلت في بحث التفسير بأنّ هناك اتجاهاً هو أقرب إلى الاتجاه الباطني في تفسير القرآن الكريم ، وهو التفسير التجزيئي للقرآن ، أي أن نأخذ كل لفظ وكأنه نزل وحده فنفهمه ، من دون استعمال القرائن المتصلة . إذن فانتفت القرينة المتصلة ؛ لأننا نفهم أهل البيت كأنها نزلت وحدها .

ولكن الإشكال في حجية الفهم التجزيئي للقرآن ، فإننا ظاهراً وفقهياً لا نعتبره حجة ، فحينئذ إما أن نشهد بصحة الباطن الذي يبتني عليه هذا الوجه وإما أن نلزمهم

بما التزم به كبراؤهم من المتصوفة أعني بصحة الفهم التجزيئي.

المستوى الرابع: أننا لو تنزلنا عن ذلك، أمكننا أن نفهم أطروحات أُخرى غير أنهم: أهل بيت النبي ﷺ أو أهل بيت الله. وإنّما هم أهل بيت إبراهيم ﷺ لأنه أبو المسلمين، وأبو النبي ﷺ. غاية الأمر أننا نحتاج هنا إلى مقدمتين:

المقدّمة الأُولى: أن يراد ببيت إبراهيم البيت المعنوي لا المادي.

المقدّمة الثانية: أن يراد بأهله أهم من يمكن فيه ذلك، وهم ليسوا سكانه السابقين كزوجته وغيرها. وإنّما هم أيضاً أهل الكساء، إلّا أن هذا غير ممكن؛ لأن أهل البيت أفضل من صاحب البيت، وهذا غير محتمل. مضافاً إلى البعد الزماني بين إبراهيم، وبين أصحاب الكساء.

الأُطروحة الأُخرى المحتملة: أن يكون أهل بيت علي ﷺ بعد التنزيل عن الأُطروحات السابقة، وهذا أيضاً يحتاج إلى مقدمتين:

الأُولى: ما عرفناه من أنه لا يوجد لرسول الله ﷺ بيت ينسب الآخرون إليه.

الثانية: قرينيّة حديث الكساء، وهو نص بأنّ أهل الكساء هم خمسة، كما أنّه نص على نزول الآية فيهم.

ومعه فنحن تاريخياً نعرف أنّ حادثة الكساء حدثت في بيت علي ﷺ وأنّ أربعة منهم هم أهل بيت علي ﷺ نفسه، ولا يبقى إلّا النبيّ ﷺ، وهو أولى بانطباق الصفة عليه منهم؛ لأنه خيرهم.

مضافاً إلى أنّ رسول الله ﷺ كان يزورهم صباحاً ومساءً، فيصدق ظاهراً وباطناً، أنّ بيت علي ﷺ هو بيت النبي ومعه تخرج زوجات النبي ﷺ يقيناً؛ لأنهن غير ساكنات في بيت علي ﷺ، كما أننا يمكن أن ندخل التسعة المعصومين مجازاً في الدرجة الثانية بعد أهل الكساء.

وأنا أعتقد أنّ بيت علي ﷺ بيت واحد، أي غرفة واحدة يسكنون كلهم فيها

(في المدينة)، ويقرب ذلك طريقة زواجه سلام الله عليه، ومقدار الزهد المدقع الذي تزوج به، وإنّما اكتسب أهميته معنوياً لا مادياً.

فإن قلت: فماذا نقول في قوله صلى الله عليه وآله: **«سلمان منا أهل البيت»**.

قلنا: إنه من أهل البيت إلحاقاً وتنزيلاً، أياً كان البيت المقصود.

معنى التطهير والرجس:

ثم إنه بعد أن انتهينا من الحديث عن موضوع الآية، الذي هو **﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾** نتحدث الآن عن محمولها، الذي هو «التطهير»، فإنّه وإن كان وارداً في الآية بلفظين، هما: **﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾**[1] و **﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**[2]، لكننا الآن نغض النظر عن الفرق بينهما، ونعتبر أنّ محصلهما واحد.

فإنّ الطهارة يدور أمرها بين أمرين: إمّا أن تكون بمعنى مطلق الطهارة، التي تنطبق على الكثير، بما فيها الطهارات المتدنية أو القليلة. وإمّا أن تكون بمعنى الطهارة المطلقة، التي لا تنطبق إلّا على أعلى المقامات من الطهارة. والمعنى الثاني هو الذي ينبغي أن نفهمه؛ لأنه المناسب مع ارتفاع شأنهم، وخاصّة بعد أن نلتفت إلى أنّ كل مرتبة من الكمال لها نحو من التطهير سبباً أو مسبباً. فنقول: طهر فوصل إلى هذه المرتبة من الكمال. أو نقول: وصل إلى هذه المرتبة من الكمال، فاستحق الطهارة التي تناسبه. فإذا وصل الفرد إلى أقصى مراتب الكمال وأصبح خير الخلق كلهم أجمعين، فإنّه يستحق الطهارة المطلقة والمركزة. ونحن لا نفهمها أكيداً؛ لأننا لم نعشها، وإنّما نرى بعض آثارها، إذ كنا نعقل ونفهم بعض آثارها من المعصومين عليهم السلام.

وأما الرجس فبالعكس، فإننا نفهم منه مطلق الرجس لا الرجس المطلق، فعندما

---

(١) و (٢) الأحزاب: ٣٣.

نقول: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ ﴾ ، فالمراد مطلق الرجس أي أذهب عنكم كل رجس ، وأي رجس ، لكي تحصل الطهارة المطلقة. فلو فسرناها بالرجس المطلق ، لكان المعنى أنّ الرجس المطلق ذهب وزال ، وأما ما هو أدنى منه فهو موجود ، ولا دليل على نفيه. فبقرينة أننا نفهم التطهير المطلق ، فلابد أن نفهم مطلق الرجس.

ونحتاج هنا إلى أن نحمل فكرة عن معنى الطهارة وإذهاب الرجس من خلال مقدمتين :

المقدّمة الأُولى : أنّ خلقة البشر عموماً فيها خير وشر ،كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[(١)] ، فالشر مركوز في النفس البشرية وجدانا وعياناً.

بل بمعنى آخر فإنّ عالم الإمكان كله لا يخلو من شر وحد وقصور وتقصير ، بمعنى دقي أو عقلي أو باطني. لا أقل من فهم معنى الاستقلالية لنفسه وللأسباب أيضاً ، وهو كذب صريح وباطل كامل. وكل ذلك وعلى كل المستويات ممّا يراد تطهير أهل البيت عنه ، بعد أن كانوا بمقتضى خلقتهم الأصلية ينبغي أن يكونوا متصفين به ؛ لأنهم من البشر ومن عالم الإمكان.

فإن قلت : فإنّ المراد تطهير أرواحهم عليهم السلام لا أبدانهم ، وهي مطهرة أصلاً. وبتعبير آخر أنّ التطهير على قسمين : تطهير مادي ، وتطهير معنوي. فالتطهير المادي يخص البدن ، والتطهير المعنوي يخص الروح. فأمّا التطهير المادي فهو شيء جيد ، وهو نعمة من نعم الله ، ولكنه ليس برئيسي ، وليس خاصا بهم ، فكثير من الناس أصحاء الأجسام ومعتدلو المزاج والعقل من الناحية البدنية. فالتطهير تطهير معنوي فهو يخص الروح. فحينئذ نقول الروح طاهرة. وتطهيرها من تحصيل الحاصل ، وهو محال.

جوابه : أنّ هذا جهل بمعنى الروح ، وأنا لا أُريد أن أُعطي معنى الروح ،

---

(١) البلد: ١٠.

وإنّما أُريد أن أقول بأن هذا الذي قلناه ، وهو أنّ النفس فيها جانب الخير وجانب الشر ، فإنما هو بالجانب الروحي من الإنسان لا في الجانب الجسدي . إذن فالروح ليست منزهة عن الشر كما زعم السائل . فإذا كانت غير منزهة عن الشر فلا بأس أن يشملها التطهير .

فإن قلت : فإنّ بالتطهير يزول الجانب السيئ من الروح بعد أن كان مركوزاً بالخلقة ، فحينئذ تتغير خلقتهم الروحية والمعنوية عن البشر . فيبقى في أرواحهم عنصر الخير فقط ، في حين أنّ باقي الناس فيهم عنصر الخير وعنصر الشر ، إذن فسوف تصبح خلقة هؤلاء مختلفة عن البشر ، والحال أنّ القرآن الكريم يقول : ﴿ **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** ﴾[1] ، فنعرف من بطلان الملزوم بطلان اللازم ، إذن فهذا المعنى غير صحيح .

قلنا : إنّ هذا سوء فهم ، فليس المراد من التطهير تغيير الخلقة ، فجانب السوء يبقى مركوزاً فيهم ، لكي لا يحصل فيهم نقص فيكونون أقل من غيرهم . وإنّما المراد قطع معلولاته ونتائجه ، فالبعض يستعملون جهاتهم السيئة ، ولكن هؤلاء ليسوا كذلك ، فإنّ هذه النتائج قد عصموا عنها بإرادة الله سبحانه وتعالى .

فإن قلت : فما مزيتهم عن الباقين ، ولماذا حصل ذلك لهم دون غيرهم .

قلنا : إنّ ذلك لمزيتين نعرفهما على الأقل :

الأُولى : إنه اقتضت الحكمة الأزلية خلق الكون بشكل هرمي ، فكلما صعدنا قل العدد ، وكلما نزلنا ازداد ، وذلك لضبط العلل العليا في الكون وترتيبه ، فنحن نؤمن بالصادر الأول ؛ لأن مقتضى الحكمة وجوده .

فالمهم أنّ تلك الموجودات الأُولى والعليا هي أرواح المعصومين عليهم السلام وهي أفضل الخلق ؛ لأنها الأقرب في تسلسل العلل إلى الله سبحانه ، وهي الفاعلة

---

(١) الكهف : ١١٠ .

في الكون، فكان مقتضى الحكمة تطهيرها لمنعها من الخيانة، رحمة بها ورحمة بمعلولاتها ونتائجها.

الثانية: قضية الميثاق، فإنّه قد حصل تجلٍّ لله عز وجل هناك[١]، وسال البشر أجمعين: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[٢]؟ وفي حدود فهمي أن جوابه لم يكن في زمان واحد، وفي رتبة واحدة، فكلما كان السوء في الإنسان أكثر كان جوابه أبطأ، وكلما كان خيره أكثر كان جوابه أسرع. وأول من بادر بالجواب هو رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام ثم الأمثل فالأمثل[٣].

فإن قلت: لماذا خلق الله سبحانه وتعالى روحاً ذات رداءة عالية لتبطئ بالجواب؟

قلنا: إنه يمكن أن يجاب عليه بجوابين:

الأول: أننا لو تنزلنا عن الهرمية، فإننا نقول: إن عالم الإمكان عبارة عن علل ومعلولات متدرجة، فكل شيء مادي أو روحي في أي مرتبة، أو بأي عالم من العوالم، يوجد بحسب عليته وبمقتضى صفات عليته، وكل علة توجد بمقدار ما تستحقه.

الثاني: في حدود فهمي أن الله عز وجل يخلق كل الاحتمالات، كشخص طويل وآخر قصير، وشخص أبيض وآخر أسمر وهكذا. فإنّه يخلق كل الاحتمالات إبرازاً لقدرته. ولا يمكن أن يكون اثنان في نفس الشكل بالضبط، فلابد من الاختلاف قليلاً أم كثيراً، بفرق جسدي أو فرق نفسي أو فرق عقلي أو أي شيء آخر. حينئذ نقول: إنه أبرز قدرته في أن خلق البعض، وجعل جانب الخير فيهم كثيراً، وكذلك خلق

---

(١) لا بالمعنى البصري، بل بالمعنى المعنوي أو القلبي.

(٢) الأعراف: ١٧٢.

(٣) الكافي: ٤٤١، والخصال: ٣٠٨.

البعض وجعل جانب الخير وجانب الشر متساويين ، وخلق البعض وجعل جانب الشر فيهم كثيراً. فلابد أن توجد كل هذه الاحتمالات. فكانت النتيجة أنّ الناس اختلفوا في سرعة الجواب في عالم الميثاق.

فإن قلت: فلماذا أجابوا قبل غيرهم ؟

قلنا: هذا باعتبار اختيارهم ووعيهم ومعرفتهم. ولا يبعد القول: إنّ التطهير حاصل مسبقاً ، إذ لا يوجد مانع يوجب التأخير ، بينما يوجد هذا المانع في الآخرين ، والآية الكريمة أعربت عن طهارة قديمة لا في عصر نزول الآية ، وإلّا وجب أن نقول بعدم طهارتهم قبل ذلك ، أو عدم عصمتهم ، وكل ذلك باطل.

الخطوة الأُخرى بهذا الصدد: أنّ نفس الدليل على الاختيار في الدنيا ، يمكن تطبيقه على عالم الميثاق. فلا يخطر في الذهن أنهم قالوا ذلك مجبورين أو مسيرين. كلا ، فالذي نطق نطق باختياره ، أو الذي سكت سكت باختياره ، ولذا حملهم الله المسؤولية ، أي مسؤولية قول: ﴿ بَلَىٰ ﴾ ، أي أنه يقول لنا الله تعالى: إنك قلت ﴿ بَلَىٰ ﴾ ومع ذلك عصيت.

فهذه المسألة موجودة ، وستبقى في ذممنا إلى الأبد مادمنا موجودين.

فكما أنّ الدليل على الاختيار في عالم الدنيا هو أننا نقول: إنّ الاختيار لو لم يكن موجوداً ، لبطل الثواب والعقاب ، أي بطلت المسؤولية الأخلاقية ، واشتغال الذمة بالتكاليف. ولكنها لم تبطل ، أي يوجد ثواب وعقاب وتكاليف ، إذن يعرف من بطلان التالي بطلان المقدم. فلو كان هناك جبر لبطلت المسؤولية.

ونحن قلنا قبل قليل: بأنّ الله تعالى يحملنا مسؤولية ﴿ بَلَىٰ ﴾ ، التي قلناها. فلو كان جبراً لما حملنا مسؤوليتها ؛ لأننا عندئذ نكون كالقلم بيد الكاتب ، والعصا بيد الضارب.

فالاختيار كان موجوداً عند الناس بما فيهم الأئمة عليهم السلام ، وكلما كان الفرد أعلى

وأوعى وأفهم وأكثر إدراكاً للواقعيات ، فإنّه سيبادر إلى الجواب أسرع .

الخطوة الأُخرى بهذا الصدد : أنه نتج من ذلك ، أنّ النبي صلى الله عليه وآله هو أول من أجاب ، ثم من بعده المعصومون عليهم السلام فذلك يعني أنهم معصومون من ذلك الحين ، فلو لم يكونوا معصومين لكان حالهم حال غيرهم .

وكذلك ، فإنهم إنّما كانوا معصومين ؛ لأنهم كانوا أطهاراً ، إذن فالطهارة التي يريد أن يطهرهم بها كانت قبل ذلك العالم الذي سالهم فيه ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾[1] ، فهم في أعلى الهرم بالتكوين منذ أول الخلق ، سواء اعتبرناه قديماً ، أو اعتبرناه حادثاً .

المقدّمة الثانية : أننا نلتفت إلى المفعول المطلق في الآية ، أو التأكيد في الآية : ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، فلماذا قال : ﴿ تَطْهِيراً ﴾ ؟

جوابه من مستويين :

المستوى الأوّل ـ مستوى المعلول : وهو أن نقول : إنّ هذا هو دليل على عمق التطهير وكثرته وتركيزه في نفوسهم إلى حد قد يبدو أن ماهيتهم تختلف ، مع العلم أنّ الخلقة الأصلية لا تختلف ، فاصل الخلق فيه ما في الكون من مصالح ومفاسد ، ولكن الفاسد يقف ويبطل عمله تماماً ، وتكون كل مراتب وجودات الأئمة عليهم السلام طاهرة ، إذن فعمق التطهير مهم جداً .

المستوى الثاني ـ مستوى العلة : فإنّ الله عزّ وجل قادر على كل شيء ، ولكن مع ذلك نستطيع أن نقول ولو مجازاً : إنّ هذا الشيء صعب ومعقد في غاية التعقيد .

أليس أنّ الله تعالى يفتخر بوجود نور علي بن أبي طالب عليه السلام[2] ، فهو يفتخر أنّ قدرته استطاعت أن تخلق نوراً متكاملاً إلى هذه الدرجة من التكامل ، فالعلة ينبغي

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .

(٢) الفضائل : ١٥٩ ، وبحار الأنوار ٣٦ : ١٥١ ، ح ١٣١ ، ومستدرك الوسائل ٤ : ١٨٧ ، ح ١١ .

أن تكون بالغة القدرة حتّى تستطيع أن توجد شيئاً من هذا القبيل.

ولذا فإنّه قد يقال: إنّ زكريا عليه السلام أشكل نفس الاشكال الذي أشكلته امرأة إبراهيم عليه السلام على الملائكة، حينما بشروه بيحيى، وهو نبي معصوم[1].

فإنّ جوابه: أنه معصوم، ولكنه لم يطهر الطهارة التي عند أهل البيت عليهم السلام، ولو كان واحداً من أهل البيت عليهم السلام لما أشكل، فإنّ العصمة مراتب، والتطهير مراتب.

فإن قلت: إنه تطهير الأعمال، أي يوفقكم للأعمال الحسنة، ويردكم عن الأعمال القبيحة.

قلنا: إنّ ذلك إن كان بالإرادة التكوينية، للزم الجبر، أي يجبرهم على الأعمال الصالحة، وترك الأعمال القبيحة، وهو قبيح عقلاً. وإن كان ذلك بالإرادة التشريعية، أي يعطيكم تشريعات طيبة ومنتجة، يأمركم بالطاعات وينهاكم عن المعاصي. فإنّ هذا ليس خاصاً بهم، وإنّما هو عام لكل البشر، فكلهم مسؤولون أمام الله تعالى أن يعملوا الحسن ويتركوا القبيح.

نعم، حينما تطهر العلة يطهر المعلول، أو قل: حينما تطهر النفس يطهر العمل، وتطهير الأعمال حاصل ولكن ليس بالمباشرة، وإنّما لسببها وعلتها. وإذا طهرت العلة ولم يعمل الإنسان إلّا العمل الصالح، لا يكون ذلك جبراً، وإنّما يصل الإنسان إلى درجة بحيث يرى المعاصي بدرجة من القذارة فلا يقترب إليها إطلاقاً.

يبقى الإلماع إلى شيء قلما يلتفت إليه، وهو أن الآية الكريمة قالت: ﴿ لِيُذْهِبَ ﴾ ولم تقل «أن يذهب» فلماذا حصل ذلك؟

---

(١) كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ مريم: ٨.

جوابه أن نقول: إنّ اللام هنا بمعنى (أن) والحروف يستعمل بعضها في محل بعض مجازاً، كما قلنا ذلك في علم الأُصول. فنقول: زيد يريد ليذهب أي يريد أن يذهب، وهو معقول على أي حال. ولكن لو تنزلنا عن ذلك فيكون المراد أنّ الله يريد شيئاً لكم لكي يكون هو سبب التطهير، فلنا أنْ نتسائل عن ذلك الشيء ما هو؟

جوابه: أحد أُطروحات:

منها: الطاعة أو التكاليف المشددة، أي إنّما يريد طاعتكم المناسبة لشأنكم ليذهب عنكم الرجس. إلّا أنه يلزم منه عدم وجود الطهارة إلاّ بعد حصول الطاعة بأي واحد من مستوياتها، وهذا ينافي عصمتهم الذاتية، وولادتهم على العصمة، أو قل: عصمة أرواحهم قبل أبدانهم.

ومنها: أنّ الأفعال على مستويات ولا أقل على مستويين: مستوى ظاهري ومستوى باطني. فإنّ الذي تكلمنا عنه في الأُطروحة السابقة هو الطاعات الظاهرية، ولكن هناك أعمال باطنية كثيرة، فكلما كانت النفس أطهر فسوف تكون أعمالها أكبر وأحسن.

فإن قلت: فإننا سوف ننتهي إلى نفس النتيجة، أي أنّ الطهارة مترتبة على الأعمال، ولكنها الأعمال الباطنية وليست الظاهرية.

قلنا: إننا إذا تكلمنا بالمستوى الدنيوي، فإننا نقول: إنّ الأعمال الباطنية موجودة من حين ولادة الإمام، أو قل: منذ أن فتح عينه على الدنيا. فتكون نتيجة هذا الكلام، أنه لم يولد معصوماً. ولكننا نتجاوز عالم الدنيا إلى ما قبل الدنيا، فإنّ محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، ليس هو هذا الرجل الذي يأكل ويمشي فقط، وإنّما الأصل فيه هو روحه العليا والتي هي المخلوق الأول. فحينئذ نسأل: هل أنّ تلك الروح كانت عاطلة قبل ولادة النبي صلى الله عليه وآله؟

جوابه: كلا، فإنّ لها عملين:

الأوّل: ذكر الله تعالى، كما نصت على ذلك بعض الروايات[(١)]. فنقول: إنّ هذا العمل هو الذي حقق له الطهارة.

الثاني: تسلطه على الإدارة التكوينية للخلق، وهذا أيضاً منصوص عليه في الروايات. فإنّ الله تعالى خلق السماوات والأرض من نوره، وأعطاه السلطة والإدارة لها[(٢)].

ومنها: أننا نقول: إن المقدر هو الوجود، أي وجودهم، فيكون المعنى: «إنّما يريد الله أن يوجدكم ليذهب عنكم الرجس»، وكلاهما رحمة، فوجودهم رحمة، وتطهيرهم أيضاً كذلك.

وهذا شيء في نفسه جيد، إلّا أننا إذا التفتنا إلى الأُطروحات الآتية لوجدناها أرجح.

ومنها: أن ننظر إلى مرتبتهم التكوينية المعنوية العالية. فيكون المعنى: «إنّما يريد الله لكم هذه المرتبة ليذهب عنكم الرجس»، وهذه المرتبة ملازمة مع التطهير باصطلاح المنطق. وبتعبير آخر: يوجدكم في تلك المرتبة ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً.

ومنها: أننا لا نلحظ قضية منزلتهم التكوينية، وإنّما نلحظهم لمجرد أنهم أقرب إلى الله تعالى ممن سواهم، فيكون المعنى: «يريد الله أن يقربكم منه ليطهركم تطهيراً».

فإن قلت: فإنّ القرآن الكريم بعضه قرينة على بعض، فإذا نظرنا إلى الآيات السابقة. وجدناها تؤكد على الأعمال والتكاليف الصعبة كقوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي

---

(١) الخصال: ٤٨٢، وبحار الأنوار ١٥: ٤، ح ٤.

(٢) بحار الأنوار ١٥: ٢٩، وكشف الخفاء ١: ٢٦٥، وينابيع المودّة ١: ٥٦.

بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾[١]، فلذا أراد الله تعالى إقناعهم بذلك، فبرر الحكمة من هذه التكاليف، وهو أنه إنّما كلفهم بها لتترتب عليها الطهارة.

جوابه من عدة وجوه:

الوجه الأوّل: أنّ التطهير إذا كان منوطاً بالعمل، فإنّ عمل الإنسان لا ينتهي إلى آخر حياة الإنسان في الدنيا، فتكون النتيجة: أنّ التطهير سوف يكون في حال الاحتضار، وهذا القول باطل.

الوجه الثاني: ما قلناه من الشك في قرينية هذه الآيات السابقة، للشك أصلا في مكان وجود هذه الآية الكريمة هنا.

الوجه الثالث: تغيير الضمير، فإنّه قال: «عنكم» ولم يقل «عنكن»، ولو أراد التكاليف الخاصة بالأزواج لقال: «عنكن». كما قال: **﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ ﴾**[٢]. إذن يظهر بوضوح أنّ المخاطب أشخاص آخرون غيرهن. فلا توجد لأفعالهم ذكر في الآيات السابقة لتكون قرينة. وهذا يدل على أن هناك تغييراً أساسياً للسياق قد حصل، وهذه العروة الوثقى ينبغي التمسك بها.

الوجه الرابع: أنّ التطهير المشار إليه في الآية الكريمة شديد ومركز ومهم، وهذا يعرف من الدال عليه، أي من سياق الآية، وسياق الآية مشدد، فالمدلول وهو التطهير مشدد، وبتعبير آخر أننا نعرف شدة عالم الثبوت من شدة عالم الإثبات والبيان. وهذا يتضح من عدة كلمات مثل: «إنّما» التي تفيد الحصر، وكذلك «تطهيراً» الذي هو المفعول المطلق، وكذلك التكرار المعنوي الذي هو **﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ ﴾** و **﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾**. فهذا التركيز هو تركيز إعلامي لأجل معرفة أنّ التطهير الثبوتي الواقعي مركز جداً.

---

(١) و (٢) الأحزاب: ٣٣.

وهذه الأُمور لا تكون بالأفعال مهما كثرت، بل بإرادة الله سبحانه وتعالى المباشرة؛ لأننا إذا قلنا: بأنّ الأعمال هي المنتجة للتطهير، فإنّ الإنسان العامل حال عمله غير طاهر بهذا المعنى، أي أنّ فيه شيئاً من النقص والرجس، فالعمل ناتج من شخص ناقص ورجس، فكيف يكون هذا العمل موصلاً إلى الطهارة المطلقة والمركزة. وإنّما هي رحمة وفيض ابتدائي من قبل الله تعالى.

فإن قلت: فإنّ عمل الفرد الاعتيادي هو كذلك، ولكن عمل المعصومين ليس كذلك، فإنّه يوصل إلى درجات عالية جداً.

قلنا: إنّ الأمر كذلك بعد تطهيرهم، ولكن مفروض الأُطروحة هو أنّ عملهم ينتج التطهير، أي أنهم غير مطهرين في المرتبة السابقة على العمل.

نعم، الأفعال تنتج تطهيراً بمقدار ما، إلّا أنه قليل. ولو بقي الحال عليه لكان العبد من الخاسرين. ولذا قيل: «القدم الأول من العبد والباقي من الرب». وقال: «يا من دل على ذاته بذاته»[(١)] وقال: «فاجمعني إليك بخدمةٍ توصلني إليك»[(٢)]. وقال: «ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلّا بالعجز عن معرفتك»[(٣)]. إذن فالعبد عاجز عن ذلك تماماً، وإنّما كل ذلك بالفيض الإلهي والرحمة المباشرة.

مضافاً إلى أنه لو كانت الزوجات مشمولات لنال الصالحات منهن ذلك كخديجة الكبرى وأم سلمة مع العلم اليقين بعدمه. بل هن كغيرهن في عدم التطهير. والخبر يدل على ذلك، وهو إبعاد أُم سلمة عن الكساء. فإذا علمنا أنّ نتيجة هذا التطهير هي العصمة، لزم القول بعصمتهن. أو دلالة القرآن الكريم على ذلك، ولم يقل بذلك أحد. فنعرف من بطلان التالي بطلان المقدم.

---

(١) التوحيد: ٣٥، ذيل هامش ٦، وبحار الأنوار ٨٤: ٣٣٩، ح١٩.

(٢) بحار الأنوار ٩٥: ٢٢٥.

(٣) بحار الأنوار ٩١: ١٥٠.

مقارنة بين التطهير وإذهاب الرجس:

ثم إنّ الآية الكريمة أخذت في جانب المحمول عنوانين:

أحدهما: إذهاب الرجس.

ثانيهما: التطهير المركز.

فهل هما يعودان إلى معنى واحد، بحيث يكون ثانيهما إيضاحاً لأولهما؟

ويقرب ذلك: بأنّ الرجس نحو من القذارة، والطهارة إزالة القذارة. فإذهاب الرجس هو التطهير، والتطهير هو إذهاب الرجس، فهما متلازمان متساويان. بل أحدهما عين الآخر. فإنّ الإذهاب هو التطهير نفسه كالمترادفين، ويكون الثاني إيضاحاً للأول.

وبإزاء ذلك توجد عدة أُطروحات تدل على المغايرة بينهما:

منها: اختلاف درجات الطهارة، فالبدء يكون بالادنى والانتهاء بالأعلى. فالإذهاب هو الأدنى، والتطهير هو الأعلى. وهذا لا يتم بمجرده؛ لأنه حصل لهم دفعة لا تدريجاً.

ومنها: أنّ أحدهما بمنزلة الموضوع والآخر بمنزلة المحمول. والموضوع متقدم رتبة لا زماناً. فكل من يذهب عنه الرجس يطهر. وفاعلية الفاعل أمّا في إيجاد الموضوع أو فيهما معاً.

ومنها: أنّ أحدهما تكويني وهو إذهاب الرجس، والآخر انتزاعي وهو التطهير، وهو متأخر رتبة. يعني من يذهب عنه الرجس نسميه طاهراً ومطهراً.

إلّا أنه لا يتم؛ لأن فيه إقراراً أنّ الجهة التكوينية واحدة، وهو إذهاب الرجس في حين أنّ الآية ظاهرة بالتعدد بمقتضى التعاطف.

ومنها: أنّ الاختلاف بينهما باختلاف المتعلق، فإنّ الشرور في المكلف على

مستويين ، وكلاهما على مستوى المقتضي لا العلة التامة .

١ ـ **الشرور الوجودية :** أي الشرور المركوزة في الخلقة .

٢ ـ **الشرور العدمية :** أي ما يترتب على الأفعال من نواقص .

فإذهاب الرجس يكون بالنسبة إلى الشرور الوجودية لكي تذهب أو تنطفئ . والتطهير ، أي من الشرور العدمية لكي تتبدل إلى الوجود الأفضل .

ومنها : أنّ الاختلاف بينهما يكون في جانب العلة والمعلول ، فإذهاب الرجس بمنزلة العلة ، والتطهير بمنزلة المعلول . فإذهاب الرجس عن جانب العلة يعني تطهير الروح من الشرور والأدناس ، والتطهير يعني تطهير الأفعال .

وأي شيء فسرناه فلابد أن نفهم منه الإذهاب المطلق للرجس ، وليس مطلق الإذهاب . وكذلك نفهم من التطهير التطهير المطلق وليس مطلق التطهير ؛ لأن الإذهاب المطلق والتطهير المطلق هو المناسب مع تلك المرتبة العليا التي لا يشاركهم فيها أحد .

أما الآن فندخل إلى كلام لا ينبغي الإطالة فيه عن معنى الرجس . فإننا في حدود ما مشينا عليه من سلسلة التفكير يمكن أن نفسره بأحد تفسيرين :

الأول : هو الشر المركوز أساساً في الخلقة إلى جانب الخير كما قالت الآية الكريمة : ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾[(١)] .

الثاني : اثار هذا الحال ونتائجه غير المحمودة من عصيان وعيوب وذنوب .

حينئذ نعرض هذين الاحتمالين على آية التطهير لنرى إذهاب الرجس على أي المعنيين يصدق ؟ فإذا كان المراد هو المعنى الأول فإنّه غير زائل ، بل يستحيل زواله ؛ لأنه من تبديل الخلقة ، وليس في المصلحة زواله ؛ لأنه يستلزم نفص الخلقة ،

---

(١) البلد: ١٠.

فالملائكة فيهم عقل بلا شهوة ، ومن هنا كانت خلقتهم أقل من خلقة البشر. فإذا كان الرجس هو هذا ، إذن فإننا نحتاج إلى تقدير مضاف ، يعني آثار الرجس أو نتائجه ونحو ذلك ، وهو خلاف الأصل.

وأما إذا حملناه على المعنى الثاني ، بأن يكون المراد أساساً هو النتائج ، فهي ذاهبة لا محالة. فيصدق بالدلالة المطابقية ، ولا نحتاج إلى تقدير.

ويمكن أن يقرب الوجه الثاني بأنّ المراد من الرجس ما يتنجس به الطبع الإنساني معنوياً ، أو سلوكياً أو عقلياً ، ونحو ذلك. وهذا ليس إلّا نتائج السوء ، وليس السوء الخلقي ، فإنّه ممّا لا يوجب النجاسة وإنّما يوجب فقط كمال الخلقة ، فوجوده أصلاً خير ، وإنّما تأثيره شر ونجاسة. ولذا اتصف الكثيرون بالعصمة وبالولاية وبالقرب ، ولم يضر ذلك بهم ، بل هو نافع لهم ؛ لانه سوف يكون سبباً لكمالهم وارتفاعهم في درجات اليقين.

الاستدلال على العصمة بالتطهير:

بقيت خطوة لا بدّ أن نخطوها ما دمنا بصدد آية التطهير ؛ لأن الإمامية يستدلون بآية التطهير على العصمة ، مع العلم أنّ اسم العصمة ليس موجوداً فيها ، فبأي أُطروحة ، وبأي طريقة يستدلون منها على العصمة ؟

حينئذ نحتاج إلى بعض التقريبات التي تؤدي بنا إلى نحو قناعة بهذا الكلام.

وتقريب ذلك يكون بعدة أساليب:

الأُسلوب الأوّل: وهو دنيوي ، ومن خصائصه أنك تستطيع أن تتحدث به مع غير المتفقه ، أو الذي لا يحمل فكرة كافية عن الإسلام ، وعن أصول الدين وعن فروعه. وذلك بأن يقال: إننا إذا لاحظنا الأفراد المؤمنين بأي مذهب ، أو أي دين أو أي عقيدة سماوية أو أرضية مادية أو إلهية ، نجد أنّ الفرد منهم كلما كان أكثر إيماناً بمذهبه أو دينه أو عقيدته عموماً ، كالرأسمالية أو الشيوعية أو الوجودية فضلاً

عن الأديان كالمسيحية واليهودية. وكلما كان أكثر تحمساً لها، وعملاً في سبيل تطبيق أهدافها، كان أكثر إطاعة للتوقعات منه، حتّى يصل إلى درجة العصمة من وجهة نظرها، ومن جهة الواجبات والمحرمات التي يكون هو مسؤولاً عنها تجاهها.

وهذا أمر مجرب ولا بدّ أن يؤمن به الجميع، ولذا نجد المتعصبين إلى أي عقيدة، على استعداد أن يتحملوا القتل وسائر المصاعب في سبيلها، فكيف لا يتحمل طاعتها وتطبيق مستلزماتها وأهدافها على نفسه أو غيره، فيكون معصوماً من وجهة نظرها؟

وهذا واضح التطبيق والصغرى في محل كلامنا، فإنّ المعصومين عليهم السلام عامة، وأهل البيت عليهم السلام خاصّة، هم من أعظم المتحمسين إلى إطاعة الله والملتزمين بتطبيق الدين وأهداف سيد المرسلين صلى الله عليه وآله.

الأُسلوب الثاني: وهو أيضاً دنيوي، وهو أن نتكلم بنفس الطريقة، ولكن بأُسلوب عقلائي. فكما أنّ الحال في العقائد هكذا، فإنّ الأهداف الشخصية العقلائية أيضاً هكذا لكل ما يحبه الفرد ويكرس حياته من أجله، كخدمة الأبوين مثلاً أو التجارة أو السياحة، أو تعلم اختصاص معين، فتراه يكرس كل وقته، ويضحي بكل مصالحه، ويلاحظ ذلك الهدف في الصغيرة والكبيرة. فيكون معصوماً عن القيام بأي أمر يخالف ذلك أو يضاده، أو ترك أي عمل يكون مقرباً له وفي صالحه. فإذا كان عمل العقلاء هكذا، فأولى أن يكون أئمتهم كذلك، فهم أهم المصاديق على الإطلاق.

الأُسلوب الثالث: أن نلتفت إلى نقطة مشتركة بين الأسلوبين السابقين، وهي الإخلاص. فكلما كان الإخلاص أشد وأكثر فسوف يكون إنجاز التوقعات أكثر. فمع وجود الإخلاص وجدت المهمة، ومع تصاعد الهمة توجد العصمة. والصغرى أيضاً محرزة في أهل البيت عليهم السلام، وهي وجود الإخلاص العالي جداً لديهم تجاه الله تعالى وتجاه شريعته.

الأسلوب الرابع: أن ننظر من هذه الزاوية، وهي جانب أخروي أو معنوي، وذلك بأن نقول: إنّ السبب الرئيسي للذنوب والعيوب والتجاوزات الصادرة من البشر، إنّما هو النفس الأمارة بالسوء، والأمر بالسوء ناشئ من الرجس الموجود فيها. فإذا انقمع وانقطع زالت كل آثاره ونتائجه، فإذا حصل ذلك بشكل كامل وشامل حصلت العصمة لا محالة.

فإن قلت: إنّ هذا أمر ليس خاصاً بالمعصومين عليهم السلام بالذات، بل يشمل المعصومين بالعرض وهم الأصفياء والأولياء، والكمّل من البشر فإنهم لا يصلون إلى هذه المراتب إلّا بعد انقطاع شهواتهم ونزواتهم لا محالة.

قلنا: نعم إلّا أنّ المراتب تختلف أكيداً، ومن المسلم والمجمع عليه بين المسلمين، بل جميع البشر إلّا من ندر: أنّ مرتبة هؤلاء أعلى وأجمل وأفضل من جميع من اتصفوا بالعصمة. فإذا كان التطهير موجوداً بمجرد زوال النفس الأمارة بالسوء فهذا معنى عام، ولكنه قابل للتركيز والتأكيد في المراتب العليا من العصمة، كما سميته في موسوعة الإمام المهدي عليه السلام: (تكامل ما بعد العصمة)[١]، فإذا كان الفرد في مرتبة عالية جداً من التطهير، كان معصوماً بالذات. وإنّما كانت عصمته واجبة؛ لأنها بإرادة خاصّة من الله سبحانه كما هو نص هذه الآية الكريمة[٢].

الأسلوب الخامس: أنْ ننظر إلى درجة وجود أرواحهم وأنوارهم العليا، فوجودهم أعلى وأقرب إلى الله سبحانه من الناحية التكوينية والمعنوية؛ لأنهم خير الخلق، وهم العلل العليا للكون بالأسلوب الهرمي، الذي ذكرناه. فإذا نظرنا إلى تلك الدرجة، نجد أنّ تلك المرتبة العالية القريبة من الله تعالى لا بدّ أن تكون منزهة

---

(١) اليوم الموعود: ٤٣٨.

(٢) أعني قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. الأحزاب: ٣٣.

من الذنوب والعيوب والقصور والتقصير مهما كان ضعيفاً أو قليلاً.

فإن قلت: فإنّ الروح العليا معصومة بلا شك، والكلام ليس في عصمتها، بل في الوجود الدنيوي للفرد المعصوم، والوجود الدنيوي ليس هو الروح العليا. فتكون روحه العليا معصومة، ووجوده الدنيوي ليس معصوماً.

قلنا: مادام هذا الوجود الدنيوي يمثل تلك الروح، فيكون معصوماً بعصمة روحه؛ لأنه يمثل الروح العليا.

فإن قلت: إنّ الوجود الدنيوي ليس دائماً يمثل الروح العليا، فالروح العليا إنّما يمثلها عند الوصول إليها، والشعور بها، وليس حين يكون محجوباً عنها، والوصول إليها لا يكون إلّا بالجهاد والسلوك. ومعنى ذلك أن يكون حدوث العصمة متأخراً نتيجة لفعل الخير وجهاد النفس، وهو خلاف ما عرفناه سابقاً.

قلنا: نعم، إنّ الإنسان إنّما تصل روحه إليه، أو يصل إلى روحه بالجهاد والسلوك الصعب، لكن هذا في العصمة الثانوية، وأما في العصمة الأولية، فمن الممكن القول: إنّ الروح مفتوحة من الأول للفرد، فلا يحتاج التعرف إليها إلى سلوك، فالعصمة موجودة منذ الولادة. وذلك بعدة تقريبات:

التقريب الأوّل: أنّ تلك الأرواح من العظمة والأهمية والتركيز بحيث لا تتخلف عن فتحها، والتعرف عليها منذ حلولها في الجسد وهو جنين، بخلاف سائر الأرواح التي تكون أضعف من هذا المستوى بقليل أو بكثير. فتلك الأرواح التي تكون أدنى، يكون السلوك إليها معقولاً، وأما هذه الأرواح العظيمة والمركزة فتنفتح دون سلوك.

التقريب الثاني: أننا نفهم ذلك من الآية الكريمة نفسها؛ لأنها تعيد الضمير إلى الشخص نفسه مرتين فتقول: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾[1] وكذلك: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾،

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

لا أنّها تعيد الضمير إلى مرحلة من حياته ، والضمير ينطبق عليه منذ ولادته إلى موته . فالآية من هذه الناحية لها إطلاق ، والتمسك بإطلاقها يقتضي ذلك ، أي العصمة المستمرة .

التقريب الثالث : أنّ بعض المعصومين ﷺ تولوا المسؤولية دون البلوغ كالجواد ﷺ ، والمهدي ، ولا يحتمل أنْ يكون إماماً متحملاً لمسؤولية أهل البيت ﷺ من دون عصمة ، ولا يحتمل تأخير العصمة عن زمن الإمامة ولا يحتمل تأخيرها إلى زمن البلوغ . حينئذ نقول : **(الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد)** أي أنّ المعصومين الآخرين ﷺ كانوا معصومين في زمن طفولتهم ، فلا يحتمل اختصاصها في واحد دون واحد ؛ لأن الآخرين مثله في المستوى ، فضلاً عن أهل الكساء الذي هم أفضل من الجميع .

التقريب الرابع : ما ورد في التاريخ من المميزات لهم حال طفولتهم ، وهي مروية عن الجميع .

منها : أنّ شخصاً من أصحاب الحسن العسكري ﷺ يقول : قلت للإمام من هو الخلف من بعدك ؟ فدخل الإمام ﷺ إلى البيت وأخرج طفلاً على ذراعه ، وقال : **« هذا هو الخلف »** يقول فنطق الإمام المهدي ﷺ قائلاً : **« أنا بقيّة الله في أرضه فلا تطلب أثراً بعد عين »**(١) .

ومنها : ما ورد عن الإمام الجواد ﷺ ، وذلك أنه كان طفلاً صغيراً ، وكان إلى جانبه مجموعة من الأطفال يلعبون ، فمرّ عليهم المأمون ومعه جماعة ، فهرب الأطفال إلّا الإمام ﷺ فقال له المأمون : يا غلام ، ما منعك من الانصراف مع الصبيان ؟ فقال محمّد مسرعاً : يا أمير المؤمنين ، لم يكن بالطريق ضيق لاوسعه عليك بذهابي ، ولم تكن لي جريمة فأخشاها وظنّي بك حسن إنّك لا تضرّ من

---

(١) كمال الدين ٢ : ٣٨٤ ، ح ١ .

لا ذنب له ، فوقفت ، فأعجبه كلامه ووجهه ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : محمّد ، قال : ابن مَن ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أنا ابن علي الرضا . فقرّهم على أبيه ، وساق إلى وجهته ، وكان معه بزاة ، فلمّا بعد عن العمارة أخذ بازياً فأرسله على دراجة ، فغاب عن عينيه غيبة طويلة ثمّ عاد من الجوّ وفي منقاره سمكة صغيرة وبها بقايا الحياة ، فتعجّب الخليفة من ذلك غاية التعجّب ، فأخذها المأمون بيده وعاد إلى داره في الطريق الذي أقبل منه ، فلمّا وصل إلى ذلك المكان وجد الصبيان على حالهم فانصرفوا كما فعلوا أوّل مرّة ، وأبو جعفر لم ينصرف ووقف كما وقف أوّلاً ، فلمّا دنى منه الخليفة قال :

يا محمّد ؟ قال : لبّيك يا أمير المؤمنين ، فقال له : ما في يدي ؟ فقال الإمام عليه السلام ما مضمونه القريب : إنّ لله سبحانه في عالم قدرته بحاراً فيها أسماك ، تصادها بزاة الملوك ، لتختبر بها أولاد الأنبياء(١) .

ومنها : أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول للعباس عليه السلام قل : واحد ، فيقول : واحد . فيقول له قل اثنان ، فيقول : العباس عليه السلام : أستحي أن أقول باللسان الذي قلت واحد اثنان(٢) .

فإنّه قد وصل إلى التوحيد الكامل من أول طفولته ، فنقول : إنّ ما عند الأدنى عند الأعلى مع زيادة ، أي أنّ المعصومين عليهم السلام أولى منه بذلك .

ومنها : ما ورد عن الإمام الحسن عليه السلام أنه كان يذهب إلى بيت جده صلى الله عليه وآله فينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان الإمام عليه السلام طفلاً فيسمعه ثم يذهب إلى أُمه الزهراء عليها السلام فيروي ما سمعه لها ، ودخل أمير المؤمنين عليه السلام في ذات يوم من إحدى الغزوات ، فوجد الحسن عليه السلام يروي الوحي إلى أُمه عليها السلام ، فاحتضنه وقال : ﴿ ذُرِّيَّةً

---

(١) كشف الغمّة ٣: ١٣٦.

(٢) مستدرك الوسائل ١٥: ٢١٥.

بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾[١]، وفي رواية أخرى انه أقبل ليؤدي ما سمعه من الوحي إلى أمه عليها السلام فوقف ساكتاً، فعجبت أمّه من ذلك، فقال: «لا تعجبين يا أُمّاه، فإنّ كبيراً يسمعني واستماعه قد أوقفني»، فخرج عليّ فقبّله. وفي رواية: «يا أُمّاه، قلّ بياني، وكلّ لساني، لعلّ سيّداً دعاني»[٢].

فقال له أبوه عليه السلام: لم سكت؟ فقال بما مضمونه: كيف انطق وأنا بين يدي الله تعالى؟ فاحتضنه الإمام وقال: **﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾**.

بقي الكلام في أمرين:

الأول: في درجة العصمة.

الثاني: في العصمة من الخطأ والنسيان.

لأن المشهور يفهم العصمة من آية التطهير، فهل تدل آية التطهير على العصمة من الخطأ والنسيان. فهل يمكن تقريب أُطروحة لذلك أم لا؟

ينبغي أن نتذكر أننا قلنا في مناسبات سابقة: إنّ المعصومين عليهم السلام إنّما هم معصومون عن الذنوب والعيوب العامة التي يتصف بها سائر الناس، ويكلفون بها حسب الشريعة الظاهرية. فهم معصومون منها؛ لأنهم يرون وضوح القبح والصعوبة أمام الله سبحانه وتعالى، بحيث يتركونها بقناعتهم واختيارهم. ونحن لا نراها كذلك لتدنينا وبعدنا عن الواقعيات.

فإذا علمنا أنّ المتورعين والمتقين يرون الواجبات مهمة والمحرمات مهمة، وهو الهدف دينياً وإنسانياً، فكيف يكون عصيانها في نظر المعصومين عليهم السلام؟ فإنّه يكون أقبح وأشد. فهي من الجميع قبيحة، ومنهم أقبح، فلابد أن يتصفوا بالعصمة منها.

---

(١) آل عمران: ٣٤.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧٥.

ونحن إذا سرنا مع هذه القاعدة فسوف ينتج من ذلك، إنّ المعصومين عليهم السلام إنّما هم معصومون من الذنوب العامة وليسوا معصومين ممّا فوقها. ومن هنا بدرجة من درجات تفكيري قلت: إنه توجد هناك توقعات منهم قد تعصى، أو سميتها: «الذنوب الدقية»؛ لأنها ذنوب على مستواهم من التوقع والتفكير. فهم بالنسبة إلى التوقعات الخاصة برتبتهم ليسوا معصومين.

وإذا مشينا بهذا الطريق فسوف نصل إلى نتيجتين تقربهما كثير من ظواهر القرآن الكريم والسنة:

إحداهما: نسبة الذنوب إلى الأنبياء في القرآن الكريم، كآدم ويعقوب ويونس، بل حتّى خير الخلق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله. فهي ذنوب دقية وليست ذنوباً عامة.

فالمتوقع من يونس عليه السلام مثلاً أن يصبر أكثر، لكنه صبر أقل من المطلوب، فابتلعه الحوت.

ثانيتهما: اعترافات المعصومين عليهم السلام بذنوبهم في الأدعية. فهذا له عدة وجوه:

منهـا: التعليم للآخرين، فهم يستغفرون لكي نستغفر.

ومنهـا: أنهم فعلاً يستغفرون من ذنوبهم الخاصة بهم، أما ما هي هذه الذنوب؟ فالله أعلم، فإنهم يعتبرونها من أسرارهم الخاصة.

مضافاً إلى فكرة أخرى: وذلك بأن يقال: إن مستويات العلة تختلف، وكذلك مستويات الكمال تختلف. فكلما ارتفع الإنسان في درجة التكامل، ازداد في درجة التوقعات منه، أي واجباته ومحرماته الخاصة به، وكلما كان كذلك كان معصوماً من الدرجة التي هو فيها. فلو كان عيسى عليه السلام أفضل من موسى عليه السلام في العصمة، وأعلى درجة في التكامل، فقد تصدر أشياء من موسى عليه السلام تكون جيدة، ولكنها إذا صدرت من عيسى عليه السلام تكون غير صحيحة، ولا تناسب شأنه.

ومن أمثلة ذلك أيضاً: أنّ المؤمن الاعتيادي، يمكن أن نعتبره معصوماً

عن الذنوب الواضحة الضرورية ، كالزنا وشرب الخمر وقتل المؤمن والسرقة . ولكنه غير معصوم من الذنوب التي تناسبه ، كالكذب والغيبة وأكل حق الإمام ﷺ بغير وجه شرعي وهكذا .

ومنه قصة الشريفين المرتضى والرضي ، حيث يقال : إنه قدم لهما أبوهما كتاباً ، وقال : أهديه لأحدكما ممن لم يعمل حراماً طول عمره .

فقال كل منهما : إني لم أعمل حراماً . فقال : فإني أقدمه لمن لم يخطر في باله أن يفعل الحرام ، فسكت أحدهما ، وقال الآخر : إني لم يخطر في بالي ذلك . فأعطاه له .

وبهذا ينتهي الكلام عن علاقة الحسين ﷺ بأمه الزهراء ﷺ .

علاقة الحسين ﷺ مع أخيه الحسن ﷺ

والحديث هنا لا ينبغي أن يقع من الناحية الأُسرية ، وإنّما ينبغي أن يقع في نقطتين :

الأُولى : في إمامته عليه ، مع العلم انه مثله أو دونه .

الثانية : فيما قاله المفكرون المتأخرون من الإمامية ، من أنّ صلح الحسن ﷺ كان مقدمة لثورة الحسين ﷺ ، فهل هذا صحيح أم لا ؟

النقطة الأُولى : لاشك أنّ الحسن ﷺ تولى الإمامة بعد أبيه ، وهذا معنى يعترف به الخاصة والعامة ، فقد كان في تلك الفترة هو الإمام المفترض الطاعة على كل البشر بما فيهم الحسين ﷺ . وهنا يأتي الإشكال : بأنّ الحسن ﷺ ليس أفضل من الحسين ﷺ ، بل هما مثلان ، فكيف أصبح إماماً عليه ؟ لأن الإمام لا بدّ أن يكون أفضل .

وجواب ذلك من عدة وجوه :

الوجه الأول: النقض بسائر الأئمة عليهم السلام فهذا حصل في كل الأئمة عليهم السلام. فإننا نعرف أنهم متساوون تقريباً، ومن نور واحد. ولكن مع ذلك قد صار الأب إماماً على ابنه إلى أن مات. فما تقوله هنا نقوله هناك.

فإن قلت: إنّ مورد النقض يختلف عن مورد الكلام، باعتبار الأبوة، وهي منتفية مع هذين الأخوين عليهما السلام.

قلنا: إن ولاية الأبوة وإن كانت شريفة، إلّا أنّها بسيطة ومتدنية بإزاء ولاية الإمامة. فحينئذ يلغى الفرق بين الأئمة عليهم السلام والحسن والحسين عليهما السلام لسقوط قيمة الأبوة من هذه الناحية، فيرجع النقض صحيحاً.

الوجه الثاني: الطعن بالقاعدة العقلية، فإنّ الإشكال ناشئ من قاعدة يؤمنون بها، وهي أنّ من القبيح جعل المفضول إماماً على الفضول، فإننا نستطيع أن ننفي انطباق هذه القاعدة، من حيث إنّ هذا لم يحصل في المعصومين عليهم السلام وأما جعل المثيل، إماماً على مثيله، فهو ممّا لا يستنكره عقل ولا شرع.

الوجه الثالث: أنّ هذه القاعدة العقلية إن سلمناها، فإنما تنفذ في مورد عدم الأهلية، أي أنّ المفضول ليس أهلاً للإمامة، فإذا كان المفضول متدنياً جداً، قبح جعله إماماً على من هو أرفع منه بدرجة عالية. وأما مع حفظ الأهلية كما هي متوفرة فعلاً في أهل البيت عليهم السلام فلا مانع من جعل المفضول إماماً فضلاً عن المثيل.

الوجه الرابع: إننا لو تنزلنا جدلاً عن الوجوه السابقة، أمكن القول بنفي الولاية ووجوب الطاعة في هذا المورد، والحسن عليه السلام إمام على كل البشرية إلّا الإمام الذي بعده، أو أي إمام بالنسبة إلى باقي الأئمة عليهم السلام. وإذا تعمقنا إلى حد ما، فإننا نستطيع أن نقدم جهلنا بوجه العلاقة الخاصة بين الإمامين. ولم يرد في التاريخ أنّ الإمام السابق أمر الإمام اللاحق بشي بنحو الولاية، وإن الثاني أطاعه. ومن الناحية العملية لا السابق يأمر ولا اللاحق يعصي، وكلاهما موقف من مواقف الأدب تجاه الله

سبحانه وتعالى.

الوجه الخامس: أن يقال: إن الإمام المتقدم دائماً خير من الإمام المتأخر، لا باعتبار أصل وجوده، بل باعتبار ما ورد: من أن المتأخر يعلم ما عند المتقدم عندما تصل روحه التراقي. فينتقل ما عنده إلى ما بعده. إذن في الثاني في حال وجود الأول لا يعلم ما عنده، فالأول أفضل من هذه الناحية، فتتعين له الإمامة والولاية. وهذا صحيح لو سلمنا به، وفيه بعض الروايات.

الوجه السادس: أن نتنزل عن كل ما سبق ونقول بالولاية الفعلية للمتقدم على المتأخر ما دام حياً، وهما مثيلان في المستوى الإلهي، فنقبله لثبوته بالتعبد الشرعي، بعد أن لم يكن قبيحاً عقلاً، فقد اقتضته الحكمة الأزلية لمصالح لا يعلمها إلّا الحكيم المطلق.

الوجه السابع: في الإمكان أن يقال: إنه نحو امتحان للإمام المتأخر تجاه طاعة الله سبحانه وتعالى، بما فيهم الحسين عليه السلام تجاه أخيه الحسن عليه السلام، وذلك بأن يجد نظيره ومثيله في المستوى آمراً عليه، وولي على حياته ومماته، ويجب عليه القبول والرضا بأمر الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله.

هل أنّ صلح الحسن مقدمة لثورة الحسين عليهما السلام؟

النقطة الثانية: في ما قاله المفكرون المتأخرون من الإمامية، ولعله قد أصبح من الضروريات في الفكر الشيعي، بأن صلح الحسن عليه السلام مقدمة لثورة الحسين عليه السلام، فهل الأمر كذلك أم لا؟ وما هو الوجه في هذه المقدمية؟

وينبغي الالتفات هنا إلى أننا لسنا مضطرين حسب القواعد الشرعية المعروفة أن نقول بهذه المقدمية، بل يكفي فيه ما عليه المسلك التقليدي الإمامي القديم من أن كل منهما قد رأى المصلحة في زمانه ومكانه المعينين أن يقوم بما قام به. وأنّ المصلحة تلقاها بالإلهام عن ربه أو بالأمر من جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أجازهما صلى الله عليه وآله

في ذلك حين قال: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»[١] . إذن فكل منهما قد أدى المصلحة الوقتية التي رآها في زمانه بغض النظر عن الآخر.

وخاصّة إذا التفتنا إلى أن هذه المقدمية إنّما يصح قولها وإثباتها، إذا أحرزنا ردود الفعل والتصرفات من قبل جميع الناس، من أصدقاء وأعداء وغيرهم، بحيث تحصل كما حصلت فعلاً. مع أنّ هذا لم يكن محرزاً في عصر الإمام الحسن عليه السلام بما فيه حصول يزيد على الخلافة، وغير ذلك كثير.

فإن قلت: إنه كان معلوماً في علم الله سبحانه، وكان يعلمه الحسن عليه السلام.

قلنا: نعم، إلّا أنّه يمنع منهما مانعان:

أحدهما: الاختيار المعطى للإنسان من أصدقاء وأعداء، ولا نقول بالجبر، فإذا كان الاختيار موجوداً كانت الاحتمالات عديدة، وإذا كانت الاحتمالات عديدة كان المستقبل مجهولاً.

ثانيهما: احتمال حصول البداء، فإنّ كثيراً من الأشياء من أول الخليقة إلى آخرها نؤمن بحصول البداء فيها. فقد تحصل حوادث غير متوقعة. فإذا كان الولي يعلم أنّ التسلسل المعين سوف يكون إلى أن يقتل الحسين عليه السلام، فإنّ هذا كله قابل للبداء، فإذا كان كذلك كان المستقبل مجهولاً.

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام والدهما أنه قال: «**وَلَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَأَخْبَرْتُكُمْ بِمَا كَانَ، وَبِما يَكُون، وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ، وهي هذه الآية: ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾**[٢]»[٣].

فإن قلت: فإنّ الفكرة العامة للمجتمع كانت واضحة في ذهن الحسن عليه السلام،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٣.

(٢) الرعد: ٣٩.

(٣) الأمالي، للصدوق: ٤٢٣.

وأنه سوف تؤدي نتائجه إلى ثورة الحسين ومقتله ، ومن هذا أوجد صلحه .

قلنا: هذا نظراً إلى المصالح الدنيوية . والجانب الظاهري من المجتمع ، ولاشك أنّ الإمام الحسن عليه السلام نظره أعمق من ذلك ، فهو يعرف الواقعيات بما هي . وإذا تعمقنا أكثر لم نعرف كيف ستكون النتيجة .

فإن قلت: فإنّ لكل نتيجة سبباً ولكل سبب ... وهكذا . فيتعين أن يكون صلح الإمام الحسن عليه السلام واقعاً في سلسلة علل ثورة الحسين عليه السلام .

قلنا : نعم ، إلّا أنّ هذه العلل غير خاصّة بذلك ، بل إنّ تولي يزيد الخلافة من جملة عللها ، وكذلك إصراره على أخذ البيعة ، وكذلك تعيينه لعبيد الله بن زياد ، وغير ذلك كثير .

مضافاً إلى أنّ هذا أمر كان يمكن إدراكه حين حركة الحسين عليه السلام أو بعدها ، وأما قبلها فلم يكن متيسراً .

وهل بالإمكان القول : بأنّ الحسن عليه السلام صالح معاوية لأجل أن يتسبب في قتل أخيه الحسين عليه السلام بعد عشرة سنوات مثلاً ؟

فإن قلت: إنّ الحسن عليه السلام كان يعلم بوجود المصالح العظيمة التي سوف تترتب على حركة الحسين عليه السلام ، وثورته ، ومن هنا كان راضياً بمقتل الحسين عليه السلام ، كما أنّ الحسين عليه السلام كان راضياً بمقتل نفسه . فلا يبعد أن يكون قد فعل الإمام الحسن صلحه من أجل أن يتسبب إلى قتل الحسين عليه السلام ، ومن أجل أن يتسبب إلى المصالح المترتبة على مقتل الحسين عليه السلام .

قلنا: نعم ، إلّا أنّ هذا الوجه غاية ما يثبت : العلم به ، والرضا به . وأما تسبيبه العمدي من أجل ذلك فلا . بل كان من أجل المصالح الوقتية في زمانه عليه السلام ، ولو قلنا بالتسبيب فإنما هو جزء العلة التكوينية في مجموع التسبيبات التي أدت إلى مقتل الحسين عليه السلام فإنّ لكل شيء علة على أية حال .

فإن قلت: إنه لولا صلح الحسن عليه السلام لما حصلت ثورة الحسين عليه السلام لأنه جزء

سببي، مهما قل أو كثر. فهو مسبب بمعنى من المعاني ولو فلسفياً إلى ثورة الحسين عليه السلام كما أنّ الأسباب الأُخرى موجودة، فيلزم من عدمه عدمه، أي يلزم من انعدام جزء العلة زوال المعلول، مهما كان جزء العلة ضئيلاً. فيصدق فلسفياً أنه إذا لم يصالح الحسن عليه السلام معاوية لما حصلت ثورة الحسين عليه السلام. وإذا لم تحصل ثورة الحسين عليه السلام لم تحصل نتائجها المحمودة، ومصالحها الكبيرة والعليا.

قلنا: إنّ جوابه من عدة وجوه:

الوجه الأوّل: إنّ هذا التعبير: وهو أنه لولا صلح الحسن عليه السلام لما حصلت ثورة الحسين عليه السلام ليس بأكيد، فلربما يجعل الله سبباً آخر بديلاً عن هذا السبب.

الوجه الثاني: أنّ المفكرين الاماميين يقولون: قد حصل شيء ناتج من صلح الحسن عليه السلام حتّى استعمله الحسين عليه السلام في وقته فهل حصل شيء من صلح الحسن عليه السلام؟ أو إنّما هو مجرد صلح على ورق، فإنّ معاوية صعد بعده على المنبر وقال: «ألا إنّي كنت منّيت الحسن وأعطيته أشياء، وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها له»(١). فإنّ معاوية لم يلتزم به. فإذا لم ينتج شيئاً فكيف يقولون: إنه مقدمة لحركة الحسين عليه السلام؟

الوجه الثالث: لو تنزلنا وقبلنا أنه لولا صلح الحسن عليه السلام لم تحصل ثورة الحسين عليه السلام فقد نقول: إنه لا بأس أن لا تحصل ثورة الحسين عليه السلام، فيبقى الحسين عليه السلام وينفع الناس، وتترتب على ذلك مصالح أخرى كما تترتب على وجود سائر الأئمة عليهم السلام. والشيء الذي نعرفه ان الله تعالى يحفظ دينه على كل حال، سواء صالح الحسن عليه السلام معاوية أم لا. وسواء ثار الحسين عليه السلام على يزيد أم لا.

فإن قلت: إنه لولا صلح الإمام الحسن عليه السلام لقتل كل الشيعة، ولأجل ذلك حصل الصلح. فإذا قتلوا لم تحصل ثورة الحسين عليه السلام لكونها سالبة بانتفاء الموضوع،

---

(١) الإرشاد ٢: ١٤.

ولم تحصل أي نتائج خير بعد ذلك. إذن فصلح الحسن عليه السلام تسبيب إلى حركة الحسين عليه السلام.

قلنا: إنّ هذا الوجه وإن كان مشهورياً ومركوزاً في أذهان المتشرعة، إلّا أنه وحده لا يكفي، ولا دليل عليه، وذلك لأكثر من وجه واحد:

الأول: أننا نرى أنّ معاوية نقض العهد ولم يستطع مع ذلك قتل كل الشيعة.

الثاني: أنّ الله سبحانه هو الحافظ لهم بصفتهم ممثلين للحق، كما قال: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾[(١)]، وهذا ثابت سواء صالح الحسن عليه السلام معاوية أم لا.

الثالث: أنّ المظنون أن يكون المراد من الصلح تقليل الظلم عما هو موجود، لا دفع الزائد. فإنّ معاوية كان ذكياً ويدرك أن الزائد ليس في مصلحته.

مضافاً إلى أمر آخر مهم، وهو يتوقف على مقدمة وحاصلها أن لكل من هذين الإمامين الجليلين أهدافاً في عملهما بلا شك، أو بتعبير آخر أدق أن نقول: إنّ لله سبحانه أهدافاً من عملهما، وهما عالمان بتكليفهما الشرعي وقائمان به، لنيل رضا الله وطاعته. فالهدف الحقيقي إنّما هو منسوب إلى الله تعالى. فإذا نظرنا إلى مجموعة الأهداف المحتملة للحسن عليه السلام، والأهداف المحتملة للحسين عليه السلام نرى أنّ نسبة هذه الأهداف بعضها إلى بعض على ثلاث مستويات:

المستوى الأوّل: أن يكون الهدفان متباينين، لا ربط لأحدهما بالآخر، فلا يصح أن يكون أحدهما مقدمة للثاني، كما هو الحال على التصور المشهوري للهدفين، فإنّ هدف الحسن عليه السلام هو حفظ الشيعة وعنصر الحق، وإلّا لأبادهم الظالمون، ولا أقل من أن من المحتمل أن يقتل نفس الحسن والحسين عليهما السلام. فإذا قتلا يندثر الحق.

وهذا ما لا يراد بكل صورة، والأئمة عليهم السلام قد قدموا كل المقدمات، وتنازلوا جملة

---

(١) الحجر: ٩.

من التنازلات، وضحوا جملة من التضحيات في سبيل حفظ أهل البيت عليهم السلام واستمرار الأئمة عليهم السلام بما فيه عدم محاربة أو مشاركة زين العابدين عليه السلام.

وأما أهداف الحسين عليه السلام على الأُطروحة المتعارفة فهو إبراز أهمية الدين، وإمكان التضحية له بهذا المقدار العظيم. فهما متباينان باصطلاح المنطق، وإن كانا مشتركين في جانب طاعة الله تعالى، فلا ربط لأحدهما بالآخر ليكون مقدمة له.

المستوى الثاني: أن يكون الهدفان متساويين أو قل: إنّ أحدهما عين الآخر، فلا يصح أن يكون أحدهما مقدمة للآخر بدليل على أنه لو كان العكس لصحة المقدمية أيضاً، كل ما في الأمر أنّ أحدهما قبل الآخر وجوداً في خلقة الله سبحانه، وقد تشاركا لإيجاد هدف واحد فقط. وهذا ينطبق على عدة أهداف محتملة أو على عدة أُطروحات مثل: فضح خيانة ولا إنسانية المعسكر الأموي، وكل أعداء الحق على مدى التاريخ، وبذلك يفشل الخصم على مدى التاريخ عن كسب الانصار له والدعوة إلى نفسه عن طريق الجدل النظري، وسيكون الحق النظري في جانبهما بوضوح ما لم يكن الفرد طالباً [ ][1].

ومثل: أن يكون هدفهما معاً إبراز أهمية الدين بدرجة عالية، بحيث لا يعتنى بإزائه بالأُمور الشخصية مهما كانت واضحة اجتماعياً ودنيوياً. كالتنازل إلى الأعداء من ناحية أو الإبادة من ناحية أخرى. وهما أقوى الحوافز الدنيوية التي قد تقع حجر عثرة دون انتصار الدين خلال الأجيال. فقد تصدى سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله بأنفسهما لدحض هذا الاحتمال.

وهذا هدف مشترك، ولكن إعطاء كل واحد منهما في صورة غير الصورة الأُخرى، فمثلاً نقول: إن الصورة التي أعطاها الحسن عليه السلام أنه لا يمكن أو لا ينبغي الحفاظ على هذا التكبر والسمعة، فحتى لو سحقت السمعة بالأرجل فهي في سبيل

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل.

إرضاء الله تعالى ، أما الصورة التي أعطاها الحسين ﷺ فهي أنه لا ينبغي الحفاظ على الذات ولا على المال ولا على الأسرة إن كان ذلك يرضي الله تعالى ، وهذا لا يعني المقدمية ، فلو كان العكس حاصلاً لأمكن حصول نفس الهدف .

المستوى الثالث : أن يكون هدف الإمام الحسن ﷺ سنخ هدف يصلح أن يكون إعداداً واستقراراً أو مقدمة لثورة الحسين ﷺ . وهذا الحال أيضاً ينطبق على بعض الأُطروحات :

منها : أن يكون هدف الإمام الحسن ﷺ حفظ الشيعة ، أو قل حفظ أكبر عدد منهم ، وحينئذ تم حفظهم بالصلح ، فاستطاع الإمام الحسين ﷺ أن يقدمه في ثورته وحركته . وهذا هو أوضح الاتجاهات المركوزة في أذهان المتشرعة التي تتحدث عن المقدمية . ولكن يمكن الجواب عنه : بأنّ هذا صحيح لو كان الصلح قد انطبق فعلاً ، أما بعد أن رفضه معاوية فلا معنى لحصوله .

فإن قلت : فإنّ الحسن ﷺ قد سعى بمقدار وسعه وإمكانه لأجل ذلك ، وهو معاهدته المعروفة ، وليس في وسعه أخذ القبول الكامل والمستمر من خصمه .

قلنا : نعم ، ولكن ذلك لا يكفي للمقدمية ، لوضوح أنّ هدف الإمام ﷺ ينبغي أن يحصل لتحصيل نتيجته ، وهي ثورة الحسين ﷺ ، وأما إذا حصلت الخيانة من الطرف الآخر ولم يحصل الهدف ، إذن فهذه المقدمية لم تحصل عملياً وإن حاولها الحسن ﷺ .

ومنها : تربية إيمان المؤمنين من قبل الإمام الحسن ﷺ لأجل أن يحصل جيل متكامل يستطيع أن يجاهد بين يدي الحسين ﷺ .

وهذا النحو من الفهم له نحوان من الانطباق : انطباق مطابقي وانطباق التزامي .

أما الانطباق المطابقي فهو ظاهر القائل بذلك من حيث إنه يرى أن الصلح بنفسه أوجب زيادة درجات الإيمان للمؤمنين في المجتمع ، بحيث أعد لثورة

الحسين عليه السلام. إلّا أنّ هذا قابل للمناقشة من عدة جهات:

١ ـ أنه عهد اجتماعي، وليس موعظة إيمانية ليلزم منه ذلك.

٢ ـ أنه لو كان منطبقاً ومنفذاً لصح، ولكنه لم ينطبق إطلاقاً.

٣ ـ أنه لو كان أثر في هداية الناس لنجحت ثورة الحسين عليه السلام دنيوياً وسيطر على يزيد وأخذ الحكم، ولما خانه الشيعة بالكوفة، ولما خانوا مسلم بن عقيل عليه السلام وقالوا لأفرادهم: ما شأنك والدخول بين السلاطين، وكل ذلك لم يحصل. إذن فلم يكن هو الهدف الحقيقي للإمام الحسن عليه السلام، لاستحالة تخلف الهدف الحقيقي المقصود، كما قلنا في كتاب الأضواء.

وأما الانطباق الالتزامي فباعتبار أنه أوجد بعض الأمور التي أوجبت زيادة البلاء ضد المؤمنين، كرد فعل معاكس من قبل المعسكر المعادي ونحو ذلك. وكل بلاء دنيوي فهو موجب لتكامل البعض لا أقل. فقد حصل الإعداد في التكامل لثورة الحسين عليه السلام عن هذا الطريق.

وجوابه:

١ ـ أنه ليس هو المقصود للقائلين بالإعداد بلا شك.

٢ ـ أنّ هذا الإعداد غير خاص به، بل كل الحوادث المضادة للمؤمنين، والتي كانت تحدث يومئذ كفيلة بذلك، ابتداء بيوم السقيفة فما بعده من قتل الزهراء عليها السلام وقتل الحسن عليه السلام وغير ذلك.

إذن صح ما قلناه من أننا غير مضطرين للإيمان بهذه المقدمية، أو قل: إنها ممّا لا برهان عليها من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا عقل. ولكننا مع ذلك لا نستطيع نفيها، إذ لا برهان على عدمها أيضاً، فتبقى أُطروحة محتملة طيبة على أي حال.

ونستطيع أن نطبق احتمال ذلك على كل الأهداف التي ذكرناها في المستويات الثلاثة السابقة.

أوّلاً: إذا كان هدف الإمام الحسن عليه السلام حفظ الشيعة عن الإبادة، فيمكن أن يكون الغرض له حفظهم لنصرة الحسين عليه السلام.

أما بمعنى أن لا يبيدوا جميعاً فتكون حركة الحسين عليه السلام سالبة بانتفاء الموضوع، أو بمعنى أن يبقى منهم عدد كبير ينصر الحسين عليه السلام في طف كربلاء.

ثانياً: إنه إن كان هدف الإمام الحسن عليه السلام فضح المعسكر الآخر، كما هو هدف الحسين عليه السلام، كما قلنا في أُطروحة سابقة، فالأول منهما متقدم خلقياً وتاريخياً بمشيئة الله تعالى على الآخر، فهو بمنزلة المقدّمة للآخر. وإن صح أنه لو كان العكس لكانت ثورة الحسين عليه السلام مقدمة لصلح الحسن عليه السلام. إلّا أنّ الحسن عليه السلام ما دام مخلوقاً في الجيل الأسبق، إذن فله المقدمية والإعداد.

ثالثاً: إننا نقول نفس الشيء فيما إذا كان هدفهما معاً إبراز أهمية الدين وعظمته إزاء تحمل العناوين الثانوية والبلاء الدنيوي. فمن يكون متقدما زماناً من المحتمل أن يكون معداً لمن هو متأخر عنه.

رابعاً: أن يكون هدف الإمام الحسن عليه السلام تربية إيمان المؤمنين ليشاركوا في ثورة الإمام الحسين عليه السلام وقد حصل في البعض، كهؤلاء الذين جاءوا معه وقتلوا معه وهذا يكفي. ونحن نعلم أنّ عمق الإيمان لا يمكن أن يحصل للكثيرين إلّا نادراً.

وهناك أُطروحات أخرى للمقدمية نستطيع أن نسميها سلبية، لم يذكرها المشهور:

أوّلاً: أن يقال: إنّ صلح الحسن عليه السلام أوجب رد فعل في المعسكر الآخر أو زيادة في الظلم والاضطهاد، بحيث حصلت المصلحة في نظر الحسين عليه السلام لبدء حركته.

ثانياً: أن يقال: إنّ الامتحان الإلهي الذي أوجد صلح الحسن عليه السلام وإن أوجب قوة الإيمان لدى البعض، إلّا أنه أوجب ضعفه في الكثيرين، بل في عدد ممن كان يعد نفسه من الخاصة والموالين. ومن هنا ضعف إيمان الشيعة نسبياً، فحصلت

المصلحة لثورة الحسين ﷺ ليريهم أهمية الدين والإيمان .

ثالثاً: أنّ صلح الحسن ﷺ كان (ظاهراً) نحواً من التنازل لمعاوية بالملك والإمامة ، كما عليه المسلك التقليدي لدى العامة ، حيث إنهم يعتبرون الحسن ﷺ إماماً خامساً ، لكنه تنازل إلى معاوية وانقطعت إمامته . إذن سيكون ذلك إقراراً للمسلك العام للخلافة المدعاة لمعاوية وأمثاله ، أو قل : إقراراً لخلافة الأمويين عموماً ، وإن لم يكن ذلك مقصوداً حقيقة ، فحصلت المصلحة لثورة الحسين ﷺ في أن يبرهن عملياً على شجب ذلك وإنكاره في المذهب .

رابعاً: أنّ صلح الحسن ﷺ ربما أوجبه ظاهراً أنّ الموالين للأئمة ﷺ ضعفاء ومتخاذلون ، إلى حد يكونون على استعداد للمصالحة مع عدوهم بالرغم من كونهم يعتقدون به معتدياً ظالماً ، فاقتضت المصلحة للحسين ﷺ إثبات التجربة بخلاف ذلك يقيناً .

وإلى هنا يمكن ان نكتفي بهذا المقدار من الحديث عن علاقة الحسين ﷺ بأخيه الحسن ﷺ . وينتهي الحديث عن ذلك العنوان وهو علاقة الحسين بمن قبله .

علاقة الحسين عليه السلام بمن معه

وهنا نعرض سؤالاً مشهوراً وهو أنّ هناك اناساً صالحين مشهوداً لهم بالوثاقة، كانوا أحياء عند واقعة الطف، ومع ذلك لم يحضروها، ومقتضى القاعدة أن يكونوا مشمولين لقوله عليه السلام: **«من سمع واعيتنا أهل البيت ولم يجبه اكبّه الله على منخريه في النار»**[1]. مع أنهم لا يحتمل فيهم ذلك؛ لمدى إيمانهم وإخلاصهم، ويسمي الفكر التقليدي بهذا الصدد (عبد الله بن جعفر) زوج زينب بنت علي عليه السلام على المشهور والمنقول، و(محمد بن الحنفية) و(ميثم التمار) و(المختار الثقفي). فكلهم كانوا أحياء

ولم يحضروا واقعة الطف، مع العلم أنهم متدينون ومتشروعون ومتفقهون، فلماذا لم ينصروا الحسين عليه السلام في واقعة الطف؟

ويجيب الفكر التقليدي بأنهم جميعاً كانوا معذورين عن الحضور. فأما عبد الله بن جعفر فكان أعمى، والأعمى يسقط عنه الجهاد. وأما محمد بن الحنفية فكان ضعيف الساعدين لا يستطيع أن يضرب بالسيف، وقد نقل أنه كان قوياً فأصابته عين فضعف عن القتال. وأما ميثم التمار والمختار فكانا مسجونين بسجن عبيد الله بن زياد في الكوفة، حيث قام بحملة ضد مسلم بن عقيل عليه السلام وأصحابه.

أقول: أمّا أصل العذر فهو محرز، ولا ينبغي المناقشة فيه، كما أنّ عدم مشاركتهم

---

(١) ينابيع المودّة ٣: ٦٣.

في واقعة الطف بالرغم من وجودهم في ذلك العصر فهو من القطعيات ، ولا يحتمل أنهم شاركوا ولم يصل الخبر ؛ لأن خبرهم وصل بوجودهم بعد واقعة الطف كميثم الذي صلب في وقت متأخر عن ذلك الحين ، والمختار الذي أخذ بثأر الحسين ﷺ .

ولكن مع ذلك يمكن المناقشة بالمبرر السابق التقليدي بعد الالتفات إلى أنّ هؤلاء الأربعة على قسمين : اثنان منهم بالمدينة : وهما عبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية ، واثنان بالكوفة : وهما المختار وميثم . فلكل قسم حديثه الخاص به .

أما الاثنان اللذان في المدينة فلا يحتمل أنهما لم يعلما بحركة الحسين ﷺ بل كانا معاً ممن تحدث مع الحسين ﷺ في عدم الخروج . إلّا أن وجه العذر في عدم خروجهم معه أحد أمور :

الأول : العذر المذكور سابقاً ، وهو الذي عرضه الفكر التقليدي .

الثاني : أنّ الحسين ﷺ كلفهما بالبقاء بالمدينة بالوكالة عنه لقضاء حاجات المؤمنين ريثما يرجع ، أو يرجع الإمام الذي بعده . وهذا وإن لم يثبت بدليل معتبر إلّا أنه راجح ؛ لأنهما كانا أكثر الموجودين من بني هاشم وجاهة وعمراً وتفقهاً .

الثالث : أنهما وإن علما بخروج الحسين ﷺ إلّا أنهما لم يكونا يتوقعان ما حصل من نتائج ، وهذا أمر مضنون وإن لم يكن أكيداً . ولا أقل أنهما يسليان أنفسهما باحتمال نجاح الحسين ﷺ في حركته دنيوياً ، وعدم مقتله ، وخاصّة أنهم يحملون عزمه الأكيد على الذهاب على نحو من التخطيط للانتصار على الصعيد المادي والدنيوي .

مضافاً إلى نقطة أخرى ، وهي أنه ليس من المفروض أن يأخذ الحسين ﷺ معه جميع المؤمنين على الإطلاق لمجرد حصول حاجته إليهم بعد ذلك .

وأما حين تقوى احتمال مقتله بعد حادثة الحر الرياحي ، فلم يصل الخبر إلى المدينة ، وكانوا جاهلين ومعذورين عن ذلك . وحتّى لو فرضنا وصولهم فلم يكونوا

يدركون الذهاب إليه مع صعوبة وسائط النقل ،كما لم يكونوا يعلمون منطقة تواجده لكي يصلوا إليه .

إلّا أنّ هذا الوجه قابل للمناقشة من أكثر من نقطة واحدة :

١ ـ أنّ هذا الذي قلناه ، وهو أنهما لم يكونا متوقعين النتائج التي حصلت ليس بصحيح ؛ لأنه كان يصرح بحصول مقتله عليه السلام .

٢ ـ أنّ هذا الذي زعمناه ، وهو أنه ليس المفروض خروج كل المؤمنين معه أيضاً ليس بصحيح ، فإنّ المفروض خروج جميع المؤمنين معه . ولذا نجده يقول : « خُطَّ الْمَوْتُ عَلى وُلْدِ آدَمَ مَخَطَّ الْقِلادَةِ عَلى جِيْدِ الْفَتاةِ »[1] إلى ان قال :

« أَلَا ومَنْ كانَ باذِلاً فِينا مُهْجَتَهُ ، وَمُوَطِّناً عَلى لِقَاءِ اللهِ نَفْسَهُ ، فَلْيَرْحَلْ مَعَنا ، فَإنَّني راحِلٌ مُصْبِحاً إنْ شاءَ اللهُ تَعالى »[2] . وقوله : « فَلْيَرْحَلْ مَعَنا » أمر إلزامي عام لكل المؤمنين .

والمفروض بهم الطاعة ،كما أنّ المفروض بكل واحد منهم أن يكون باذلاً مهجته موطناً على لقاء الله نفسه ، إلّا أنّ أمثال هؤلاء في الواقع قليلون . ومن هنا يجب على هذين الرجلين وغيرهما أن يخرجوا معه ، فيسقط هذا الوجه للعذر ويبقى الوجهان السابقان .

وأما المختار الثقفي فالظاهر أنّ العذر فيه صحيح ، لمشاركته فعلاً مع مسلم بن عقيل عليه السلام في حركته ، ونحن نسمع من التاريخ أنّ مسلم بن عقيل عليه السلام نزل أولاً في دار المختار الثقفي ، ثم انتقل إلى دار هاني بن عروة بعد مجي عبيد الله بن زياد باعتباره أقوى عشيرة وأنصاراً وسلاحاً . فكان قبل ذلك في دار المختار وهو الذي يتولى شؤون مسلم بن عقيل عليه السلام[3] .

---

(١) و (٢) شرح الأخبار ٣ : ١٤٦ .

(٣) انظر : لواعج الأشجان : ٤٥ .

وعلى أي حال ، فمن الطبيعي أن يسجن فيمن سجن بعد مقتل مسلم ﷺ ، ولم تكتب الشهادة للمختار كما كتبت لهاني ﷺ . لكونه أقل مشاركة منه . في حين أنّ لهاني اليد الطولى في الدفاع عنه واخفائه في داره .

واما ميثم التمار فمشاركته لحركة مسلم ﷺ احتمالها ضعيف ، باعتبار عدم وصول اسمه خلالها ، مع وصول عدد معتد به من الأسماء من كلا المعسكرين ، ومن ثم فالنتيجة المذكورة له تكون ضعيفة أيضاً ، وهو كونه مسجوناً في سجن ابن زياد بعد حركة مسلم ﷺ . فما هو وجه سجنه إن لم يكن مشاركاً ؟ ومن ثم يكون التمسك بهذا العذر له ضعيفاً .

إلّا أنّ هذا الرجل ممّا يتعين حمله على الصحة والتصرف المشروع ، لما نعرف من اخلاصه وارتفاع شأنه ، وخاصّة في المنقول من تصرفه خلال شهادته ، فإنّه كان يروي فضائل أمير المؤمنين ﷺ ويداه ورجلاه مقطوعتان إلى أن قطعوا لسانه . ومن ثم تكون لعذره أُطروحات أخرى :

الأُطروحة الأُولى : أن المشهور وإن كان هو شهادة ميثم بعد واقعة الطف ، إلّا أنّ الخبر في ذلك ضعيف فلعلّه قتل قبل ذلك كما قتل جماعة من المؤمنين كحجر بن عدي وغيرهم . ومعه لم يكن حياً في واقعة الطف ليشارك فيها .

الأُطروحة الثانية : أنه بالرغم من اشتهار حركة الحسين ﷺ في المنطقة بين مكة والمدينة والكوفة والبصرة ، الا أنّ ميثم ﷺ كان في الأعراب في منطقة نائية لا تصلها الأخبار ، وهي أُطروحة محتملة سمعتها من بعض الفضلاء السابقين . ولعل أفضل ما فيها أنّها الوجه الرئيسي لإمكان حمله على الصحة ، بعد سقوط الوجوه الأُخرى . وعلى أي حال فهي تكفي للاحتمال المبطل للاستدلال ضده ، وإن لم نكن نستطيع أن نثبتها تاريخياً .

الأُطروحة الثالثة : أنّ ميثماً ﷺ كان ممن يعلم علم المنايا والبلايا ، ولا أقل أنه

كان يعلم السبب في مقتل نفسه ، ويرويه عن سيده وإمامه أمير المؤمنين عليه السلام ، وكان يسقي الشجرة التي أشار إليها بأنه يصلب عليها ، وكان يقول لها : «لها خلقت ولي غذيت»[١] .

وعندئذ فهو يعلم أنه في قضاء الله وقدره الحتمي أن يكون موته هنا في محله الموعود ، ولا يحتمل أن يكون في كربلاء ولا في أي مكان اخر ، وكأنه فهم أيضاً عن أمير المؤمنين أنّ المسألة غير قابلة للبداء ، أو أنه لم يكن ملتفتاً إلى البداء .

فكان طيب القلب من هذه الناحية ، معتمداً على بشارة أمير المؤمنين له بالشهادة ، ولا تفرق الشهادة في نظره بين هذه أو هذه . وخاصّة إذا التفتنا إلى احتمال أنه لم يسمع قول الحسين عليه السلام : **«من سمع واعيتنا اهل البيت ولم يجبه أكبه الله على منخريه في النار»**[٢] ، علماً أنّ هذه الكلمة قالها الحسين عليه السلام في كربلاء أمام الجيش المعادي ، فكيف تصل إلى مسامع ميثم وأضرابه في الكوفة ، إلّا بعد أن يكون الحسين عليه السلام قد قتل .

الأُطروحة الرابعة : أنّ عاطفته تجعله منشداً إلى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام خاصّة دون غيره من الناس ، حتّى أولاده . وربما يرى الفرق بينهم كبيراً فلا يرى لهم أهمية بإزاء عظمة الولاية العلوية ، ولا يريد لها بديلاً حتّى لو كان هو الحسين عليه السلام .

مضافاً إلى أنه إن حصل لـه أي ذنب في التخلف عن الحسين عليه السلام ، فقد غسله في شهادته .

مضافاً إلى ما يروى : **«حبّ عليّ شجرة أصلها في الجنّة وأغصانها في الدنيا ، فمن تعلّق بغصن من أغصانها في الدنيا أورده الجنّة»**[٣] ، وقوله : **«حبّ عليّ حسنة**

---

(١) الإرشاد ١ : ٣٢٤ .

(٢) ينابيع المودّة ٣ : ٦٣ .

(٣) شرح الأخبار ١ : ٢٢٣ .

لا تضر معها سيئة[١] وقد كان ميثم أوضح مصاديق المحبّين له عليه السلام .

الأُطروحة الخامسة : أنه يعرف تكليفه الخاص بعدم الخروج لنصرة الحسين عليه السلام بالإلهام ، كما قلنا : بأنّ الخاصة من المؤمنين يأتيهم الإلهام من الله سبحانه . وهو تكليف خاص به وعذر خاص به شخصياً ، ولعل المصلحة فيه هي نفوذ نبوءة أمير المؤمنين عليه السلام في شهادته ، والاحتمال قاطع للاستدلال .

---

(١) ينابيع المودّة ٢: ٧٥.

علاقة الحسين عليه السلام بمن بعده

نتحدث الآن عن علاقة الحسين عليه السلام بمن بعده، أو قل علاقتهم به بعد أن يكون قد فارق الدنيا من الناحية العملية. غير أنّ العلاقة المعنوية والعاطفية تبقى موجودة، ومتاججة بالقلوب على مدى التاريخ. وهي إحدى المزايا العظيمة والعجيبة التي وهبها الله سبحانه للحسين عليه السلام لشهادته وصبره. وأعتقد أنّها موهوبة له بإرادة خاصّة من قبل الله سبحانه وتعالى، يعني أنّها نحو من أنحاء المعجزة. ويكفي أن نلتفت إلى أنّ سمعته الطيبة ممّا يشهد بها كل البشر على الإطلاق من مختلف أديانهم وثقافاتهم وطبقاتهم، إلّا من شذ وندر. أمّا الشيعة والموالون فلهم في ذلك خصوصية زائدة، كما نقل عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: **«إنّ لقتل الحسين مرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً»**[1].

وهذه من النعم عليه وعلى شيعته وعلى كل فرد منهم؛ لأنها باب مهم يدخلون منه إلى طاعة الله سبحانه، وتنفيذ شعائر الدين. ولولا هذه الحرارة للشيعة لتسامحوا في أمر الحسين عليه السلام وتغافلوا عنه وتركوا شعائره، بصفتها إحدى المستحبات التي يجوز تركها.

ولا أقل أنّ شانه في ذلك يكون كشأن غيره من الأئمة عليهم السلام. في حين قلنا في الأضواء: إن كل مجلس عزاء لأي إمام لا يكون جميلاً وجامعاً للشرائط

---

(١) مستدرك الوسائل ١٠: ٣١٨.

ما لم يقترن بذكر الحسين عليه السلام. كما أنني قلت: إنّ الإحساس الخاص يؤيد ذلك، ولذا نجد العاطفة في العشرة الأُولى من محرم تتصاعد فعلاً في القلب ويميل الفرد إلى البكاء وإيجاد هذه الشعائر بشدة وهمة، وهو أمر عجيب ليس له تفسير إلّا تأييد الله وعنايته.

وعلى أي حال فالظاهر أنّ أول الحركات التي حصلت بعد ثورة الحسين عليه السلام وانتسبت إليه فعلاً اثنتان: حركة التوابين وحركة المختار الثقفي. فلابد أن نحمل عنهما فيما يلي فكرة كافية.

وحسب نقل التاريخ، فإنّ حركة التوابين حصلت قبل حركة المختار، سنة خمسة وستين أي بعد واقعة الطف بأربعة سنوات، بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي، وكان هدفهم إزالة عبيد الله بن زياد عن الكوفة، وإسقاطها بأيديهم.

إلّا أنّ هدفهم المعنوي أرفع، وهو نيل الشهادة للتكفير عن الذنب الذي يشعرون به من أنهم تركوا نصرة الحسين عليه السلام. ولم تبق حركة التوابين طويلاً، واستطاع المعسكر المعادي، أو الدولة يومئذ من السيطرة على الحال والإجهاز على التوابين، وقتل سليمان بن صرد وأصحابه.

وهذا المعنى ثابت تاريخياً، وإنهم اتفقوا فيما بينهم لأجل ذلك، جزاهم الله خيراً. وسليمان بن صرد من المخلصين والمتعاونين مع مسلم بن عقيل عليه السلام، لكنه لم يوفق لأن يكون مع الحسين عليه السلام ولا نعلم السبب فيه.

والشيء الرئيسي الذي ينبغي الإشارة إليه أنهم لم يستأذنوا من أحد في حركتهم، في حين أنّ المختار أخذ هذا بنظر الاعتبار، وكان إخلاصهم واندفاعهم وعاطفتهم جعلتهم يقدمون من دون الالتفات إلى الاستئذان. وكأنهم استاذنوا من سليمان نفسه، وهو ليس بقاصر. فهو مؤمن ومتفقه ومتعاون مع أصحاب الائمة عليهم السلام كمسلم بن عقيل عليه السلام.

وينبغي الالتفات أيضاً إلى هذه النقطة ، وذلك أنهم بعد أن ظهرت أمارات الفشل لحركتهم اجتمعوا وقالوا : إننا نحارب لا لاجل حب الدنيا ، والمهم أن نموت في سبيل الله تعالى ، ولأجل التوبة من عدم الحضور في طف كربلاء .

وأما حركة المختار فبدأت بعد حركة التوابين مباشرة ، وهي أوسع وأقوى . وبدأت في العام الذي يليها سنة ستٍ وستين . حتّى باشر المختار الحكم واستطاع أن يقاتل أهل الشام ، وأن يستدعي بقتلة الحسين ﷺ فرداً فرداً ما استطاع إليه سبيلا ، ويقتلهم بنفس الطريقة التي فعلوا فيها . ومنهم عمر بن سعد وحرملة بن كاهل وعبيد الله بن زياد وغيرهم .

وبحسب فهمي فإنّ الحكمة تقتضي ذلك ، يعني ضعف حركة التوابين لينالوا الشهادة كما طلبوها ، ولو كانوا أقوياء لما استشهدوا . وقوة حركة المختار ليستطيع أن يباشر الانتقام الفعلي من قتلة الحسين ﷺ ، وإلّا فمن الواضح أن جمعهم والبحث عنهم ومباشرة قتلهم مع كون الدولة الرئيسية إلى جانبهم ، وهي حكم الأمويين ، ليس بالأمر السهل ، ولا يستطيع ضعفاء الناس القيام به .

في إخلاص المختار

تبقى كلمة ، فيما قد يثار من التشكيك في إخلاص المختار ﵀ ، وأنّ حركته فيها إشكالان :

أحدهما : أنه اعتمد في أخذ الإذن من محمد بن الحنفية ﵀ وليس من السجاد ﵇ وبذلك اتهم أنه من الكيسانية الذين يؤمنون بإمامة محمد بن الحنفية ومهدويته على ما في بعض النقول[1] .

ثانيهما : أنه حاكم طالب للدنيا ، بدليل أنه لم يسلم حكمه لأهل الحق ، بما فيهم زين العابدين ﵇ .

وهنا ينبغي النظر إلى عدة مستويات :

المستوى الأوّل : أنه لاشك أنه مخلص بدرجة معتد بها ، حيث شارك مسلم بن عقيل في حركته ، وأعانه على أهدافه . وهو يعلم أنّ من نتائج ذلك السجن أو القتل ؛ لأن الحكم الحقيقي لم يكن بيدهم ، بل بيد أعدائهم . وقد تحمل السجن عدة سنوات ثم طالب بثأر الحسين ﵇ ولم يكن ذلك شكلياً ؛ لانه لو كان كذلك لما كانت هناك همة لقتل قتلة الحسين ﵇ ، مع أنه كان متحمساً إلى هذه الجهة ومهتماً بها ، مضافاً إلى أنه قتل في سبيل عمله ، ولو كان طالباً للدنيا لكان في الأولى أن يصالح أو يهادن أو يتنازل أو يختفي على أقل تقدير ، ولم يفعل .

---

(١) انظر : من لا يحضره الفقيه ٤ : ٥٤٣ ، والصراط المستقيم ٢ : ٢٦٦ .

المستوى الثاني: أنّ الامام السجاد عليه السلام كان بعد مقتل أبيه في تقية مكثفة، ووضع دنيوي لا يحسد عليه، ولم يكن في نظره من المصلحة أن يصرح بأيّ شيء سياسي أو اجتماعي طول حياته حفاظاً على البقية الباقية من أهل البيت عليهم السلام. وأنه يكفي ما أُريق من دماءهم في كربلاء، وإذا كان للحسين عليه السلام هذا المقدار من الأنصار والتابعين فلن يستطيع السجاد أن يجد مثل عددهم. وأمامه عمل الحسن عليه السلام مثالاً، بحيث اضطر من الناحية الدنيوية أن يصالح معاوية. وهو إنّما اضطر إلى ذلك بصفته قائداً لمعسكر ورئيساً لحركة. فالأفضل للسجاد عليه السلام أن لا يكون في مثل هذا الموقع حتّى لا يضطر إلى إيجاد الصلح مع حاكم زمانه أيّا كان. بل يستقر في بيته ويخدم دينه في حدود التقية المكثفة، ولم يقصر في ذلك.

وهذا المعنى مانع أكيد وشديد عن أن يأذن للمختار بالحركة والانتقام من قتلة الحسين عليه السلام، بحيث يقول ذلك للمختار علنا بين الناس. ولربما أنّ الاتصال بينهما قد حصل، وقد أفهمه السجاد عليه السلام عدم وجود المصلحة في جوابه، وإعلان إذنه، أو أنه أذن له وأمره بالكتمان، أو أنه هو الذي وجهه إلى محمد بن الحنفية وإعلان رأيه.

غير أنه ممّا يبعد ذلك أنهما لم يلتقيا؛ لأنّ المختار بالكوفة، والسجاد بالمدينة. ولم يرد أنّ المختار ذهب إلى المدينة. ولكن ينتفي ذلك بسؤال ابن الحنفية فإنّه أيضاً في المدينة، وقد تم الاتصال بالمراسلة حسب المنقول، فيمكن أن يكون كذلك للسجاد عليه السلام.

وحيث إنه يتعين اجتماعياً ودينياً في نظر المختار أن تكون حركته مستندة إلى واحد من العلويين، أو من أهل البيت عليهم السلام فكان محمد بن الحنفية هو أوجه الناس عمراً وفقهاً وورعاً في إعلان اسمه في الاذن بهذه الحركة، بدلاً عن السجاد عليه السلام. وهذا هو التبرير التقليدي المعروف، وأنا اعتقد بصحته.

نعم، لا يتعين على المختار استئذان أحد إطلاقاً بعد عجزه عن أخذ الإذن من

السجاد عليه السلام ، أو عجزه عن إعلان ذلك . إلّا أنّ هذا تابع لقناعة المختار في ذلك الحين وما وجد من المصلحة في ذلك . فكأنه يرى أنّ أهمية حركته منوطة بأخذ الإذن من أحد العلويين ، وأن أهمهم هو ابن الحنفية .

وأما علاقته بابن الحنفية أكثر من ذلك ، فلم تثبت إطلاقا . بمعنى أنه يعتبره إماماً مفترض الطاعة ، أو أنه يعتبره هو المهدي عليه السلام الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً . بل نحن نجله عن ذلك ويكفي معاشرته للمخلصين السابقين عليه في وعيه وثقافته الدينية ، كمسلم بن عقيل عليه السلام وغيره . ومن هنا فمن غير المحتمل أن يكون كيسانياً .

على أنه من المحتمل القول بأن مذهب الكيسانيه كذب ، بمعنى أنه لم يحصل لأحد إطلاقاً . وإنّما هو نبز الأعداء ضد مذهب الإمامية ، ولو حصل ذلك لوصل الخبر إلى محمد بن الحنفية . ولو وصل الخبر إليه لكذبه بنفسه وانتهى الحال . وأمّا رضاه بالإمامة فهو بعيد جداً ، مع أنه من تربية المعصومين عليهم السلام ، ويعلم أنّ الامامة منوطة بشروط عظيمة في عللها ومعلولاتها ، لا تتوفر فيه .

مضافاً إلى أنه مسبوق لا محالة بالأخبار الدالة على وجود اثنى عشر إماماً(١) ، بعددهم وأسمائهم وهو ليس منهم . كما أنه مسبوق بنص الحسين عليه السلام على ولده السجاد عليه السلام بالإمامة ، وكل ذلك يمنع الظن برضاه بذلك .

ثم أنه قد ورد خبر عن تحكيم الحجر الأسود في إمامته وإمامة السجاد عليه السلام ، وأنّ الحجر شهد للإمام السجاد عليه السلام(٢) ، وهذا أمر معقول ، ولا يدل على اعتقاد ابن الحنفية بذلك ، بل هو لمجرد الإعلام لإمامة السجاد عليه السلام لكي لا يتخيل أحد أنّ محمد بن الحنفية وهو أكبر عمراً من السجاد عليه السلام فهو مستحق للإمامة . مضافاً إلى ما ورد من القاعدة العامة القطعية عند الإمامية وهي امتناع أن تكون الإمامة في أخوين

---

(١) انظر : مختصر بصائر الدرجات : ٣٩ ، وبحار الأنوار ٨٩ : ٩٩ .

(٢) انظر : الفصول العشرة ، للمفيد : ٥٠ .

بعد الحسن والحسين عليهما السلام. وهي تشمل عدة موارد منها محل الكلام. أعني أن تكون سبباً لنفي إمامة محمد بن الحنفية.

إذن فلم يثبت أنّ أحداً من المسلمين أو من الشيعة كان كيسانياً إطلاقاً. نعم، ينسب شعر إلى كثير عزة بمضمون اعتقاده:

إلّا أنّ الائمة من قريش ... لدى التحقيق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط يملأ الأرضين عدلاً ... أمام الجيش يقدمه اللواء
يغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء(١)

وهذا مضافاً إلى احتمال الوضع والدس فيه، بل لعل كثير عزة قاله لأجل الدس. فإنّه ليس فيه ان هذا الرابع المشار إليه هو محمد بن الحنفية. بل هو المهدي صاحب الزمان عليه السلام وليس في الكلام ما يدل عليه إلّا قوله: «علي والثلاثة من بنيه» يعني الصلبيين. إلّا أنّ ذلك غير متعي ،ن كما هو واضح. فإنّ الامام المهدي عليه السلام أيضاً هو من أولاد علي عليه السلام وفاطمة عليها السلام، وأنّ محمد بن الحنفية ليس بسبط رسول الله صلى الله عليه وآله فتعين في صاحب الزمان.

وهكذا يتضح أنّ الاعتقاد بمهدوية محمد بن الحنفية أيضاً من الدس والمجعولات لا أكثر ولا أقل.

ولو فرض أنّ أحداً كان معتقداً بها فقد اندثرت في مهدها، بتكذيب محمد بن الحنفية نفسه، أو عدم انصياعه لهم وحماسه لمصلحتهم على الأقل.

وكذلك للعلم والفضائل التي كانت تنتشر عن المعصومين عليهم السلام، كالسجاد

---

(١) الصراط المستقيم ٢: ٢٦٨.

والباقر عليه السلام ممّا يجعل عدول الشيعة إليهم لا عنهم. وربما كانت مثل هذه الأفكار خطرت في ذهن البعض ثم تاب عنها. لا أننا نقول: إنها فرقة كانت موجودة، وإنّما انقرضت بموت صاحبها، فإنّ ذلك خرافة ودس في التاريخ لا أكثر.

فاذا لم يكن للفرقة الكيسانية وجود حقيقي في التاريخ، أو قل وجودهم على أقل تقدير ـ لو كان لها وجود ـ ضعيف. فمن غير المحتمل انتساب المختار إليها.

على أنه ليس من مصلحته إعلان ذلك، أي إعلان امامة ابن الحنفية دون السجاد. وإنّما هو فقط اعتمد على إذن ابن الحنفية في حركته. وهذا ثابت تاريخياً في الجملة.

فإن قلت: إنه لماذا لم يتخذ محمد بن الحنفية مسلك التقية؟

قلنا: إنّ هذا جوابه من عدة وجوه:

أوّلاً: لعل الإمام عليه السلام أمره بذلك إلزاماً خفياً، لحكمة هو يراها. فإذا صح ذلك يكون مخصصاً لأمر التقية. فكل تقية واجبة إلّا ما خرج بدليل.

ثانياً: أنه رأى مصلحة عامة كبيرة فيما يريد المختار أن يفعله، مقدمة على مصلحة التقية، وخاصّة إذا التفتنا إلى عظم مصيبة الحسين عليه السلام.

ثالثاً: أنه في نقطة قوة دنيوية أكثر من السجاد، فإنّه من الناحية العملية لم يحارب الأمويين، ولم يحضر كربلاء، ولم يعلن العداء لهم بشكل إعلامي واضح. فمن الراجح أن لا يثير حفيظة الدولة ضده.

رابعاً: أنه بعد مضي هذا العدد من السنين كخمس سنين أو ست، وتبدل الخليفة الأموي. لم يبق محاربة قتلة الحسين عليه السلام مجابهة صريحة للدولة. وهي مجابهة، ولكنها ليست بهذه الأهمية والوضوح. وكإنما يراد مطاردتهم كأشخاص والانتقام منهم.

وهذه نقطة قوة كانت لمحمد بن الحنفية، في حين كان السجاد عليه السلام يحترس منها

بعنوان أنّ هؤلاء وإن لاحظناهم كأشخاص، إلّا أنهم أصدقاء الدولة وموالوها من ناحية، وكانوا منفذين لأمرها ورغبتها في قتالهم للحسين عليه السلام من ناحية أُخرى. اذن فمجابهتهم هي مجابهة للدولة ولو ضمنا، وهذا ما ينبغي السكوت عنه.

بخلاف محمد بن الحنفية الذي لم يعلن الحرب ضد الدولة إطلاقاً لا سابقاً ولا لاحقاً. فقد يكون معذوراً من جهة الدولة أن يدافع عن حق أخيه الحسين عليه السلام وليس هو عن الحسين عليه السلام ببعيد.

المستوى الثالث: عن قضية طلبه للدنيا، وعدم تسليم الحكم للإمام عليه السلام. فهذا يمكن أن يكون جوابه من عدة وجوه:

أوّلاً: أنّ كل منصب ديني فهو محتمل للدنيا ومحتمل للآخرة. بل الأمر هكذا في كل أمور الدنيا ممّا يمكن قصد القربة فيه. فيمكن للنفس الأمارة بالسوء أن تدخل شهواتها. كما يمكن للأعداء أن يطعنوا ويناقشوا. وهم طبعاً يريدون إفشال كل قادة الشيعة، من معصومين وغيرهم، والإعلام ضدهم. ونحن إذا طعنا بالمختار فقد أعنا اعداءنا على أنفسنا.

ثانياً: أنّ الإخلاص الذي وصفناه للمختار يتعين معه طلب الآخرة دون طلب الدنيا، فهدفه أعم من الدنيا واوسع.

ثالثاً: أنه ضحى بدنياه في سبيل آخرته، وقد روي عن أهل البيت عليهم السلام: «رحم الله عمّنا المختار»[1]. فهم راضون عنه، وهم لا يرضون إلّا عمن رضي الله عنه.

---

(١) ورد في البحار ٤٥: ٣٤٣، قول الإمام الباقر عليه السلام لابن المختار: «رحم الله أباك، رحم الله أباك».

حول ثورات العلويّين

والآن ينبغي أن نبدأ بإعطاء الفكرة العامة بعلاقة حركة الحسين عليه السلام بالتحركات ضد الظلم عموماً، وخاصّة التحركات التي حصلت من أولاده وأولاد عمه (الحسنيين والحسينيين)، فإنها علاقة وشيجة بلا شك، وأشهرهم زيد بن علي وهو ابن السجاد عليه السلام العامل بالتقية.

وخاصّة حينما يسمعون قول الحسين عليه السلام: **«وأنّي لم أخرج أشِراً، وَلَا بطراً، وَلَا مُفْسِداً، وَلَا ظَالِماً، وَإِنَّما خَرَجْتُ لِطَلَبِ الإِصْلاحِ في أُمَّةِ جَدِّي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله، أُريدُ أن آمُرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ»**[1] أو يسمعون قوله عليه السلام: **«وَاللهِ لَا أُعْطِيكُمْ بِيَدِي إِعْطاءَ الذَّلِيلِ، وَلَا أُقِرُّ لَكُمْ إقرارَ الْعَبِيدِ»**[2]. وغير ذلك من الكلمات التي تلهب الحماسة في نفوسهم، لتحمل الاذى والموت والشهادة في سبيل رفع الظلم عن المجتمع، أو التقليل منه حسب الإمكان، وقد أعطى مثالاً واضحاً وواسعاً وعظيماً للتضحية في سبيل الدين والحق.

وأنا الآن لست كفيلاً بنفس التاريخ فهم عديدون بالعشرات مذكورون في (مقاتل الطالبيين) وغيره. فلابد من الكلام **أوّلاً** في موقفهم من التقية، **وثانياً** في موقفهم من العنوان الذي كانوا يعلنونه يومئذ، وهو الرضا من آل محمد.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٧.

ويمكن النظر في هذه الحركات عموماً في عدة مستويات :

المستوى الأوّل : أنه يندر من العلويين من يكون موالياً للدولة يومئذ ، من أمويين وعباسيين . فإنّ العاطفة من الجهتين كانت منافية لذلك ، وكانت الدولة تتعمد إبعادهم عن كراسي الحكم من وزارة وقضاء وبيت مال وغير ذلك ، وهذا معناه أنّ نحواً من المقاطعة كانت موجودة .

وكذلك هم لا يشعرون بأهمية الاشتراك في مثل هذا الكيان القائم ؛ لأنهم يعلمون أنّ الدولة غير شرعية ، والظلم موجود . إذن فإذا شاركوا في الدولة ، فسوف يشاركون في الظلم . ولكن يوجد من يتهم تاريخياً بذلك ، وهم قليلون جداً ، كأبي السرايا ، فلعلّه أعان بعض القواد في زمن بني العباس طلباً للدنيا ، وكذلك جعفر الكذاب أو التواب ، فإنّه ذهب إلى المعتمد العباسي وقال له : اجعلني إماماً بعد أخي ! .

المستوى الثاني : أنه من الممكن القول : إن ظاهر أكثر الحركات العلوية ليس هو إقامة الحق والعدل ، بل هو القيام ضد الظلم ، ومحاولة تقليله والكفكفة منه وشجبه ، وذلك لأمرين :

أوّلهما : عدم تجاوب المعصومين ﷺ معهم ، وليس من المستطاع إعلانهم موافقة أي واحد من المعصومين ، فكان الذي يتحرك إنّما يتحرك وحده . وطبعاً سوف لا يكون له نفس الانطباع فيما إذ أعلن كونه مندوباً أو ممثلاً أو مجازاً من قبل أحد المعصومين ﷺ .

وثانيهما : أنّ كل واحد منهم يشعر أنّ حركته مهما كانت واسعة أو قليلة ، فإنها لا تستطيع إسقاط الدولة ككل حتّى لو قتل الخليفة نفسه ، فإنهم يأتون بخليفة بعده . وبمعنى من المعاني أنه حتّى الحسين ﷺ نفسه لم يستطع إسقاط الدولة على عظمته ، فكيف بغيره . إذن فهم مجرد تظاهره بسيطة ، ونيل للشهادة ليس

أكثر من ذلك .

المستوى الثالث: أننا قلنا في (تاريخ الغيبة الصغرى): إنه من الممكن كأُطروحة ، فيما إذا لم نعرف أو شككنا بمعنى من المعاني في نوايا العشرات من المتحركين والثوار بعد الحسين عليه السلام إلى زمن الغيبة الصغرى ، فلا نعلم أنهم هل كانوا مخلصين أم لا . فما هو المحك في معرفة إخلاصهم ؟ فيمكن أن نقيم قرائن خارجية كمدح التاريخ له ، مثل أنْ يكون زاهداً أو كان ورعاً أو عادلاً ، فلابأس بذلك . ولكن يوجد هناك محك مختصر ومفيد ، وحاصله : أنّ جملة من الثورات والدعوات دعت إلى الرضا من آل محمد . فإنّه لا يدعو إلى نفسه ، وإنّما يرمز بذلك إلى الإمام الذي في عصره ، فهو لا يريد أن يحرجه .

فإذا شاء الله تعالى له التوسع فلربما يتصل بالإمام عليه السلام ، وأمّا إذا قتل فينال الشهادة وينتهي الحال ، فلا يصل السوء إلى المعصوم عليه السلام . فمن ادّعى أو اعلن هذا الشعار أو هذا الهدف فهو مخلص ، وأما من لم يعلن هذا الشعار وهذا الهدف فتبقى للمسألة فيه مشكوكة .

المستوى الرابع: أنّ بعض هؤلاء الثوار المتحركين من العلويين مارسوا الحكم فعلاً ، من قبيل صاحب طبرستان وغيره . فجملة منهم ليسوا على تربية المعصومين عليهم السلام . فإنهم مارسوا الحكم والفتوى وصلاة الجماعة وإقامة الحدود والقضاء بدون إذن المعصوم عليه السلام ، فمن الذي أذن لهم بالولاية العامة ؟ فهل له ولاية عامة بصفته مجتهداً مثلاً أو ربما بالعنوان الثانوي فإنّه يرى أنه لو لم يمارس الحكم أو الولاية لتسيب المجتمع ، واضطر إلى التنازل عن الحكم ، فيمارس الحكم شكلياً . فيغلب على الظن ان جملة منهم فيهم هذا النحو من قلة التفقه ، وهم قلة .

اللهم ألاّ أن يكونوا قد اتصلوا بشكل غير منقول تاريخياً ، أو بشكل سري بالأئمة عليهم السلام . فلا بأس بها كأُطروحة ، وخاصّة أنّ هذا الاحتمال نفسه ينطبق على كثير

من المتحركين، سواء حكموا أم لم يحكموا. فإنّه حتّى لو لم يحكم، فماذا كان يفعل لو حكم؟ فهو عازم على ممارسة الولاية، فيكون الحال أنّ الإشكال سار إلى عدد معتد منهم.

ولكن في الإمكان أن يدفع الإشكال، بأن نقول: إنّ أولئك الذين أعلنوا الرضا من آل محمد، قد اتصلوا بالإمام بشكل غير منقول تاريخياً. وأما بالنسبة إلى من لم يعلن هذا الشعار فتبقى نقطة فارغة لا نستطيع أن نملأها.

المستوى الخامس: أما أنّ بعض الثوار كان فعلاً على اتصال بالمعصومين عليهم السلام، ولعلهم أذنوا لأمثال هؤلاء سراً لأجل وجود مصلحة أكيدة في التحرك الشيعي ضد الظلم من حيث لا يكون انتسابه إلى المعصومين عليهم السلام موجوداً. ومن أوضح مصاديقه زيد بن علي عليه السلام فإنّه ابن إمام وأخو إمام. وكذلك صاحب فخ الذي كان في غاية القدس والتقوى، وتمثل واقعته بطف كربلاء، لا يفرق عنها إلّا بشخصية الحسين عليه السلام.

المستوى السادس: رويت عن زيد بن علي هذه الرواية: أنه سئل عن الأعلم هو، أو محمد بن علي الباقر عليه السلام فاجاب: «ان عندي علم وعنده علم، وهو يعلم كلّ ما أعلم، ولا اعلم كلّ ما يعلم»[1] أو نحو ذلك. وهو وإن كان شهادة له بالأعلمية، إلّا أنه جواب فيه التفاف وتعمد بعدم التصريح. فما السبب في ذلك؟ وإذا كان زيد نفسه هكذا، وهو المعاصر والمعاشر للمعصومين عليهم السلام فكيف بغيره؟ وليس من العيب عليهم أن يكونوا دون المعصومين عليهم السلام حتّى لو عرف الناس ذلك.

وعلى كل حال فلو صحت الرواية وأمثالها، فإنما يراد بها الإعلام، أي حفظ السمعة العالية للفرد القائد لهذه الحركة أو تلك. وهو بالعنوان الثانوي وإن كان معقولاً وذا مصلحة وقتية، إلّا أنه بالعنوان الأولي يصعب استساغته شرعاً.

المستوى السابع: أنه يمكن القول: إن الإمام زين العابدين عليه السلام بالرغم من سلوكه

---

(١) لم نعثر على المصدر.

مسلك التقية المكثفة وعدم التعرض للجهاز الحاكم لا بالقليل ولا بالكثير. إلّا أنّ عاطفته بينه وبين الله تعالى لم تكن كذلك بطبيعة الحال، فهو الموتور بأبيه وبأهله ونحو ذلك من الأُمور. فكيف يستطيع أن يرضى عن الناس الذين قتلوا أهله؟ فيمكن أنّه قدم ولده الذي هو زيد كثائر ضد الأمويين، ورفع الصوت بمناوئتها وشجبها. ومع ذلك فهو لم يتخل عن مسلكه ذاك، ولم يدعه بصراحة. إلّا أنه كان يستطيع أن ينهاه، ولو نهاه لانتهى. ولكنه سكت عنه على أقل تقدير.

بقي الإلماع إلى شيء بالنسبة إلى هؤلاء العلويين، عن إلقاء أنفسهم بالتهلكة وعدم عملهم بالتقية. مع أنّ جلهم بل كلهم لا يأتي فيهم الجواب الذي ذكرناه في كتاب (أضواء على ثورة الحسين عليه السلام) من أنه تلقى الأمر بذلك من جده صلى الله عليه وآله، أو من الإلهام. وأصحابه تلقوا الأمر منه وهذا يكفي.

وبالرغم من أننا قلنا هناك: إن خاصّة الأئمة عليهم السلام كان لهم الإلهام كمسلم بن عقيل عليه السلام والعباس عليه السلام، إلّا أنّ هؤلاء جلهم، بل كلهم ليسوا كذلك. ألاّ أنه من الممكن أن يقال عنهم عدة أُمور:

أوّلاً: أنّ دليل التقية الآن مشتهر، وأمّا في ذلك الحين فلم يكن معروفاً. وحتّى لو صدر في زمان الصادقين عليهما السلام، فإنما هي كلمات بين أُناس في مجلس مختصر، فليس بالضرورة أن تصل إلى أنحاء العالم الإسلامي أو كل الشيعة. فإذا لم يكونوا مسبوقين بالتشريع بالتقية فهم معذورون. فمن هذه الناحية يتصرفون على حريتهم.

ثانياً: أن يقال: إنّ حكم التقية في الشريعة مخير بين التقية والتضحية، وليس التقية بعنوانها واجبة. بل في الإمكان أن يضحي الانسان وفي الإمكان أن يتقي. كما ورد أنه قبض على اثنين وطلب منهما البراءة من أمير المؤمنين عليه السلام، فبرئ أحدهما وسلم من القتل، ولم يبرأ الآخر فقتل. فلما وصل خبرهما إلى الإمام عليه السلام قال: «أمّا الذي برئ فرجل فقيه في دينه، وأمّا الذي لم يبرأ فرجل تعجّل إلى

الجنة»[١]. فإنّه صلى الله عليه وآله مدح كلا الرجلين، وهذا معناه أنّ كلا العملين مشروع في الدين.

ولكن هذا الوجه قابل للمناقشة، فإنّ هذا المورد لا ينطبق على حال هؤلاء؛ لأنه خاص بمن دخل تحت البلاء والضغط، لا من يسير في هذا الطريق باختيار نفسه.

ثالثاً: أنّ هذه الحركات والثورات مهما اتسعت أو ضاقت فإنها مقرة من قبل المعصومين عليهم السلام، وأقرارهم حجة. وذلك لوضوح أنهم لم يكونوا ينهون عنها.

وسكوتهم فيه عدّة مبررات:

منها: أنّ الفرد في الدنيا ينبغي أن يوكل إلى أعماله وإلى قناعاته حتّى يصل إلى جزائه الذي يريده الله تعالى له. فهو ضروري لأجل وصولهم إلى النتائج التي ينبغي في علم الله تعالى الوصول إليها. وهذا مبرر كاف لسكوت الأئمة عليهم السلام عن هؤلاء. وكل واحد يحشر على نيته وعمله.

ومنها: أنه لعل في رضاهم النفسي عليهم السلام أن يتصدى جماعة إلى شجب الظلم، والحركة ضده، ومقارعته. بشرط أن لا يكون من تكليفهم. فهم راضون لوجود هذا الشيء تكويناً.

ومنها: أنهم عليهم السلام لو كانوا نهوهم لكان هذا تأييداً لدولة الأمويين والعباسيين. وهو ممّا لا يرضون بحصوله منهم.

رابعاً: أنّ الفرد منهم كان يستعظم الهدف الذي يريده ويقدمه في التزاحم على حكم التقية. مثل التوابين والمختار. ويمكن أن نفهم ذلك لكل من دعا إلى الرضا من آل محمد بعنوان أنه يعتقد أنّ هدفه هو إرجاع الحق إلى أهله لو وفق إلى النجاح. وهذا هدف جليل جداً، فمن هذه الناحية يقدمه على التقية في مقام التزاحم والتعارض.

---

(١) الكافي ٢: ٢٢١.

علاقة الحسين عليه السلام بالسجّاد وزينب عليهما السلام

أما الآن فينبغي أن نتحدث عن علاقة الحسين عليه السلام بزين العابدين عليه السلام ، وزينب بنت علي عليه السلام . وهذا شامل لحال حياته ، أعني في واقعة الطف ، وبعد شهادته ، أعني الدور الذي أدياه بعد ذلك .

ونبدأ بالامام زين العابدين عليه السلام . فالأسئلة التي ترتبط ببحثنا هذا كما يلي :

السؤال الأوّل : لماذا حضر واقعة الطف مع العلم أنه كان مريضاً لا يجب عليه الجهاد ؟ فمن المعقول أن يترك في المدينة المنورة ، كما بقي محمد بن الحنفية ، وعبد الله بن جعفر وغيرهما .

وجواب ذلك من عدة وجوه :

أوّلا : أنه ربما تمرض خلال السفر ، ولم يحملوه مريضا من المدينة . وليس له فرصة الرجوع بطبيعة الحال .

ثانياً : أنه صحبهم ليحصل على ثواب الوزارة لأبيه وإمامته في مصاعبه وبلائه ، وإن لم يشاركه في شهادته .

ثالثاً : أنّ النتيجة كانت معلومة للحسين عليه السلام فقد أخذه ليكون الرجل الوحيد في الركب بعد الشهادة ويمارس الإشراف والولاية عليهم .

رابعاً : أنّ النتيجة كانت معلومة للحسين عليه السلام فقد أخذه ليكون اللسان الناطق بعده ، ويمارس الدور الإعلامي المكثف الذي مارسه فعلاً ، ولولا هذا الدور

الإعلامي لانطمست ونسيت قضية الحسين عليه السلام ، وكان المخطط لها أن تبقى ولا تنسى . وقد تكفل لها اثنان رئيسيان هما السجاد وزينب سلام الله عليهما .

السؤال الآخر : ورد أنّ الامام زين العابدين عليه السلام طلب من عمته سيفاً ليقاتل مع أبيه الحسين عليه السلام . فقال الحسين عليه السلام لأُخته : « **خذيه لئلا تبقى الأرض خالية من نسل آل محمد صلى الله عليه وآله** »[١] ويراد بهم المعصومين عليهم السلام ، وإلّا فنسل آل محمد حفظ في الأطفال الذين تفرقوا في البلاد . ولكن المفروض أنّ السجاد عليه السلام إذا خرج للقتال فإنّه يقتل لا محالة ، وإذا قتل انقطع نسل المعصومين عليهم السلام ، في حين أنه في علم الله تعالى أن يولي اثني عشر إماماً معصوماً عقبا بعد عقب . ولا يمكن انقطاع الأُبوة منهم ، ولذا أمر الحسين عليه السلام بذلك .

ويرد عليه : أنّ المروي أنّ الامام الباقر عليه السلام كان في واقعة الطف موجوداً[٢] . بمعنى أنّ الإمام السجاد عليه السلام كان متزوجاً ، وله ولده الأكبر وهو محمد الباقر عليه السلام . إذن فإذا قتل الإمام زين العابدين عليه السلام لم تنقطع سلسلة المعصومين عليهم السلام لوجود الإمام الباقر عليه السلام على سطح الأرض .

وجوابه من عدة وجوه :

الوجه الأوّل : الطعن بالخبر الثاني سنداً ، وهو وجود الامام الباقر عليه السلام في كربلاء ، فنقول : إنه لم يكن مولوداً ، فإنّ الخبر ضعيف وشهرته المتأخرة لا تقتضي مطابقته للواقع . وعلى أي حال فهذا يحتاج إلى بحث تاريخي لا يدخل ضمن منهجنا .

الوجه الثاني : أنّ المراد إبقاء الإمام السجاد عليه السلام ليمارس الامامة بعد أبيه الحسين عليه السلام ، فإننا وإن كنا نعلم أنّه لا فرق في أهل البيت عليهم السلام بين الصغير والكبير . إلّا أنه من الصعب تحمل الشيعة يومئذ وقبولهم بإمامة الباقر عليه السلام وهو ابن ثلاث

---

(١) بحار الأنوار ٤٥ : ٤٦ .

(٢) انظر : تاريخ مواليد الأئمة : ٢٥ .

سنوات تقريباً ، فلابد من بقاء السجاد عليه السلام كشخص كبير يمكن الاعتراف به اجتماعياً .

فإن قلت: انه يمكن للامام تاجيل الاعلان عن امامته إلى ان يكبر بالسن ثمّ يعلن امامته .

قلنا: إنّ المجتمع عامة والشيعة خاصّة بحاجة إلى الإمام دائماً. كما يمكن أن نلتفت إلى أنه لو حصل ذلك لم يبق أحد يشير إليه أو يدعو له بعد موت جده وأبيه ، فإنّ كل إمام قد نص عليه الإمام الذي قبله . وأما في هذه الصورة فسوف ينقطع النص ، وهي مسألة خطرة ينبغي التخطيط لإزالتها كما حصل . وهو أمر سهل لهم يكن يحتاج أكثر من المحافظة على حياة الإمام زين العابدين عليه السلام ، ليمارس نشاطه ويشير إلى إمامة ولده الباقر عليه السلام بعد حين .

الوجه الثالث: أن يراد الحفاظ على حياة الإمام السجاد عليه السلام لكي يمارس الدور الذي مارسه بعد شهادة أبيه الحسين عليه السلام . ولن تستطيع زينب عليها السلام ولا الباقر الصغير أن يقوما بما قام به الإمام السجاد عليه السلام .

فإن قلت: أنّ هذا لا يبرر عبارة الحسين عليه السلام بتلك الرواية ؛ لأنه بقي ليس لأجل حفظ النسل ، وإنّما للأداء الإعلامي . والمفروض أنّ الباقر عليه السلام موجود .

قلنا: إنّ هذا يجاب بأحد وجهين :

١ ـ الطعن بسند الرواية التي أثارت الإشكال ، ونقول بأنّ السجاد عليه السلام لم يحاول الخروج إطلاقاً ؛ لكونه معذوراً ، ولم ينهه أبوه عن ذلك ، ويكفي أن نلتفت إلى أنّ الخطاب فيها موجه إلى زينب عليها السلام ، وليس إلى السجاد عليه السلام مع أنّ مقتضى القاعدة العكس ، فهو الذي ينبغي أن يتصدى للكلام مع ولده .

٢ ـ أن نؤول هذه الرواية ، فانقطاع النسل ليس انقطاعاً مادياً أو نسبياً ، بل الانقطاع المعنوي بأحد الأشكال التي ذكرناها فيما سبق ، من حيث إنّ استمرار وجود الإمام السجاد عليه السلام كان ضرورياً لممارسة الإعلام بعد الحسين عليه السلام ، وممارسة الإمام بعده

مادام ولده صغيراً وممارسة الإشارة إلى ولده بعده. وكل ذلك سوف ينقطع تماماً لو قتل السجاد عليه السلام، وينسى الحسين عليه السلام وينسى الإمام الباقر عليه السلام نفسه. اذن، فالمراد من الحفظ المعنوي وليس المادي.

وفي حدود فهمي أنّ السجاد عليه السلام يفهم هذا المعنى، والحسين عليه السلام أيضاً يفهم هذا المعنى. فلو كان هذا الموقف أمام الناس يمكن أن نقول بأنه يعطي مثالاً للآخرين في نصرة الحسين عليه السلام ويسقط ما في ذمته بأنّ ينهاه الحسين عليه السلام. ولكن هذا قد حصل بين خاصّة الخاصة، فقيامه ليس فيه جانب إعلامي، وهذا في نفسه استبعاد لصحة الرواية.

السؤال الآخر: قد يرد إلى الذهن في تفسير ما روي من أنه كان كثير البكاء بعد واقعة الطف، حتّى كان يمزج طعامه وشرابه بالدموع، ويذكر أباه وشهادة من معه بكل مناسبة ونحو ذلك.

مع العلم أننا يمكن أن نلتفت إلى أمرين:

الأول: أنّ المعصومين عليهم السلام ليس لهم عواطف دنيوية؛ لأنّ اهتمامهم بالدنيا ساقط بالمرة. ولامعنى للبكاء بدون عاطفة.

الثاني: البكاء لامعنى له؛ لأنّ ثورة الحسين عليه السلام موجبة للاستبشار. فالحسين عليه السلام وفق إلى توفيق عظيم، ورزق مثل هذه الشهادة. فينبغي أن نفرح للحسين عليه السلام. وكذلك أصحابه نالوا الشهادة والسعادة أيضاً. فإننا نسعد بسعادتهم، ونرضى لهم هذا المقام الكبير، فلا تحتاج المسألة إلى بكاء.

نعم، إنّ الاستبشار الذي قلناه للحسين عليه السلام وأصحابه لا يعني أنّ يزيد قد فعل فعلاً حسناً، وإنّما يعني أنّ الله تعالى فعل الفعل الحسن. فالله تعالى حكيم ومدبر وهذا من حسن تدبيره. وهذا لا ينافي أنّ المخلوق معاتب على جرائمه وأعماله.

جوابه: لو لاحظنا هدف الحسين عليه السلام الشخصي الذي يرتبط بمصلحته

الشخصية ، فهو ليس شيئاً إلّا طاعة الله سبحانه . وأما إصلاح المجتمع وهداية الناس فإنّ الحسين عليه السلام يعلم بها ويريدها ، لكنه لا ينبغي أن نقول : إنه يهتم بها ، فإن الله تعالى هو الذي يهتم بالمجتمع . فهو يريد أن يهدينا عن طريق قتل الحسين عليه السلام . فإذا نظرنا إلى هدف الحسين عليه السلام الشخصي ، فينبغي أن نستبشر ؛ لأنه وصل إلى هدفه . ولكنه إذا نظرنا إلى هدف الله تعالى في حركة الحسين عليه السلام ، أو قل من توجيه الأمر إليه بالقيام بهذه الحركة . فإنّه بحسب ما نعرف فإنّ ذلك مربوط بمصلحة الأجيال الآتية من المسلمين بعد واقعة الطف . يعني أنه قتل من أجل هدايتنا ومصلحتنا .

وهذه الهداية تتوقف على جانبين :

١ ـ جانب عقلي .

٢ ـ جانب نفسي .

فإذا تمت السيطرة عليهما بعون الله تعالى ، فقد تم الأمر وأصبح الفرد من المهتدين .

ولا يمكن الاكتفاء باحد الجهتين دون الأُخرى ؛ لأنّ ذلك يستلزم نقضاً كبيراً جداً ، ومن ثم لا يترتب ما هو المطلوب من الهداية للفرد والمجتمع والأجيال .

أما الجهة العقلية ، فقد مارسها وغذاها السجاد عليه السلام بخطبه في الكوفة والشام ، وتعاهدها بعده المعصومين عليهم السلام بكثير من الأقوال والتوجيهات .

وأما الجهة النفسية ، فهي لا تكون إلّا بالبكاء . فالأمر الرئيسي والأفضل هو توجيه المجتمع إلى البكاء ، والنفس هي مركز العواطف . والعواطف مشروعة ومفهومة اجتماعياً لدى الجميع . والعواطف الصعبة أكثر تاثيراً في التربية من العواطف السهلة أو المفرحة . وأول من نفذ البكاء هو السجاد عليه السلام ، فهو يعلم بهذه المصلحة وهذه التربية وهذه الهداية الناتجة عن البكاء .

وقد كان أولى من يقوم بذلك وأن يبدأه هو الإمام السجاد عليه السلام ، وليس النساء ؛

لأن بكاء النساء في نظر المجتمع أمر متدنٍ ومؤقت ومفروض. وإنّما لا بدّ أن يقوم بذلك الرجال، وان يتصدى له شخص عظيم وزعيم مثل السجاد عليه السلام ليشتهر بالتدريج بين الناس، فيكون سبباً للتربية والتكامل في الأجيال.

مضافاً إلى أنّ السجاد عليه السلام لم يكن قادراً على أنْ يعارض الدولة؛ لأنه في تقية مكثفة، لكن هناك مستمسك يمكن التركيز عليه ضد الجهاز الحاكم، من دون أن يكون غير مشروع في نظرهم. فهو يبكي على أهله، وهذا جعله من نقطة قوة من هذه الناحية؛ لانه من الطبيعي اجتماعياً أن يبكي كل أحد على أهله. فهذا نحو من الطعن فيهم من حيث لا يستطيعون النقاش، وهو يدرك هذا المعنى بكل تاكيد.

وهذا لا يحصل ببكاء يوم أو يومين، بل بممارسة ذلك طول عمره. ولم يقصر في ذلك عليه السلام، بحيث يعرفه كل الناس بهذه الصفة. حتّى عد من البكائين الخمسة من البشر كلهم.

وهو لا يبكي على رجل اعتيادي، أو على حركة أو شهادة طارئة، وإنّما يقض بكل دمعه مضاجع الأُمويين وعروشهم، وبالتالي كل المظالم التي خرج الحسين عليه السلام لقمعها وشجبها وإصلاحها إلى يوم القيامة.

السؤال الآخر: إن هذا البكاء صوري مجرد لإطاعة الله تعالى. فكيف يستطاع البكاء الصوري؛ لانه خارج عن القدرة البشرية؟ أو بتعبير آخر: أنه من أين يأتي بالبكاء وسبب البكاء، إذا كان لمجرد المصلحة العامة؟

جوابه: أنّ الله عنده أمر تشريعي، وأمر تكويني. فالأمر التشريعي هو أن يأمر الإمام بالبكاء. وأما الأمر التكويني فهو أن يعطيه التوفيق والعاطفة الكاملة لتنفيذ امره التشريعي، وإقداره على البكاء. فهدف الله من وراء كل ذلك هو هدايتنا وتربيتنا.

السؤال الآخر: إنّ الائمة عليهم السلام، قد تعلقت قلوبهم بالملأ الأعلى ـ كما يعبرون ـ وحينئذ إذا انشغل الإنسان بالبكاء فهل ينسى الله تعالى؟ فإنّ هذا قد يكون حجاباً

بينهم وبين الله تعالى.

وهذا السؤال بعينه وبفكرته فيه سؤال مشهور عن عمل أمير المؤمنين عليه السلام. وهو أنه كيف تصدق الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الصلاة؟ وهل هذا إلّا حجاب وعمل أو التفات دنيوي؟ والمفروض أنه متوجه بكل وجهته في الصلاة إلى الله تعالى.

فاذا عملنا أنّ الأئمة عليهم السلام دائماً في صلاة ودائماً في ذكر ودائما في عبادة. فأي التفات عن ذلك الموقف يضرهم ويكون حجاباً بينهم وبين الله تعالى، ويمكن الجواب على ذلك بجوابين: أحدهما نقضي والآخر حلي.

أمّا الجواب النقضي: فبأن نعطيه صورة مشابهة ونسأله ماذا تجيب؟ فكما تجيب هناك نجيب هنا.

فكل الأنبياء كانوا كذلك. أوليس قد فكر رسول الله صلى الله عليه وآله بالأصنام فكسرها؟ أوليس فكر بعشيرته الأقربين ودعاهم؟ أوليس قد حارب أعداء الإسلام؟ أوليس قد جعل حياته في مصلحة المجتمع؟ فماذا تقول؟ هل هذا حجاب؟ كلا بكل تأكيد، فلا نستطيع أن نعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله، فما تقوله هناك نقوله هنا. وكل الأنبياء كذلك. فإبراهيم عليه السلام بنى الكعبة، ودعا أن تكون له ذرية، وقد بشرته الملائكة بالذرية، وأراد أن يذبح ولده، ونحو ذلك من الأمور. فهل هذه حجب؟

وأما الجواب الحلي الذي يشمل كل هذه الأمور فيكون على عدة مستويات:

المستوى الأوّل: أنّها إطاعة لله تعالى. وأما في المورد الذي لا يكون فيه إطاعة لله تعالى فإنّه يكون حجاباً. ولكن إذا كان هناك أمر وتوجيه ودفع من الله تعالى إلى شيء ما، فلا يكون حجاباً. فإنّه يضحي في سبيل الله تعالى بنفسه وبارتفاعه فينزل ويتدنى في سبيل طاعة الله تعالى.

المستوى الثاني: أنّ السائل يفترض أنّ هذه الأمور تضرهم بالاصطلاح الباطني. فنقول: إن هذه الأمور لا تضرهم إطلاقاً؛ وذلك لأنهم أعلى مستوى من أن تضرهم.

فالدنيا بالنسبة لهم بمنزلة الصفر لا تنفعهم ولا تضرهم. كما قال الشاعر:

يسقي ويشرب لا تلهيه سكرته ... عن الشراب ولا يلهو عن الكأس[١]

المستوى الثالث: أنّ السجاد عليه السلام أدنى مستوى من أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأن أمير المؤمنين عليه السلام إمام الأئمة، وخير الأئمة، وليس غيره من قد نزلت فيه: ﴿**وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ**﴾[٢]، وقد ورد عن الإمام السجاد نفسه قوله: **«ومن يقوى على عبادة علي بن أبي طالب»**[٣].

فمن الممكن أن يقال: إنّ تكليف السجاد أدنى من تكليف أمير المؤمنين عليه السلام إذن، فمن الممكن القول: بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام يعاتب على هذا المقدار من الحجاب لو كان حجاباً، وأما السجاد فلا. وإذا لم يكن معاتبا عليه، إذن فهو محض الطاعة والثواب؛ لأنه أحد الطاعات الظاهرية العظيمة بكل تأكيد.

المستوى الرابع: أنّ الأئمة عليهم السلام عموماً كانوا مبتلين بحفظ الظاهر ومعاشرة الناس، وكان واجبهم ذلك. فاللازم لهم تحمل الحجاب لو كان حجاباً. أو قل هو من الذنوب الدقية الواجبة عليهم بحسب تكليفهم الدقي الخاص بهم أيضاً. كل ذلك تضحية منهم في سبيل الآخرين من أجل هدايتهم، وقضاء حوائجهم وضمان طاعتهم لله عز وجل. والله سبحانه أمر الأئمة عليهم السلام بذلك لأجل ذلك، وعليهم التنفيذ كما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالرسالة والتبليغ.

وعلى أي حال، فالمتشرعة الذين يسألون هذا السؤال بعنوان أنّ البكاء حجاب السجاد عليه السلام، عليهم أن يفسروا سائر تصرفاته، بل وتصرفات المعصومين عليهم السلام، بل ورسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) الصراط المستقيم ١: ٢٦٤.

(٢) آل عمران: ٦١.

(٣) الإرشاد ٢: ١٤٢، مكارم الأخلاق: ٣١٨.

أما كلامه في التوجع والتفجع على واقعة الطف ، فهي للجانب الإعلامي المستمر ، والذي فيه كلا الهدفين أيضاً .

وقد وجدت في بعض كتب التراجم من العامة في ذكر السجاد عليه السلام ومناقبه : أنه كان حافظا لأسرار الله تعالى ، ويستدل على ذلك بقوله عليه السلام :

انـي لأُكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى الحقّ ذو جهل فيفتتنا
ورب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا[١]

فالناس غير مؤهلين لتحمل السر ، وسوف يكون رد فعلهم ضد السر وضد صاحب السر .

(١) ينابيع المودّة ١ : ٧٦.

العقيلة زينب بنت علي عليها السلام

الأمر الآخر الذي أُريد الدخول به هو التعرض إلى الأُمور المربوطة بأُخته العقيلة زينب بنت علي عليها السلام . فإنّ عدداً من الأسئلة يخامر الذهن بالنسبة إليها ، يحسن عرضها ومحاولة الجواب عليها .

وأول سؤال يواجهنا في هذا الصدد عن أصل وجودها ، فإنّه قد يشكك حتّى من هذه الجهة . ويقول المستشكل بأنها لم يوجد لها ذكر قبل واقعة كربلاء . ومن هنا فمن الراجح أنْ تكون شخصية وهمية ، وأن الحوادث المنسوبة إليها إما مكذوبة ، أو حاصلة من نساء عديدات ونحو ذلك . وقد حصرت في شخصية نسوية واحدة من قبل بعض المفكرين الشيعة القدماء ، لزيادة المصاب تطبيقاً لما ورد : **« أنّه من بكى أو أبكى أو تباكى وجبت له الجنة »**[1] . يعني حتّى بالسبب الكاذب حسب ما يفهمون من إطلاق هذه العبارة ، أو باختلاق شخصيات وهمية .

ويدعم السائل سؤاله بعدة أُمور :

أوّلاً : أنه لم يردنا تاريخ ولادتها ، ولا حوادث الولادة ، بينما وردت بالنسبة إلى الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام شقيقيها مفصلاً . فتوجد فيها روايات مطولة ومختصرة ، في حين انها لم توجد لولادتها ولا لتربيتها ولا لطفولتها .

ثانياً : لم يرد ذكر لها في عائلة علي وفاطمة خلال وجودهم في المدينة المنورة .

---

(١) كامل الزيارات : ٢٠٩ ، باختلاف يسير .

فمن جملة الروايات التي تدل على ذلك، رواية التصدق وإطعام الطعام. فلا يوجد في هذه الرواية ذكر لزينب عليها السلام، ولو كانت لبانت.

ثالثاً: لم يرد لها ذكر في وفاة أُمها الزهراء عليها السلام. فتوجد عدة روايات بألسنة مختلفة تصف وفاة الزهراء عليها السلام: «فكانت أسماء موجودة إلى جانبها، فقالت لها الزهراء عليها السلام: **انتظريني هنيهة ثمّ ادعيني، فإن أجبتك وإلّا فاعلمي إنّي قد قدمت على أبي**، فانتظرتها هنيهة ثمّ نادتها فلم تجبها، فنادت: يا بنت محمّد المصطفى، يا بنت أكرم مَن حملته النساء، يا بنت خير من وطأ الحصا، يا بنت مَن كان من ربّه قاب قوسين أو أدنى، قال: فلم تجبها، فكشفت الثوب عن وجهها، فإذا بها قد فارقت الدنيا، فوقعت عليها تقبّلها وهي تقول: إذا قدمت على أبيك رسول الله صلى الله عليه وآله فاقرئيه عن أسماء بنت عميس السلام، فبينما هي كذلك دخل الحسن والحسين فقالا: **يا أسماء، ما ينيم أُمّنا في هذه الساعة؟** قالت: يا بني رسول الله، ليست أُمّكما نائمة قد فارقت الدنيا، فوقع الحسن يقبّلها مرّة ويقول: **يا أُمّاه، كلّميني قبل أن تفارق روحي بدني**، قال: وأقبل الحسن يقبّل رجلها ويقول: **يا أُمّاه، أنا ابنك الحسين، كلّميني قبل أن يتصدّع قلبي فأموت**، قالت لهما أسماء: يا بني رسول الله، انطلقا إلى أبيكما عليّ فأخبراه بموت أُمّكما، فخرجا حتّى إذا كانا قرب المسجد رفعا أصواتهما بالبكاء، فابتدرهم جميع الصحابة، فقالوا: ما يبكيكما يا بني رسول الله لا أبكى الله أعينكما، لعلّكما نظرتما إلى موقف جدّكما صلى الله عليه وآله فبكيتما شوقاً إليه؟ فقالا: **لا، أو ليس ماتت أُمنا فاطمة**...»(١)، فأين زينب من هذه الرواية؟ فلا يناسب أن تكون موجودة؟

رابعاً: لم يرد نقلها من المدينة إلى الكوفة حينما خرج أمير المؤمنين عليه السلام بعائلته إلى الكوفة، بينما كان الحسنان معه أكيدا، وقد ذكرا.

خامساً: لم يرد ذكرها خلال معيشتهم في الكوفة.

---

(١) كشف الغمّة ٣: ١٢٣.

سادساً: لم يرد ذكرها عند وفاة أبيها وبعدها، مع أنّ الروايات متوفرة في نقل تاريخ الوفاة وتذكر التفاصيل جميعاً.

سابعاً: لم يرد ذكرها في زمن إمامة أخيها الحسن عليه السلام إلى حين وفاته وبعد وفاته.

ثامناً: لم يرد ذكرها في عصر إمامة الحسين عليه السلام وجميع إرهاصات ومقدمات واقعة الطف. وإن كان الشعراء في مثل ذلك يتعرضون لها، إلّا أنّ المهم ليس هو الشعر، بل النقل والرواية التاريخية.

تاسعاً: لم يذكر لها شخص حين سافر الحسين عليه السلام إلى كربلاء إلى حين وصوله، بل حتّى من قبل البدء بالحرب. وإنّما ذكرت خلال الحرب وما بعدها.

عاشراً: تحدث التاريخ إجمالا واحتمالاً عن زواجها بعبد الله بن جعفر، وذريتها الذين قتلوا في الطف، ولم يرد من ذلك خبر أكيد.

حادي عشر: من الواضح لدى الأجيال المتأخرة أنّها مدفونه في الشام، إلّا أنّ هذا ليس أكيداً أيضاً، أعني في حدود هذا السؤال. فنحن لا نعلم بحجة شرعية تاريخ وفاتها ولا محلها، ولا موقع قبرها.

لم ير عنها في المدينة إلّا خبر واحد، وهو وصية الزهراء عليها السلام لها في أن تقبل الحسين عليه السلام في صدره، وتشمه في نحره، إذ رأته وحيداً فريداً. وهو نحو من تأييد الزهراء عليها السلام لموقف ولدها الحسين عليه السلام أرسلته باليد الأمينة.

ولم يرد عنها في الكوفة إلّا رواية واحدة أيضاً، وهي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يذهب بها إلى المسجد ليلاً، ويخفت القناديل لكي لا يرى الرجال خيالها.

فما هو الرأي الحاسم بعد كل هذه التفاصيل؟ فعلينا أوّلاً أنْ نثبت وجودها بأدلة، ثم نبين السبب الذي جعل ذكرها لم يرد.

وجواب ذلك من عدة مستويات:

المستوى الأوّل: نصوص التاريخ بوجودها أصلاً، وهي مذكورة في المصادر

القديمة. وقد جرت العادة في مثل هذه المصادر أنه إذا انتهى الكلام عن أي امام من الأئمّة عليهم السلام، أن يقال: إنه توفي في يوم كذا، ودفن في مكان كذا، وله من الأولاد كذا وكذا. فالشيخ المفيد لـه عبارة مطولة عن ذرية أمير المؤمنين عليه السلام، والظاهر أنّها هي نفسها التي نقلها الأربلي في كشف الغمة، في نهاية التعرض إلى مناقب أمير المؤمنين.

قال المفيد رحمه الله: أولاد أمير المؤمنين عليه السلام سبعة وعشرون ولداً ذكراً وأُنثى: الحسن والحسين وزينب الكبرى وزينب الصغرى المكناة أُم كلثوم، أُمهم فاطمة البتول سيدة نساء العالمين بنت سيّد المرسلين محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وآله[1]. إلى آخر ما قال. ومعنى ذلك أنه أثبت اثنين ذكوراً للزهراء عليها السلام إناثاً. وخبره حجة.

قال الأربلي في كشف الغمة: وقال كمال الدين بن طلحة (الفصل الحادي عشر) في ذكر أولاده، إلى أن قال: الإناث: زينب الكبرى وأُم كلثوم الكبرى وأُم الحسن ورملة الكبرى أُم هانئ وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأُم كلثوم الصغرى ورقية وفاطمة[2]...

وذكر قوم آخرون زيادة على ذلك، وذكروا فيهم محسناً شقيقاً للحسن والحسين عليهما السلام، كان سقطاً. فالحسن والحسين وزينب الكبرى وأُم كلثوم، هؤلاء الأربعة من الطهر البتول فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله[3] إلى آخر ما قال.

وقد وجدت ما ينقله عن المفيد في الإرشاد ولعله أقدم نص تاريخي شيعي مضبوط واصل إلينا.

ويقول عمر رضا كحالة في أعلام النساء: زينب بنت علي بن أبي طالب. (يقول في الهامش) شقيقة الحسن والحسين. ثم يقول عنها: سيدة جليلة ذات عقل راجح ورأي وفصاحة وبلاغة. ولدت قبل وفاة جدها بخمس سنين. وتزوجت بابن

---

(١) الإرشاد ١: ٣٥٤.

(٢) و (٣) كشف الغمّة ٢: ٦٨.

عمها عبد الله بن جعفر، فولدت محمداً وعلياً وعباساً وأُم كلثوم وعوناً الأكبر. وحدثت عن أُمها فاطمة بنت محمد، وأسماء بنت عميس. وروى عنها محمد بن عمرو وعطاء بن السايب وفاطمة بنت الحسين بن علي. وصحبت زينب أخاها الحسين لما التقى بجيش عبيد الله بن زياد. فأظهرت من الجزع وشدة الألم ما يفتت الأكباد[١]. ثم يذكر كثيراً من حوادث الطف، وما بعده عدة صحفات ممّا يرتبط بها بصلة.

ثم يقول في الهامش: السيدة زينب لمحمود الببلاوي، وفي الإصابة رواية عن ابن الأثير، إنها ولدت في حياة النبي ص ولم يذكر سنة ولادتها[٢].

ثم قال في آخر كلامه: وينسب إليها في مصر مسجدها، وفي سنة **١١٧٣** جدد بناؤه. وتوفيت نحو سنة خمسٍ وستين، ودفنت بقناطر السباع بمصر ويزار ويتبرك به[٣]. ومصادره: تاريخ الطبري، بلاغات النساء لطيفور، الكامل للمبرد، الإصابة لابن حجر، إسعاف الراغبين لمحمد الصبان، تاريخ ابن عساكر. مضافاً إلى مصدرين حديثين ذكرهما في الهامش هما: السيدة زينب لمحمود الببلاوي، والاعلام للزركلي.

وقال خير الدين الزركلي في الأعلام: زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب: شقيقة الحسن والحسين. تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. فولدت له بنتاً تزوجها الحجاج بن ويوسف. وحضرت زينب مع أخيها الحسين وقعة كربلاء، وحملت مع السبايا إلى الكوفة ثم إلى الشام. وكانت ثابتة الجنان، رفيعة القدر، خطيبة، فصيحة لها أخبار[٤].

---

(١) و (٢) أعلام النساء ٢: ٩١.

(٣) المصدر المتقدّم: ٩٩.

(٤) الأعلام ٣: ٦٦.

ويقول في الهامش عن مصادره: الإصابة، ونسب قريش، وطبقات ابن سعد، والدر المنثور، وجمهرة الأنساب. وليس في هذه المصادر ما يشير إلى مكان وفاتها أو دفنها.

ويقول علي مبارك في الخطط التوفيقية ٥: ٩: تعليقاً على المتداول من أنّ صاحبة الترجمة هي المدفونة في الحي المعروف الآن باسمها في القاهرة: «لم أرَ في كتب التاريخ أن السيدة زينب بنت علي رضي الله عنهما جاءت إلى مصر في الحياة أو بعد الممات»[(١)].

أقول: وأيضاً لا تذكر هذه المصادر دفنها في الشام.

وقال ابن الأثير في الكامل: ذكر نسبه ـ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ـ وصفته ونسائه وأولاده. كان آدم شديد الأدمة ثقيل العينين عظيمهما، ذا بطن، أصلع، عظيم اللحية كثير شعر الصدر، إلى القصر أقرب. وقيل: كان فوق الربعة، وكان ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها، وكان من أحسن الناس وجهاً، ولا يغير شيبه، كثير التبسم. وأما نسبه فهو علي بن أبي طالب واسم أبي طالب عبدمناف بن عبدالمطّلب بن هاشم، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف.

أقول: إنه يوجد احتمال معتد به أنّ اسم أبي طالب هو (عمران)، وذلك لأمرين:

أحدهما: التزام هذا النسل بما فيهم عبدالمطلب نفسه بالحنيفية، وهو لا يعبد أولاده لغير الله تعالى، فلا يسمي ابنه عبدمناف الذي هو اسم صنم.

ثانيهما: أنّ أولاده يكونون مصداقاً للعنوان الوارد في القرآن الكريم: ﴿وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، فيكونون هم الأفضل حقيقة.

ثم يقول ابن الأثير: وهو أول خليفة أبواه هاشميان، ولم يل الخلافة إلى وقتنا

---

(١) الأعلام ٣: ٦٦.

هذا من أبواه هاشميان غيره وغير الحسن ولده ، ومحمد الأمين فإنّ أباه هارون الرشيد ، وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور .

وأما زواجه فأول زوجة تزوجها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ولم يتزوج عليها حتّى توفيت عنده . وكان له منها الحسن والحسين . وقد ذكر أنه كان له منها ابن آخر يقال له : محسن ، وأنه توفي صغيراً ، وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى . ثم تزوج بعدها أم البنين بنت حزام الكلابية ، فولدت له العباس وجعفراً وعبدالله وعثمان ، قتلوا مع الحسين بالطف ، ولا بقية لهم غير العباس (١) .

ويقول محمد فريد وجدي في دائرة المعارف : هي زينب بنت علي بن أبي طالب . كانت من فضليات النساء وجليلات العقائل . كانت مع أخيها الحسين بن عليّ في وقعة كربلاء ، فلما قتل الحسين وكثير من أهل بيته وسلم الباقون ، أخذهم قائد يزيد ، عمرو بن سعيد (ونحن نسميه عمر بن سعد) إلى ابن زياد والي العراق ، وهذا وجههم إلى يزيد . فلما مثلوا بين يديه أمر برأس الحسين ، فأُبرز في طست ، فجعل ينكث ثناياه بقضيب في يده وهو يقول :

يا غراب البين أسمعت فقل ... إنّما تذكر شيئاً قد فعل
ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكت بقباء بركها ... واستحر القتل في عبد الأشل
لأهلوا واستهلوا فرحاً ... ثم قالوا يا يزيد لا تشل
فجزيناهم ببدر مثلها ... وأقمنا ميل بدر فاعتدل
لست للشيخين إن لم اثأر ... من بني أحمد ما كان فعل

فانبرت له زينب بنت علي وكانت في الأسرى ، فقالت له : « صدق الله ورسوله - يا يزيد - حيث يقول : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ**

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ١٩٩.

﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[(١)]. ثم يذكر كلامها وخطبتها كاملة، ثم يذكر خطبة أم كلثوم[(٢)].

ثم يقول بعد ذلك: زينب، هي السيدة زينب بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، كانت من كرائم العقائل، وشريفات الكرائم، ذات تقى وطهر هاجرت إلى مصر وتوفيت بها. ولها قبر يزار في القاهرة[(٣)].

أقول: أريد ان أعلق على هذه الأبيات بعض التعليقات:

يقول: «حين حكت بقباء بركها» البرك هو الصدر[(٤)]، لأن الناقة تبرك على صدرها. فكانه يسخر بأعدائه الذين هم معسكر الحسين عليه السلام؛ لأن الشخص الخائف والجبان يحك بقبائه صدره.

اما قوله: «ليت اشياخي» أشياخه الذين قتلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام ببدر.

وأما قوله: «جزع الخزرج من وقع الأسل» الخزرج قبيلة في المدينة. والحسين عليه السلام ليس من الخزرج، لكنه مدني فيريد أن ينسبه إلى المدينة المنورة.

وقوله: «من وقع الأسل» هو السلاح.

وقوله: «واسنتحر القتل» زاد وتضاعف وتأكد.

وقوله: «في عبد الاشل» كانه يتصور أن رسول الله صلى الله عليه وآله أشل، وأن الحسين عليه السلام عبده.

قوله: «لا تشل» أي يدعون له بأنْ لا تشل يده. ولا يحصل له الشلل.

---

(١) الروم: ١٠.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ٤: ٧٩٥.

(٣) المصدر المتقّدم: ٧٩٨.

(٤) لسان العرب ١٠: ٣٩٧.

وقوله: «وأقمنا ميل بدر فاعتدل» أي كما أنهم قتلونا في بدر، كذلك نحن قتلناهم في كربلاء.

وينبغي الالتفات إلى أنّ هناك اختلافاً في النقل. فإنّه لم يرو المصدر السابق البيت المشهور، وهو قوله:

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحي نزل

وكذلك قد ورد في الإرشاد هذا البيت، وهو قوله:

قد قتلنا القوم من أسيادهم   وعدلناه ببدر فاعتدل

ويمكن أن يقرأ (القرم) الذي هو السيّد العالي الجليل.

وأما البيت الأخير وهو قوله: «لست للشيخين». فإنّ المشهور هو:

لست من خندف ان لم أنتقم   من بني أحمد ما كان فعل

فإنّه لم يقل: «لبني أحمد» لأن هذا معناه أنه ينتقم لأجل بني أحمد، وهو بعيد؛ لأنه لا يدافع عن بني أحمد.

وأما تفسير (خندف) فمتعذر على ما يبدو. فإما أن نقول: إنّ هذا البيت مزاد في الشعر، وإما أن نقول (كأُطروحة): إنّ خندف واحدة من جداته، فهو لا يفتخر بأجداده. وكانه لا شعورياً يعلم أنه ليس من أجداده، وإنّما هو من جداته يقيناً. ويقال: إنه اسم هند آكلة الأكباد، أو إن أصل البيت: «لست من هند إذا لم انتقم».

الشيء الآخر الذي لا يخلو من أهمية، هو أنّ بعض المصادر، ومنها مصادر قديمة ومعتمدة، تصرح بأنّ هذه الأبيات لابن الزبعري[1]. وهذا الانتساب غير مستقيم معنوياً، لأنه لا يوجد أي ارتباط لابن الزبعرى ببدر والانتقام من البدريين. وإنّما ينطبق الشعر فقط على مراد يزيد في واقعة الطف. وكان يزيد شاعراً، له شعر

---

(١) المسترشد، محمّد بن جرير الطبري الشيعي: ٥١٠، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦١.

غير هذا أيضاً ، فلا يبعد أن تكون الأبيات له قالها بنفس المناسبة .

ويمكن أن يقال : إن نسبة الأبيات إلى ابن الزبعرى من الزور ، بقصد إخراج يزيد عن الشهادة بالكفر ، مع كونه خليفة المسلمين في نظرهم . إلّا أننا نلاحظ أن مصادر الإمامية نسبته أيضاً إلى ابن الزبعرى كالإرشاد وغيره .

فإن قلت : إنهم نقلوا ذلك من مصادر العامة من دون تأمل .

قلنا : نعم ، إذا وصل بهم عدم التأمل إلى هذه الدرجة التي لا يلتفتون بها إلى القرائن المتصلة كقوله : « ليت أشياخي ببدر » فهل هم أشياخ ابن الزبعرى ، أم اشياخ يزيد ؟

وقوله : « ثم قالوا يا يزيد لا تشل » فلماذا لم يقل يا ابن الزبعرى لا تشل ، وكذلك قوله : « ببدر » فمن الذي حارب في بدر ؟ هل هم أجداد يزيد أم أجداد ابن الزبعرى ؟ ونحن نجل الشيخ المفيد عن ذلك ، إلّا أن يكون نقله من باب التقية ، وهو يعلم عدم إمكان النسبة .

المصادر التي ذكرت زينب عليها السلام :

نعود الآن إلى المصادر التي ذكرت زينب عليها السلام ، فقد ورد في هامش مقتل الحسين للمقرم وصفها بذلك عن الطبري في تاريخه (٦ : ٨٩) ، وابن الأثير في الكامل (٣ : ١٥٨) ، وفي المعارف لابن قتيبة : أمّا زينب الكبرى بنت فاطمة كانت عند عبدالله بن جعفر فولدت له أولاداً [١] .

وللكاتبة المصرية الملقبة ببنت الشاطئ (عائشة عبدالرحمن) كتاب كامل في ترجمتها يسمى (بطلة كربلاء) . وبنفس الاسم للكاتب المصري المسيحي (جرجي زيدان) في ضمن مجموعة قصصه المعروفة : (روايات التاريخ الإسلامي) التي

---

(١) مقتل الحسين ، للمقرّم : ٣٠٨ .

مزج فيها بين الواقع والخيال.

والظاهر أنه جاء ذكرها الحسن وبعض تفاصيل أمرها في عدد لا يستهان به في كتب العامة والخاصة، بغض النظر عن واقعة الطف. كالعقد الفريد لابن عبد ربه، ومقاتل الطالبيين، ومعالي السبطين، والمعارف لابن قتيبة، والبداية والنهاية لابن كثير وغيرها. وهو عدد كاف جداً لإثبات التواتر بوجودها سلام الله عليها.

المستوى الثاني: المصادر التي ذكرتها في واقعة الطف وقد أشرنا إلى بعضها فيما سبق من كتب العامة، ونذكر الآن قائمة أُخرى، وهي كل الكتب التي تعرضت إلى شرح واقعة كربلاء أو بعضها أو ما بعدها كنقل تاريخي. كمثير الأحزان لابن نما، ومقتل الحسين للخوارزمي، والإرشاد للمفيد، وتذكرة الخواص لابن الجوزي، ورياض الأحزان للقزويني، وينابيع المودة للقندوزي، ومروج الذهب للمسعودي، ومدينة المعاجز للبحراني، ومقتل العوالم للبحراني أيضاً، والمنتخب للطريحي، ومقتل أبي مخنف، والمناقب لابن شهر آشوب، والمناقب للخوارزمي، ونور الأبصار للشبلنجي، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

المستوى الثالث: التلقي جيلاً بعد جيل ذكرها وذكر مواقفها، بحيث تتصل الأجيال بجيل الأئمة عليهم السلام، ويتصل بجيلها التي كانت فيه من دون منكر أو مشكك أو غامز أو لامز، وإنّما كل من يسمع يذعن بذلك من الخاصة والعامة، ومن العلماء والجهلاء، ومن المفكرين والبسطاء ومن كل فئات الناس بمختلف مذاهبهم ومختلف مشاربهم ومختلف ثقافاتهم.

المستوى الرابع: أننا زعمنا في السؤال السابق أنّ ذكرها لم يرد في ما قبل حادثة الطف. لكن هذا قابل للمناقشة، فقد ورد ذكرها متعدداً قبل واقعة الطف كما سوف يأتي.

الوجه في خلو بعض الروايات عن ذكر زينب عليها السلام

بقي الكلام في الأمر الآخر، وهو خلو بعض الحوادث، أو الروايات التاريخية الواصلة إلينا من ذكر اسمها ووجودها. مع العلم أنه كان من المناسب ذكرها حتماً.

وهذا يمكن جوابه على عدة مستويات:

المستوى الأوّل: أنّ مقتضى التعارف الاجتماعي الدنيوي والديني لمجتمعات الشرق، وخاصّة المتقدمة منها في صدر الإسلام، وخاصّة لدى المتشرعين والمتورعين فضلا عن المعصومين عليهم السلام أنفسهم. إنّ ظاهر المجتمع بيد الرجال، وليس للنساء فيه نصيب. وإنّما لهن مجتمعهن وعلاقاتهن الخاصة.

والمهم في ذلك أنّ المراة ينبغي أن تنفصل تماماً عن مجتمع الرجال، ولا تكون تحت الأضواء ولا النقول التاريخية.

فمن ناحية وصول النقل والخبر يكون وجودها كعدمها، لا يعرف أحد عنها شيئاً إلّا خاصتها الذين يعيشون في بيتها وأُسرتها. وأمّا الآخرون فينبغي أن يكونوا جاهلين بها، حتّى بولادتها وطفولتها وشبابها، ما لم تقتض المصلحة أو الحاجة الماسة أو الضرورة الدينية أو الدنيوية ذلك. وإلّا فالأصل هو الخفاء التام لجنس النساء.

ومن الواضح أنّ النقل التاريخي إنّما يحصل في مجتمع الرجال. فمن الطبيعي أن يكون خالياً عن ذكر النساء كائنة من كانت إلّا أقل القليل. ولم يكن الحال على ما هو عليه الآن من بروز النساء، واختلاطهن بالرجال، وتجولهن في الشوارع والمشارع والأسواق، فضلاً عما هو أكثر من ذلك، أعاذنا الله من كل سوء.

فبطبيعة الحال ينتج من ذلك الكتم والتعتيم على كل أخبار النساء من قبل المعصومين عليهم السلام إلّا في حدود ما اقتضت المصلحة نشره.

وممّا يشير إلى ذلك قول من يقول[١]: «كنت في جوار أمير المؤمنين عليه السلام في المدينة مدّة مديدة، وبالقرب من البيت التي تسكنه، فوالله ما رأيت لها شخصاً ولا سمعت لها صوتاً»[٢].

وكذلك الرواية التي تقول: إنّ أباها أمير المؤمنين عليه السلام كان يخرجها إلى زيارة قبر جدّها رسول الله في الليل فيخفت القناديل لكي لا يراها الرجال[٣]. وكذلك الرواية التي تقول: إنّ النبي صلى الله عليه وآله سأل الزهراء قائلاً: **«أي شيء خير للمرأة؟»**، فقالت: **«أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل»**[٤]. فالمعصومون عليهم السلام ملتزمون في جانب نسائهم بذلك.

فإن قلت: إنّ الأمر في الدين ليس كذلك، بل الدين فتح للمرأة فرص العمل ومشاركة الرجل في العمل وفي الحياة وفي الدوائر وفي المحافل. وبدون ذلك تكون المرأة عضواً اشل غير منتج وغير كافل لمصلحة المجتمع.

قلنا: إنّ مسلك الصيانة والخدر مسلك استحبابي أخلاقي، وليس لزومياً، وحاشا للدين ان يعاتب أي شخص اتخذ هذا المسلك له ولأهله. ولا يقول أحد إنّ من يفعل ذلك لنسائه يكون فعله حراماً في نظر الدين وجانياً على المجتمع. وإنّما عامل بالنصيحة الاستحبابية الأخلاقية والرجحان الذي عليه مسلك المعصومين عليهم السلام والمتدينين.

وأدل دليل على ذلك ما روي عن الزهراء عليها السلام حين سألها أبوها عن أفضل صفة للمرأة، فقالت: **«أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل»**. أي حتّى ولو كان من المحارم. وهذا زيادة في الزهد، وهو جانب أخلاقي عالٍ بالنسبة إلى المراة، وليس كل امراة

---

(١) وهو يحيى المازني.

(٢) و (٣) زينب الكبرى، النقدي: ٢٢.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٩.

تستطيع أن تكون كذلك لأنّ فيه رياضة نفسية ، وإعراضاً عن الدنيا . وليس مطلوباً من كل النساء عملياً ، فلا يكلف الله نفساً إلّا وسعها ، وأغلب النساء الآن لا يتحملن هذه الدرجة من الصيانة والخدر .

وقد ذكرنا في موسوعة الإمام المهدي عليه السلام أنّ الإرادة الإلهية ماشية نحو اتجاه إيجاد المجتمع المعصوم ، فسوف يكون المجتمع إمّا معصوماً ، وإمّا بالتربية التي توصله إلى العصمة ، فكيف تكون نساء ذلك المجتمع ؟ فلا بد أن يلتزم ذلك المجتمع بهذه الدرجة من الصيانة .

نعم ، إذا تصورنا المجتمع أنه مجتمع مسلم ، ومطبق للواجبات فقط ، ومبتعد عن المحرمات فقط ، وأما الباقي فقد أطلق لنفسه العنان فيه ، فلا بأس أن تعمل المراة عملاً مناسباً مع وضعها الديني والاجتماعي . فكلا المستويين صحيح ، وكلاهما مأجور عليه صاحبه . ولكن المسلك الأول هو الأعلى والأكثر أجراً .

ولا شك أنّ مجتمع الأئمّة عليهم السلام والمعصومين عليهم السلام الذين عاشوا في صدر الإسلام ، أعني المجتمع الخاص بهم وبعوائلهم ،كانوا يحاولون فيه تطبيق المسلك الأول للدين على أنفسهم رجالاً ونساءً ،كل واحد منهم حسب ما يرى المصلحة لنفسه وعائلته .

وهذا هو السر الذي ندركه للصيانه المكثفة التي أرادها الأئمّة عليهم السلام لنسائهم . وقد طبقوا ذلك على كل نسائهم واحدة واحدة ، وجيلا بعد جيل ، إلّا ما اقتضت المصلحة بخلافه .

ومن هنا يكون من الطبيعي أن لا يوجد ذكر معتد به لولادة أي واحدة من النساء أو طفولتها أو شبابها أو شيبها وحتّى وفاتها ما لم يتسرب الخبر على نحو الصدفة ، أو تكون هناك مصلحة لاتصال المرأة بالناس ، أعني مجتمع الرجال ، كاتصال الزهراء عليها السلام بهم في فترة من حياتها ، واتصال زينب عليها السلام لفترة من حياتها .

ولا ينبغي أن يقول المجتمع : إنكم تطبقون علينا الدرجة الأدنى من الدين . فإننا نقول : إنّ هذا هو استحقاقكم وتحملكم ، بدليل أنكم ترفضون ما نصفه لكم ولا تعتبرونه من الدين ، وترغبون ممارسة الدنيا بكل جوانبها . فإذا قبلتم منا ما نقول فابدأوا العمل على بركة الله سبحانه .

فإن قلت : فإنّ الزهراء عليها السلام تختلف عن سائر نساء الأئمّة عليهم السلام ، حيث نجد أنّ الإعلام عليها كثير ، والأضواء عليها مسلطة ومركزة . وهو على خلاف القاعدة المذكورة .

قلنا : أوّلاً : إنّ القاعدة المذكورة تقول : « لا ترى رجلا ولا يراها رجل » وهذا لا ينافي الجانب الإثباتي أو الإعلامي . فانها لم تقل : أن لا يعرف خبرها رجل . نعم هذا هو اللازم الغالب لذلك ، وليس الدائم .

ثانياً : إن من المصلحة التركيز على شخصية الزهراء عليها السلام ، وليست شخصيتها كسائر الشخصيات إطلاقاً ؛ لأنها سيدة نساء العالمين على الإطلاق . ومن هنا كانت خارجة عن هذه القاعدة أساساً طول حياتها تقريباً . بالرغم من أنّها هي التي قالت : أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل . إلّا أنه (ما من عام إلّا وقد خص) ، وقد خرجت غالب حياتها بالتخصيص .

ويبدو من سياق جملة من الروايات أنّها إذا دقت الباب في بيتها تذهب هي للباب وليس غيرها ، ويمكن أن نقول : إن ذلك أضرها دنيوياً إن صح التعبير ، فسبب في كسر ضلعها وسقوط جنينها ، فمن ذلك حين رأى أبو الأسود الدؤلي أمير المؤمنين عليه السلام وهو يدعو ويبكي يقول : « ثمّ أنعم عليه السلام في البكاء ، فلم أسمع له حسّاً ، فقلت : غلب عليه النوم ، أوقظه لصلاة الفجر فأتيه ، فإذا هو كالخشبة الملقاة ، فحرّكته فلم يتحرّك ، فقلت : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، مات ـ والله ـ عليّ بن أبي طالب ، قال : فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم ، فقالت فاطمة عليها السلام : **ما كان من شأنه ؟**

فأخبرتها ، فقالت : هي ـ والله ـ الغشية التي تأخذه من خشية لله تعالى »[١].

وكذلك عندما أرسل النبي صلى الله عليه وآله بلالاً إلى دار الزهراء عليها السلام ليأتي بالقضيب الممشوق وطرق الباب ، فخرجت إليه الزهراء عليها السلام وأعطته أياه[٢].

وهذا له عدة تفسيرات عديدة : منها : اقتضاء حالها المعنوي ذلك ، وهو القيام بما تكره من باب جهاد النفس . أو قل : التضحية بهذه المرتبة من الصون المركز وهبته لله سبحانه وكمن يضحي بالعزلة في سبيل الله سبحانه .

ونلاحظ أنه ليس غير الزهراء عليها السلام بهذه المثابة ، حتّى زينب عليها السلام إلّا في وقت سبيها ووجودها في الكوفة وفي الشام . وإلّا فهي قبل ذلك وبعد ذلك أيضاً اتخذت مسلك الصون المركز . وأما في تلك الفترة فهي قد أدت مسؤوليتها أمام الله سبحانه باعتبار اقتضاء المصلحة والضررورة لذلك .

المستوى الثاني : لتفسير قلة ورود اسم زينب عليها السلام قبل واقعة الطف : أنّ ذلك حصل على سبيل الصدفة ، فإنّ الأئمة عليهم السلام كانوا يجيبون بمقدار السؤال ، فاذا لم يقع السؤال عن شيء لم يحصل الجواب . وإنّما يقضون حاجات الناس بمقدار أسئلتهم . كما ان المؤرخين كانوا يتفحصون بمقدار إمكانهم ويكتبون ، فإذا لم يعرفوا الخبر لهم يرووه بالتاريخ .

وهذا اكيد ، إلّا أنه راجع في الواقع إلى المستوى الأول . إذ لولا وجود تعمد الكتمان والابتعاد عن المجتمع لما حصل ذلك . ولو فرضنا أنّ نساء المعصومين عليهم السلام نازلات إلى السوق مثلاً والمسجد وغيره ، لحصل الاتصال بهن كثيراً . كما أنه لو كان ديدن المعصومين عليهم السلام النقل عن نسائهم الحوادث والملابسات لحصل النقل كثيراً ،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١ : ٣٨٩.

(٢) الأمالي ، للصدوق : ٧٣٤.

إلّا أنه لم يحصل؛ لأنّ كل هذا متعمد الترك، ومتعمد الفصل بين المجتمع وما بين النساء.

المستوى الثالث: أنه لم يحصل في حياة المرأة ما يكون ملفتاً للنظر ومستحقاً للنقل إلّا قليل. وهذا ثابت لنوع النساء عموماً. بخلاف الرجال، فإنّ أكثر ما يقومون به يستحق النقل حسناً كان أم سيئاً. وعلى أي حال فما لا يستحق النقل من الحياة الاعتيادية لا ينقل من رجل كان أم امراة.

ونساء المعصومين عليهم السلام كن يعشن حياة فردية تقريباً من أمور العائلة والتزوج والأولاد والعبادة. مضافاً إلى أن الكثير منهن كن متعبدات بشكل مكثف، ممّا يستلزم انصرافهن عن الناس، أو أنهن يعتبرن الانصراف عن الناس عبادة.

ومن شواهد ذلك ما ورد من أنّ شخصاً[1] خطب سكينة بنت الحسين عليه السلام من أبيها فقال له: **«وأمّا سكينة فغالب عليها الاستغراق مع الله تعالى فلا تصلح لرجل»**[2]. ولعلهن يلتقين قليلاً حتّى بالنساء فضلاً عن الرجال، وليس هناك وضوح تاريخي بكثرة التقائهن بالنساء، إلّا بالتقاء الزهراء عليها السلام بنساء المهاجرين والأنصار مرة، وقد ألقت عليهن خطبتها الثانية.

وأما ما قد يتخيله أنصار الوعي الإسلامي من أنّ هداية الرجال على الرجال، وهم المعصومون عليهم السلام وأصحابهم في ذلك الحين. وهداية النساء على النساء وهن نساء المعصومين عليهم السلام، وهذا يستلزم كثرة ورود النساء على النساء ككثرة ورود الرجال على الرجال.

إلّا أنّ هذا ممّا لم يثبت كبرى وصغرى. ونريد بالكبرى أنّ الأئمّة عليهم السلام لم يكونوا

---

(١) وهو الحسن بن الحسن بن عليّ، راجع الكنى والألقاب ٢: ٤٦٥.

(٢) الكنى والألقاب ٢: ٤٦٥.

مطبقين لهذه الفكرة ولا مؤمنين بها، وهي أنّ هداية النساء للنساء. ونقصد بالصغرى أنهم لم يكونوا يسمحون لنسائهم بذلك.

وإنّما كان النساء في مسائلهم ومشاكلهم يرجعون إلى الرجال لكي يسالوا المعصومين عليهم السلام أو يذهبن إلى المعصومين عليهم السلام أنفسهم. ولا أقول: إنهم لا يذهبون إلى نسائهم أحيانا، إلّا أنّ هذا قليل على أي حال وليس بالسعة المطلوبة.

ويكفينا أنّ في الدين قرائن تكون ضد هذه الفكرة، من قبيل منع المرأة من القضاء، ومن إمامة الجماعة للرجال، ومن الشهادة لرؤية الهلال وغير ذلك من الأُمور. فيراد منها الانسحاب عن مجتمع الرجال تماماً.

حول سكينة بنت الحسين عليها السلام

بقي أن نشير إلى نقض واحد مؤسف جداً ذكرته مصادر العامة . والظاهر أنّ أول من تورط به هو أبو الفرج الإصفهاني في الأغاني ، وتابعه الكثيرون ، ومنهم كحالة في إعلام النساء وغيره . وهو أنهم يدعون ويروون بتفصيل : أنّ سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام كانت تجتمع مع الشعراء ، وتحضر مجالس الغناء والطرب والشعر ، وتحكم وتفاضل بين شاعر وآخر ، ونحو ذلك من الأُمور ، ممّا هو دس قطعي ضد المعصومين عليهم السلام وذريتهم وشيعتهم .

وأنا أعتقد أنّ اسمها ليس مصغراً (سكينة) كما يلفظه العامة والمشهور . وإنّما هو مكبر (سكينة) مأخوذاً من القرآن الكريم : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾[1] ، يعني هي السكينة النازلة تشبيهاً . وأما المصغر فهو انثى الحمار بنص اللغويين ، ومنهم ابن منظور في لسان العرب . وهذا ممّا يجهله المثقفون والمتفقهون من الناس مع الأسف ، ولا يحتمل أن الحسين عليه السلام يجهله .

ونحن نجد أنّ أبا الفرج الإصفهاني الذي هو أول من كتب هذه القضية يمثل شخصيتين متهافتتين ؛ لأنه صاحب مقاتل الطالبيين ، وصاحب الأغاني . فهو في مقاتل الطالبيين يكون أقرب إلى الدين من ناحية ، وأقرب إلى المذهب من ناحية أُخرى ، وأقرب إلى حب أهل البيت عليهم السلام من ناحية ثالثة . في حين أنه في الأغاني

---

(١) التوبة : ٢٦ .

بريء من كل ذلك.

فإما مقاتل الطالبيين فهو مصدر رئيسي في التاريخ بالنسبة إلى كل المذاهب. وهو أقدم كتاب وصل إلينا بعد تلف الكتب الأُخرى. فإنّ هذا الكتاب وفّق وأصبح مصدراً لجميع المسلمين.

وأما الأغاني فقد فشل ولم يكن مصدراً لجميع المسلمين حتّى باقي المذاهب؛ وذلك لأنّ نسبة المحرمات لقادتهم وسادتهم وخلفائهم فيه كثيرة. فأحسن حل لذلك أن يهملوه ويتناسوه ولا يعتبروهُ مصدراً إطلاقا، حتّى لا يفتضحوا. ولو كان مصدراً تاريخياً مقدساً. فإذا كانوا يعتمدون عليه فإنّه يضرهم، وإذا لم يكونوا يعتمدون عليه فلابد أن يكفوا عنه بمجموعهِ، فهو كاذب من جميع الجهات.

قال كحالة في أعلام النساء: سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب سيدة جليلة ذات نبل ومقام رفيع ،كانت تجالس الأجلة من قريش، وتجتمع إليها الشعراء والأدباء والمغنون فيحتكمون إليها فيما انتجته قرائحهم، فتبين لهم الغث من السمين، وتناقش المخطئ مناقشة علمية، فيقنع بخطأه ويقر لها بالفضل وقوة الحجة وسعة الاطلاع.

فمن ذلك أنه اجتمع بالمدينة راوية جرير، وراوية كثير، وراوية نصيب، وراوية جميل، وراوية الأحوص. فادعى كل رجل منهم أنّ صاحبه أشعر. ثم تراضوا بسكينة بنت الحسين عليها السلام فأتوها فأخبروها فقالت لصاحب جرير... إلى آخر القصة[١].

قال: وفي رواية أنه اجتمع في خباء سكينة بنت الحسين، جرير، والفرزدق، وجميل، والنصيب. فمكثوا أياما، ثم أذنت لهم فدخلوا، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم. فأخرجت إليهم جارية لها وضيئة، وقد روت الأشعار

(١) أعلام النساء ٢: ٢٠٢.

والاحاديث ، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال الفرزدق : ها أنا ذا . قالت : أنت القائل . . . إلى آخر القصة[١].

ثم يذكر قصصاً كثيرة باجتماعها بعمر بن أبي ربيعة ، وابن سريج ، والغريض ، وكثير آخرين . ويذكر أنّها تزوجت بعدة أزواج[٢].

ويقول : وكانت سكينة عفيفة ، سلمة ، برزة من النساء (أي تخرج إلى الرجال) ظريفة ، مزاحة . قيل لها : أمك فاطمة يا سكينة وأنت تمزحين كثيراً وأُختك لا تمزح . فقالت : « لأنكم سميتموها باسم جدتها المؤمنة فاطمة ، وسمّيتموني باسم جدّتي التي لم تدرك الإسلام » ، تعني آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وآله[٣].

وهذا دس واضح وذلك لعدة أُمور :

١ ـ أنّ آمنة لم يكن اسمها سكينة .

٢ ـ ثبت عندنا أن أهل البيت عليهم السلام من أرحام طاهرة وأصلاب مطهرة ، ولا يحتمل أن تكون آمنة بنت وهب كافرة ، وإن كانت قبل الإسلام .

٣ ـ التسمية وحدها لا دخل لها في التربية .

وقد اكتفى السيّد المقرم في مقتل الحسين بأن أجاب بالرواية المنقولة : « وأمّا سكينة فغالب عليها الاستغراق في الله تعالى »[٤]. فإذا كانت مستغرقة في الله سبحانه فكيف تصدر منها هذه الأُمور ، فإنها تنافي الاستغراق أكيداً . وإذا كانت لا تنفع رجلاً واحداً الذي هو زوجها وأخص الناس بها ، فكيف تنفع الكثيرين من الرجال ؟

إلّا أن نقطة الضعف في ذلك هو ضعف الرواية بإزاء استفاضة النقل من ذلك

---

(١) أعلام النساء ٢: ٢٠٤.

(٢) أعلام النساء ٢: ٢١٦.

(٣) المصدر المتقدّم: ٢٢١.

(٤) الكنى والألقاب ٢: ٤٦٥.

الطرف. فإنّ كحالة يذكر بعد كل ترجمة مصادرها، ويذكر بعد ترجمة سكينة بنت الحسين عليه السلام حوالي عشرين مصدراً. وهذا يكفي في الاستفاضة، فلا تقاومه تلك الرواية.

وجواب ذلك من عدة وجوه:

الأول: أنْ يقال بأنّ رواياتهم عندنا ليست بحجة، كما أنّ رواياتنا عندهم ليست بحجة. فلو كانت روايات فقهية ويترتب عليها أثر فقهي من وجوب أو حرمة أو استحباب أو غير ذلك من الأحكام الشرعية، لما عمل بها المذهب الآخر. وهذا ينبغي أن يكون أكيداً. فكل تلك الروايات التي تحدثت عن سكينة بذلك النحو ليست من أخبارنا، إذن، فهي ليست علينا بحجة. وكل تلك الروايات من المراسيل وليست لها أسانيد إطلاقاً. فمن هذه الناحية كيف نستطيع أن نأخذ بها حتّى لو كانت من الخاصة فضلاً عما لو كانت من العامة.

الثاني: أننا قنا بدرجة من درجات التفكير أنّ القضية مستفيضة، ولعلهم يدعون أنّها متواترة. ولكن هذا يمكن أن يجاب عليه بجوابين:

١ ـ أنّ التواتر هو اجتماع جماعة لا يحتمل تطابقهم واتفاقهم على الكذب. وهذا شرط غير متوفر هنا، واذا كان كذلك فهو ساقط عن الحجية. فإنّ الملايين من المسيحيين مثلاً، أو من اليهود أو من البوذيين أو غيرهم، يشهدون بصحة بعض المرتكزات عندهم ممّا يخالف الإسلام، فهل أنّ هذا التواتر حجة؟ طبعاً لا. فإنّه يوجد اتفاق على أن يغلطوا أنفسهم، وأن يسيروا في الطريق المعوج.

٢ ـ التواتر هو اجتماع عدد كبير من الناس بحيث يحصل الاطمئنان بصحة كلامهم. فهل أن هذا العدد متوفر هنا أم لا؟ فلو فرضنا أن هذه الروايات متواترة؛ لأن الكثير من المؤرخين يروونها. ولكن الذي ذكرها من المصادر القديمة هو واحد، وهو أبو فرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، إذن، فينقطع التواتر بالأغاني،

وحمله على الصحة بلا موجب ، فلا تحصل الاستفاضة بواحد فضلاً عن التواتر .

الثالث : أن الدس المتعمد الذي كان مدعوماً من قبل الدولة في القرون الأُولى كان كثيراً . فكان هناك مجموعة من القصاصين يروون الروايات مقابل الأموال ، وما أسهل أن تشترى بعض الضمائر . فليس من الغريب أن يقولوا هذا ، لأجل أن يفضحوا المعصومين عليهم السلام حسب اعتقادهم . فقد سب علي بن أبي طالب عليه السلام وشتم على المنابر سنين طويلة ، فليس من العجيب أن يهتكوا ابنه أو ابنته . فمادام سبب الكذب المتعمد موجوداً ، فحتى لو كان هناك ملايين المجلدات فلا قيمة لها ؛ لأنها مشتراة بالمال .

الرابع : أنّ كحالة يريد أن يوهم أنّ كل مصادره تعرضت لهذه الأُمور التي ذكرها ، بينما أنّ الأمر يختلف جداً . والأمر يحتاج إلى فحص في كل تلك المصادر على أي حال ، ولا يتيسر ذلك بسهولة .

الخامس : أنه في الإمكان أن يقال : إنّ نطفة الإمام المعصوم عليه السلام طاهرة ومطهرة معنوياً . لا أقل أنّ أولادهم الصلبيين يكونون أطهاراً ؛ لأنهم منعقدون مباشرة من نطفة الإمام عليه السلام . إذن فلا يمكن أن يصدق فيهم مثل هذه الأُمور التي تنسب إليهم .

فإن قلت : فكيف بأبي السرايا وجعفر الكذاب وغيرهم من القلائل المنحرفين ؟

قلنا فيه أكثر من جواب :

١ ـ هذا ممّا دل الدليل على خبث النفس فيه ووجود المانع من قبول التربية . على أنّ جعفراً الكذاب وردت توبته ، وورد النص على قبولها ، ولذا يسمى بجعفر التواب بدل الكذاب .

٢ ـ أننا لو تنزلنا عن سائر الأئمّة عليهم السلام لا نستطيع أن نتنزل عن الحسن والحسين عليهما السلام اللذين هما خير من الباقين . فهما من أهل الكساء الذين هم خاصّة الخلق وأئمة الأئمّة . فإنّ تصورنا أن النطف ليست طاهرة من غيرهم ، فيتعين أن تكون طاهرة

منهم. وإن تصورنا أنّ بعضهم فشلت تربيتهم وحاشاهم، فإننا لا نستطيع أن نتصور ذلك في أهل الكساء عليهم السلام.

٣ـ أننا سمعنا ما سبق من مسلكهم في الصيانة المكثفة لنسائهم. فكيف تستطيع بعض النساء أن تكون كذلك، يعني ضد هذه الصيانة، إلّا أنْ تبيع دينها وشرفها بأبخس الأثمان وتفتضح، ولوصل خبرها إلى مصادر الشيعة فضلا عن مصادر السنة، مع أنه لم يصل.

السادس: أننا نتساءل: إنّ هذا المسلك الذي ينسب إلى هذه السيدة الجليلة هل كان في زمن أبيها، أم كان بعده؟ فإنْ كان في زمن أبيها فهو مشرف عليها ومراقب لها، وبالتأكيد أنه يطبق القانون العام عليها كما طبقه على غيرها من سائر بناته وزوجاته، فلو فرضنا حصول شيء من ذلك، فسوف تواجه بمنع صارم لا محالة.

وأما بعده، فالنساء قضت كل أعمارهن تقريباً، بل تحقيقاً بالبكاء والنوح على واقعة الطف وشهدائها. فالسيدة سكينة عليها السلام هل كانت مع الباكيات أو بدونهن؟ فإنّ كانت مع الباكيات كما هو الأمر الواقع، فلا معنى لأن تكون باكية ومزاحة في عين الوقت. وإن لم تكن معهن ـ يعني كانت هي مزاحة، واخواتها وعماتها وغيرهن باكيات ـ فهذا هو العار نفسه، وإسقاط المصلحة الدينية الخاصة والعامة التي كان يعرفها الجميع من أُسرتها في وجوب إعلان مصيبة الحسين عليه السلام ومظلوميته في المجتمع، ومعارضة الدولة القاتلة له بذلك.

السابع: أنّ الأئمّة عليهم السلام كانوا معها طول حياتها الحسن والحسين وزين العابدين والباقر عليهم السلام وربما طال بها العمر إلى زمن الإمام الصادق عليه السلام ولاشك أنّ الأئمّة كلهم كان لهم اهتمام خاص بصيانة أُسرهم وكثافة الستر في نسائهم. فلا يحتمل أن يكون شيئ ما يفلت بهذه السعة والوضوح وهم لا يعلمونه، أو أنهم يعلمونه ويسكتون عنه، أو أنهم يعلمونه ولا يستطيعون تغييره، فكل ذلك غير محتمل؛ لأنّ الضغط

على امراة منهم ليس مخالفاً للتقية لكي يتركوهُ.

الثامن: في حدود المصادر المتوفرة من الجماعة لم أستطع أن أجد ذكراً لما إذا كانت سكينة عليها السلام حاضرة واقعة الطف أو في السبايا، ليكون ذلك قرينة أُخرى على نفي الحال المنسوب إليها دنيوياً؛ لأنها إذا كانت من السبايا الباكيات فلا معنى للجمع بين المزاح والبكاء.

إلّا ان ابن الجوزي في تذكرة الخواص يقول: وكانت في السبايا الرباب بنت امرئ القيس زوجة الحسين عليه السلام وهي أُم سكينة بنت الحسين عليه السلام. وكان الحسين عليه السلام، يحبها حبا شديدا، وله فيها اشعار منها:

لعمرك إنني لأُحبُّ داراً ... تحل بها سكينة والرباب
أُحبهما وأبذل فوق جهدي ... وليس لعاذل عندي عتاب
ولست لهم وإن عتبوا مطيعاً ... حياتي أو يغيبني التراب

فخطبها يزيد والأشراف من قريش، فقالت: والله لا كان لي حماً آخر بعد ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، فعاشت بعد الحسين عليه السلام سنة ثم ماتت كمداً، ولم تستظل بسقف(١).

فإذا كانت الأُم كذلك، فكيف يصح أن نتصور أنّ البنت كانت متطرفة إلى الجانب الآخر لو صح التعبير. وخاصّة بعد أن اعتبرت عبرة عظيمة جداً من مقتل أبيها وموت أُمها وجميع ما حصل بالطف من رزايا.

التاسع: وهو يخص مذهبنا، فقد ورد في الزيارة الجامعة:

«السَّلامُ عَلَيْكُمْ يا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَوْضِعَ الرِّسالَةِ، وَمُخْتَلَفَ الْمَلائِكَةِ، وَمَهْبِطَ الْوَحْيِ، وَمَعْدِنَ الرَّحْمَةِ، وَخُزّانَ الْعِلْمِ، وَمُنْتَهَى الْحِلْمِ، وَأُصُولَ الْكَرَمِ، وَقادَةَ الْأُمَمِ، وَأَوْلِياءِ النِّعَمِ، وَعَناصِرَ الْأَبْرارِ، وَدَعائِمَ الْأَخْيارِ، وَساسَةَ الْعِبادِ، وَأَرْكانَ الْبِلادِ،

---

(١) لواعج الأشجان: ٢٢٣.

وَأَبوابَ الإِيمانِ ، وَأُمَناءِ الرَّحمنِ ، وَسُلالَةَ النَّبِيِّينَ ، وَصِفْوَةَ الْمُرْسَلِينَ ، وَعِتْرَةَ خِيَرَةِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، ورَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ.

السَّلامُ عَلَى أَئِمَّةِ الْهُدَى ، وَمَصابِيحِ الدُّجىٰ ، وَأَعْلامِ التُّقىٰ ، وَذَوِي النُّهىٰ ، وَأُولِي الْحِجىٰ ، وَكَهْفِ الْوَرىٰ ، وَوَرَثَةِ الأَنْبِياءِ ، وَالْمَثَلِ الأَعْلىٰ ، وَالدَّعْوَةِ الْحُسْنىٰ ، وَحُجَجِ اللهِ عَلىٰ أَهْلِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَالأُولىٰ ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ.

السَّلامُ عَلىٰ مَحالِ مَعْرِفَةِ اللهِ ، وَمَساكِنِ بَرَكَةِ اللهِ ، وَمَعادِنِ حِكْمَةِ اللهِ ، وَحَفَظَةِ سِرِّ اللهِ ، وَحَمَلَةِ كِتابِ اللهِ ، وَأَوْصِياءِ نَبِيِّ اللهِ ، وَذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ.

السَّلامُ عَلَى الدُّعاةِ إِلَى اللهِ ، وَالأَدِلَّاءِ عَلىٰ مَرْضاةِ اللهِ ، وَالْمُسْتَقِرِّينَ فِي أَمْرِ اللهِ ، وَالتَّامِّينَ فِي مَحَبَّةِ اللهِ ، وَالْمُخْلِصِينَ فِي تَوْحِيدِ اللهِ ، وَالْمُظْهِرِينَ لِأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ ، وَعِبادِهِ الْمُكْرَمِينَ الَّذِينَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ »(١).

ومن يكونون هكذا ، لا يحتمل فيهم أن تكون بعض نسائهم هكذا.

العاشر: أننا نعتبر بقصة ترويها المصادر القديمة عندهم وعندنا ، وهي بما مضمونه : أنّ الرواية تقول : « انقطعت في البادية عن القافلة ، فوجدت امرأة ، فقلت لها : من أنت ؟ ... ـ فكانت لا تجيب إلّا بالقرآن ـ فسألنا عنها فقيل لنا هي فضّة خادمة الزهراء عليها السلام ، ما تكلّمت منذ عشرين سنة إلّا بالقرآن »(٢).

فهي تستشكل من الكلام الاعتيادي ، فوجدت خير كلام هو كلام الله سبحانه وتعالى ، وهي حافظة للقرآن كله ، وذكية في اختيار آياته . وقد تطرق القرآن لمواضيع كثيرة جداً ، بحيث تستوفي الحياة الاعتيادية وأكثر من الحياة الاعتيادية ، قال تعالى :

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٢: ٦٠٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢١.

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[١]، فقد فضلت أن تحتاط لنفسها أمام الله سبحانه ولا تتحدث إلّا بالقران. وهي إنّما كانت هكذا؛ لأنها متربية في دار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد عاشرتهم فترة من الزمن وعرفت مقاصدهم وحقيقة عقائدهم وحقيقة عملهم بمقدار ما تستحق.

فإذا كانت خادمة غريبة، ومع ذلك تصبح من الورع والتقوى إلى هذه الدرجة، فكيف ببنات الأئمّة عليهم السلام؟ فهن أُولى بذلك بكثير.

والفكرة الأُخرى بهذا الصدد أنه روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه كانت له عدة مناهج في نفع المجتمع، فمنها: أنه كان يشتري العبيد ويستخدمهم لمدة سنة، ثم يتخذ ثلاث خطوات: الأُولى: يبرئ ذممهم ويبرئون ذمته. الثانية: أن يعطيهم مالاً. والثالثة: أن يعتقهم. فإذا كان الأمر لمجرد العتق، فلماذا يبقيه عنده سنة كاملة؟ في حين أنه يمكنه أن يعتقه بمجرد أن يشتريه. وإنّما الشيء الرئيسي الذي يريده الإمام عليه السلام هو أن يتربى الفرد في خلال هذه السنة. فيحملون من الفقه والورع من الإمام وأُسرته الشيء الكثير. فيكونون السنة ورع، والسنة ثناء، والسنة طاعة لله ولرسوله ولامير المؤمنين ولكل المعصومين عليهم السلام. فهل من المعقول ان تكون بنات الأئمّة عليهم السلام ليس على هذا المستوى، وهم في تربية كاملة تستوعب العمر، كله وليس لسنة واحدة؟

وكذلك ما ورد: أنّ السجانين في السجن الذي كان فيه الإمام الكاظم عليه السلام، كان الفرد منهم يعاشر الإمام عليه السلام أياماً قليلة فيصبح متهجداً عابداً زاهداً. حتّى إنهم أرسلوا له امراة خليعة، لكي تخدمه وتغريه، فأصبحت أيضاً زاهدة وعابدة[٢].

فاذا كان الحال في الافراد الاعتياديين ان تحصل لهم الهداية شيئا قليلا من معاشرة

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) انظر: بحار الأنوار ٤٨: ٢٣٨.

الأئمة عليهم السلام ، فكيف برجالهم ونساءهم واطفالهم الذين يعشون تحت تربيتهم وتركيزهم .

الحادي عشر : أنّ الشعر المنسوب إلى الحسين عليه السلام والموجود في مصادرهم يمكن أن نفهم منه فهما معنوياً . وأننا نجل الحسين عليه السلام عن العاطفة الدنيوية الأُسرية . وأنّ كل مؤمن وخاصّة المعصوم عليه السلام إنّما يحب في الله ويبغض في الله . فإنّ الحسين عليه السلام يقول :

« أحبهما وأبذل فوق جهدي وليس لعاتب عندي عتاب »[١]

فإنّه حينما يقول : **« لعمرك انني لأُحبُّ داراً »** ، أي المقام الذي وصلوا إليه عند الله تعالى . قوله عليه السلام : **« وأبذل فوق جهدي »** من قبيل قوله تعالى : **﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾**[٢] . وقوله عليه السلام : **« وليس لعاذل عندي عتاب »** فهو يريد أن يخص أُسرته بشي من التربية المركزة . فلا إشكال أنه يحبها في الله كما يحب أي شخص آخر في الله . وقوله عليه السلام : **« وليس لهم وإن عتبوا مطيعاً »**[٣] فإنّ الطاعة لله عز وجل وليس للخلق بطبيعة الحال . وقوله عليه السلام : **« حياتي أو يغيبني التراب »**[٤] أي أنّ طاعة الله تعالى في حياتي وبعد مماتي .

ولا يحتمل أنه سلام الله عليه يحب في الله امرأة تعمل المحرمات وتعاشر الرجال المغنين وتكون مزاحة ، غير شاعرة بمصالح المجتمع ومصالح أهل البيت عليهم السلام ، وهي مصلحة أبيها وذويها ، وهي ليست بعيدة عنها .

الثاني عشر : قد يقال : إنّ زين العابدين عليه السلام في تقية مكثفة ومنعزل في بيته للعبادة والزهد وهو منصرف عن المجتمع . وإن الإمام الباقر عليه السلام صغير السن

---

(١) لواعج الأشجان : ٢٢٢.

(٢) التحريم : ٦.

(٣) و (٤) لواعج الأشجان : ٢٢٢.

ولا يستطيع منع عمته من فعلها. ولكننا نقول هنا: إنّ المتوقع أن يكون هناك رد فعل من الأئمّة عليهم السلام، وأن يصرحوا بأنهم بريئون من تصرفاتها، لو كانت.

فإننا لو تنزلنا عن كل الوجوه السابقة، وفرضنا هذه السيدة العظيمة حرة في تصرفها، وغير منصاعة لتعاليم أبيها وتقاليد أُسرتها ومن الصعب السيطرة عليها، وقد مارست هذه الأُمور المنسوبة اليها فعلا.

إذن، سنتوقع بكل تأكيد وجود رد فعل مضاد لها، وإعلام للناس بأنّ هذه المرأة عاصية ومنحرفة. لا أنهم يسكتون عنها بالرغم من تصرفها الفاضح وفعلها الشائن وارتكابها للمحرمات على ما هو المروي. فإنّ سكوتهم غير محتمل، فإنّه ليس موافقاً للتقية، وليس فيه مصلحة ثانوية، وخاصّة أنّها من أُسرتهم، ولا يخاف جانبها عليهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

مع العلم أنّ رد الفعل بالنسبة إلى كثير من حوادث المجتمع موجود خلال تاريخ المعصومين عليهم السلام، فكيف لا يكون رد الفعل موجوداً بالنسبة إلى هذه السيدة لو كانت قد صدرت منها هذه الأعمال والأقوال.

وحيث إنّ رد الفعل غير موجود قطعاً، ولم يرد إلينا ولا في مصدر ضعيف من مصادر المسلمين. إذن، يتعين أن تكون هذه الأُمور غير صادرة عنها، وأنّها مكذوبة عليها.

الثالث عشر: أننا لو تنزلنا عن كل الوجوه السابقة ـ ولن نتنزل ـ فنسلم أنّ شيئاً ما من هذا الاتجاه قد حصل، ولكن في حدود الشريعة، فلا ننسب إليها شيئاً من المحرمات.

مضافاً إلى أننا نستطيع أن نعطي عناوين ثانوية لتبرير عملها. وذلك على عدة مستويات:

المستوى الأوّل: مسألة الحجاب وأن لا يراها الرجال وإن سمعوا صوتها.

وهذا منصوص في بعض الكتب ، كالذي سمعناه عن كحالة : بأنها جلست حيث تراهم ولا يرونها .

وكذلك نعلم أنّ صوت المرأة إذا لم يكن فيه إثارة نوعية فإنّه يجوز سماعه . كما سمعوا صوت الزهراء عليها السلام وصوت زينب عليها السلام وغيرهن من النساء .

ولكن يخالفه ما روي في بعض كتبهم من أنّها كانت تصفف شعرها بشكل معين حتّى قيل : (الطرة السكينية)[1] وظاهر السياق أنّها كانت تبرز أمام الرجال سافرة بهذا الشكل . وهذا بمنزلة المستحيل ، فإنّ روايتها في غاية الضعف ، ولا يحتمل أن يصدر من بنت الحسين عليه السلام ذلك إطلاقاً .

إلّا أن يقال : إن الطرة السكينية لم يرها الرجال وإنّما رأتها النساء .

المستوى الثاني : أن الغناء حرام ، ونسبة الحرام إلى هذه السيدة الجليلة منسد تماماً . فلن نستطيع أن نقبل برغبتها بالغناء ، فإنّه محرم في الشريعة عند كل أهل المذاهب ، وخاصّة ما يميل إلى الجنس والمجون .

ولكننا ينبغي أن نلتفت إلى أنّ الغناء انما يكون غناء حقيقة وعرفاً إذا قرئ أو أُدي على طريقته الخاصة بالترجيع ونحوه . وأما وجوده اللفظي المكتوب أو المقروء بدون ترجيع فليس غناء . وإنّما هو شعر اعتيادي ، وخاصّة أنهم في ذلك العصر كانوا يلتزمون الغناء الفصيح ، ولم يكن للغات الدارجة العامية أثر .

وحسب فهمي أنّ الشعراء في ذلك الحين على قسمين :

١ ـ شعراء غير غنائيين ، أي لم تكن أشعارهم لأجل الغناء . كجرير والفرزدق .

٢ ـ شعراء غنائيين ، أي ينضمون الشعر لأجل الغناء ويرتزقون بذلك ، كابن سريج والنصيب .

---

(١) راجع الأعلام ، للزركلي ٣ : ١٠٦ .

إذن فمن الممكن كأُطروحة أنهم حين قالوا: إنـها تـجتمع بـالشعراء والمـغنيين يريدون من المغنيين الشعراء الذين ينضمون الأشعار الغنائية. ويريدون من الشعراء من لا يكون في شعره ذلك. ولا يراد أنّها كانت تحضر فعلاً الأداء الغنائي فإنّه محرم في الشريعة ولا يحتمل صدوره منها.

المستوى الثالث: أنّها تجتمع بهذه الطبقة من الناس لأجل هدايتهم بشكل وآخر قليلاً أو كثيراً. فلعل كلمة من الحكمة، أو بيتاً فيه عبرة، أو موعضة فيها هـدايـة، تؤثر في بعض القلوب الساهية وفي بعض الأذهان الحاوية والعقول الغافلة.

وكلما كان الفرد أكثر غفلة وأقل اهتماماً بالدين كان أحوج إلى التنبيه والالتفات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وخاصّة أنّ هـذه الطـبقة مـن النـاس ليسـوا ملحدين، بل يدعون الإسلام والالتزام. ففي الإمكان أخذهم من حيث يـدعون، وهدايتهم من حيث لا يشعرون.

وهذا فيه نفع لكلا الطرفين، فإما نفعه لسكينة نفسها، فإنّه أُسلوب من أساليب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فإنّ أساليب الهداية تختلف، ولعل الأُسلوب الرئيسي والأهـم لهـذه الطـبقة مـن النـاس هـو ذلك، فـتحصل عـلى ثـواب الأمـر بالمعروف وثواب الجهاد بمعنى من المعاني، فيكون نفعاً لها.

وأما بالنسبة لهم فإنهم يستفيدون، وذلك أنّ هؤلاء يكون أمرهم دائـراً بـين أن يتمحض اتصالهم بالفاسقين والمكرة وأهل الدنيا ونحو ذلك. وبـين أن لا يكـونوا متمحضين في هذه الجهة فقط. فيكون لهم اتصال قل ام كثر بجهة حق. فـبعضهم يتمنون هذا المعنى قليلاً أو كثيراً.

إن قلت: فلماذا يذهبون إلى السيدة سكينة عليها السلام، ولا يذهبون إلى المعصومين عليهم السلام مباشرة؟

قلنا: إنّ من الصعب أن نقترح عليهم الذهاب إلى المعصومين عليهم السلام لعدة أُمور:

١ ـ اختلاف المذهب .

٢ ـ اختلاف المسلك .

٣ ـ هيبة المعصومين ﮳ عالية جداً ، وهؤلاء يشعرون بذنوبهم أمامهم . فإذا شعروا بذنوبهم يقل شأنهم في باطن أنفسهم مهما كانوا يتظاهرون بالرفعة والتكبر والحشمة . فلا يمكن أن يذهب أمام هذه العظمة العظيمة ، فإنّه لا يتحملها .

٤ ـ ربما لا يجد هؤلاء رغبة من قبل المعصومين ﮳ في زيارتهم .

٥ ـ أن المعصومين ﮳ لم يكونوا يتجاوبون مع وجدانهم الغنائي والدنيوي ، ولا ينبسطون معهم في الكلام ، مع أنهم يحتاجون إلى مثل ذلك . وقد وجدوا في هذه السيدة الجليلة المضحية المجاهدة ضالتهم المنشودة ، بناءً على هذه الأُطروحة .

إن قلت : ان الامام السجاد ﷺ أوكل أمر هذه السيدة الجيلة إلى زوجها مصعب ابن الزبير أو غيره ، ولم يناقش في تصرفاتها لأنها متزوجة ، وزوجها أولى بها .

قلنا : إنّ جوابه من عدة وجوه :

الوجه الأوّل : أن ننفي هذه الروايات ونقول : إنها كاذبة كلها . فسكوت الإمام ﷺ من أهله وفي محله ؛ لأنه لا يوجد منها شيء باطل حتّى ينهى عنه الإمام ﷺ . ولكننا إن تنزلنا عن ذلك حينئذ نأتي إلى الوجوه الآتية .

الوجه الثاني : أنه إذا كان قد بلغ الحال بها إلى حد الفضيحة ، كما هو مقتضى هذه الأُمور المروية . كان لا بدّ للسجاد ﷺ من منعها ، وإلّا سرى الأمر إليه نفسه ، ومن ثمّ إلى الدين .

الوجه الثالث : أنه إن لم يستطع أن يكفها عن عملها فلا أقل أن يعلن البراءة منها وعن عملها . لكي يبرئ ساحته وساحة مذهبه وساحة دينه ، ونحو ذلك .

الوجه الرابع: أنه لم ير في عملها شيئاً شائناً ومخالفاً لكي ينهى عنه.

فإن قلت: إنّ هذه السيدة الجليلة متفقهة وفاهمة ومتورعة. أفلا يكون عملها هذا إعانة على الإثم؛ لأنه تايد لهم؟

وهذا إنّما يصح بعد التنزل عن الجهات التي تقتضي نفي الأمر أصلاً. لكننا الآن ينبغي أن نتنزل ونقبل أنّها حدثت، فإذا قبلنا ذلك تسجل الإشكال إجمالاً.

ويكون الجواب الرئيسي لذلك: أنه إذا حصل التزاحم بين أنّها تأثم لإعانتهم على الإثم، وبين أن تقوم بهدايتهم، وإسماعهم كلمة الحق، وربطهم ولو قليلاً بالأُسرة العلوية الشريفة. فيقدم الأهم، وهو الذي فعلته من هدايتهم.

فإن قلت: كيف تتصرف هذا التصرف، وهي تعلم أنهم مغنون وانهم فسقة؟

قلنا: نعم، وإنّ كثيراً من أُمور الدنيا، بل كلها قابلة للحمل على معنيين: إلهي وشيطاني، وهذا منها. وكل واحد يحشر على نيته كما ورد. فإذا استطعنا أن نحمل هذه السيدة العظيمة على حسن النية واستهداف مرضاة الله تعالى كفى فيه أن لا يكون هدفها الإعانة على الإثم، بل تخليصهم من الإثم، وهذا يكفي.

وبعد هذه الجولة نعود إلى السؤال الذي سبق أن طرحناه عن وجود زينب عليها السلام، وقد أثبتنا وجودها أصلا. وكذلك السبب عن قلة الخبر الموجود عنها قبل واقعة الطف.

السبب المحتمل في تغيب زينب عليها السلام عن بعض الحوادث:

بقي علينا الحديث عن سبب تغيبها عن هذه الحوادث التي حدثت في أُسرتها خلال ذلك التاريخ، كموت أبيها وأُمها وأخيها ونحو ذلك.

وكذلك بعض الأجوبة العامة التي تعم غالب الحالات، وأجوبة خاصّة ببعضها. فأما الأجوبة العامة فكما يلي:

أولاً: في الامكان ـ كأطروحة ـ أنّها خلال بعض تلك الحوادث لم تكن ساعتها موجودة؛ لانها كانت في سفر، أو في بيت جدها رسول الله ﷺ، أو في بيت أخيها الحسن عليه السلام، ونحو ذلك. ثم إنها اقبلت بعد حصول الوفاة.

ثانياً: أنّ هذه المناسبات مظنة نوعية لحضور الرجال ومن ثم لم تخرج من غرفتها تحت أصعب الظروف.

ثالثاً: أنّها قد تكون موجودة، ولكنها لم تذكر في الروايات، كما لم يذكر غيرها من النساء احتراماً لموقف أهل البيت عليهم السلام. وإنّما يذكر الأشخاص الرئيسيون اللذين ينبغي نقل كلامهم أو أفعالهم ونحو ذلك.

رابعاً: ان هذا الأسلوب موجود في الأساليب القصصية، فلربما مشى عليه الرواة عن عمد أو عن غير عمد. وهو حدوث شخصية مهمة في آخر الأمر لم تكن قد ذكرت قبل ذلك. وفي القرآن وغيره عدد من هذه الأساليب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾[٢]، ومساعدة الشيطان اليهود في قتل زكريا بعد أن دخل في جذع شجرة أجوف كما ورد ذلك في بعض الروايات[٣]، ونحو ذلك من الأمور.

والأمر هنا يمكن أن يكون كذلك. فإنّ هذه الشخصية، وهي زينب عليها السلام تذكر في مورد الأهمية والتركيز لا في غيره، احتراماً لها وصونا لذكرها عن الابتذال.

خامساً: أن المروي أنّها ولدت للعام الخامس أو السادس للهجرة[٤]. إذن، فهي كانت طفلة عند وفاة جدها وعند وفاة أُمها وولادة أخيها وإسقاط الجنين. وكذلك

---

(١) يوسف: ٢٥.

(٢) البقرة: ٢٥١.

(٣) انظر: علل الشرائع ١: ٨٠.

(٤) أعلام النساء ٢: ٩١.

لدى التصدق على المسكين واليتيم والأسير. والطفلة لا تذكر في التاريخ أكيداً.

نعم، كانت عند وفاة أبيها وأخيها الحسن كبيرة، ونتوقع أن يكون لها دور قليل أو كثير. وسنجد بعد قليل أنه قد روي وجودها في كل ذلك بالرغم من قلته. وتلك القلة ناتجة من الاسباب السابقة.

وأما الاجوبة الخاصة في الموارد:

أوّلاً: ما ورد: أنّها إذا أرادت أن تزور المسجد في الكوفة أو في المدينة، وفي رواية: إذا أرادت أن تزور قبر جدها رسول الله تخرج ليلاً والحسن عن يمينها، والحسين عن شمالها، وأمير المؤمنين عليه السلام أمامها، فإذا قربت من القبر الشريف سبقها أمير المؤمنين عليه السلام فأخمد ضوء القناديل، فسأله الحسن عليه السلام مرّة عن ذلك، فقال عليه السلام: أخشى أن ينظر أحد إلى شخص أُختك زينب»[1].

ثانياً: ما نقل عن العقد الفريد في قصة طويلة، وفيها: أنّ رجلاً خطبها من أبيها، فزجره لوضاعته، ويبدو أنه الأشعث بن قيس[2].

ثالثاً: ما نقل من زواجها بعبد الله بن جعفر، فإنّه زواج مبكر، والظاهر أنه كان في حياة أبيها[3].

رابعاً: ما روي أنّها كانت ضمن المشيعين في الليل لنعش أُمها الزهراء عليها السلام، وإذن أمير المؤمنين عليه السلام للمشيعين بالانصراف فانصرفوا. وألقت زينب عليها السلام بنفسها على قبر أُمها، ولم تنصرف[4].

خامساً: ما روي من أنّها روت عن أُمها عليها السلام بعض الروايات حتّى عدت من رواة أُمها. ولا أقل أنّها روت الوديعة للحسين عليه السلام عن والدتها، وهي قولها عليها السلام: «قبّليه في

---

(١) زينب الكبرى، النقدي: ٢٢.

(٢) و (٣) المصدر المتقدّم: ٧٢.

(٤) لم نعثر له على مصدر.

صدره، وشمّيه في نحره»[١].

سادساً: ما روي عن دخولها على أخيها الحسن عليه السلام حال احتضاره. وفي رواية أنه أمر برفع الطشت الذي كان فيه الدم لكي لا تراه زينب عليها السلام[٢].

سابعاً: ما روي من وجودها عند خروج قافلة الحسين عليه السلام من المدينة متوجهاً إلى كربلاء. وقد ورد ما مضمونه: أن العباس عليه السلام هو كفيل هذه الحملة، ومع عدم وجوده فالكفيل هي زينب عليها السلام[٣].

اذن، فالنقل كثير لمن يبحث ويدقق. والظاهر أنه إنّما أصبح كأنه غير موجود، أمام الجاهلين والغافلين. بل يكفي هذا أيضاً لإثبات وجودها، فإنها مؤدية للاطمئنان مجموعاً. وخاصّة أننا إذا ضممناها إلى روايات الطف حصل التواتر بوجودها لو غضضنا النظر عن الأدلة السابقة.

مضافاً إلى أننا ينبغي أن نلتفت إلى كثرة الكتب التي أُحرقت وأُتلفت خلال التاريخ، عن عمد وغير عمد. فإنها تعدل مئات الألوف، ولعل فيها كثيراً من الأخبار والروايات التي ضاعت فعلاً. ومن جملتها ما نتوخى الحصول عليه من بعض أخبار أهل البيت عموماً، وزينب خصوصاً.

وأما عن قبرها فقد قال كحالة: وينسب إليها في مصر مسجدها، وفي سنة ١١٧٣ جدد بناؤه، وتوفيت عام ٦٥ للهجرة، ودفنت بقناطر السباع بمصر، ويزار ويتبرك به[٤]. وينسب إليها الشعر في رثاء أخيها الحسين عليه السلام وهو مشهور.

«مــاذا تَـقُولُونَ إنْ قَـالَ النَّـبِيُّ لَكُـمْ ... مــاذا فَـعَلْتُمْ وَأَنْـتُمْ آخِـرُ الأُمَـمِ

---

(١) لم نعثر له على مصدر.

(٢) زينب الكبرى، النقدي: ٢٢.

(٣) لم نعثر له على مصدر.

(٤) أعلام النساء ٢: ٩٩.

بِـــعِتْرَتي وَبِــأَهْلي بَــعْدَ مُــفْتَقَدي مِـنْهُمْ أُسـارىٰ وَمِـنْهُمْ ضُـرِّجُوا بِـدَمِ
ما كانَ هـٰذا جَزائي إِذْ نَـصَحْتُ لَكُـمْ أَنْ تَخْلُفُوني بِشرٍ في ذَوِي رَحِمي »[١]

ويقول فريد وجدي : إنه لزينب بنت الحسين عليها السلام .

وقال كحالة : وحدثت عن أُمها فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وأسماء بـنت عـميس ، وروى عنها محمد بن عمرو ، وعطاء بن السايب ، وفاطمة بنت الحسين عليها السلام[٢] .

واستمرت هذه العلاقة مع الحسين عليه السلام خلال عصر الأئمة عليهم السلام كـلهم . وكـانت تنتج كلا الهدفين : البعد عن الظلم والظالمين ، والقرب من رب العالمين . والروايات في ذلك ناطقة وطافحة . إذن ، فالعلاقة مع الإمام الحسين عليه السلام استمرت فـي تـلك الأجيال . أما المعصومون عليهم السلام فتصرفوا باتجاهها بما يوافق التقية التي يؤمنون بها ، وأما غيرهم فتصرفوا باتجاهها بدون تقية .

---

(١) تاريخ دمشق ٦٩ : ١٧٨ .

(٢) أعلام النساء ٢ : ٩٢ .

علاقة الحسين عليه السلام بالفقهاء والعلماء

نتعرض الآن إلى علاقة الفقهاء والعلماء بالحسين عليه السلام جيلاً بعد جيل. ونتعرض تحت هذا العنوان إلى المفاهيم والأحكام التي يمكن أن تستنتج من حركة الحسين عليه السلام وثورته ومقتله في واقعة الطف.

فإنّ الحسين عليه السلام أمام مفترض الطاعة، وقوله وفعله وتقريره حجة. ولكن الملاحظ أنّ الروايات عنه في غير واقعة الطف قليلة نسبياً، ولكنها موجودة ومتبعة ومنفذة كغيره من الأئمّة عليهم السلام. وهذا واقع صحيح في نفسه أكيداً.

فهل يمكن استنباط بعض الأحكام الشرعية الفقهية من واقعة الطف نفسها أو لا؟

جوابه: أنّ بالإمكان أن نذكر حكمين يمكن أن يستنتجا بوضوح من واقعة الطف:

أحدهما: عقائدي، وثانيهما: فقهي.

اما الحكم العقائدي فيتكون من فقرتين:

١ - إيجابية. ٢ - سلبية.

أما الفقرة الإيجابية فأن يستحق، أو بتعبير آخر أنّ طاعة الله سبحانه تستحق أن يفدي لها الإنسان كل هذه الأمور مهما عظمت أهميتها وقدسيتها، اجتماعياً أو إلهياً، أو قل دينياً أو دنيوياً. فكل شيء رخيص أمام الله تعالى من مال وجهد ونفس ونفيس ونساء وأطفال ورجال، شيباً وشباناً، على ما حدث فعلاً في واقعة الطف.

فإنّ عطفنا على ذلك ما روي عن زينب الكبرى عليها السلام أنّها وضعت كفيها تحت

الجثمان المقدس وقالت: «**اللهم تقبل منا هذا القليل القربان**»[١] على ما في بعض الروايات من وجود صفة (القليل). ونحن نتكلم على كلا التقديرين.

فعلى تقدير أن يكون (القليل) فيها فيبدو من الدلالة الالتزامية أو الدلالة السياقية لهذا الكلام، وهي دلالة أكيدة وواضحة. وهي إدراك زينب عليها السلام لحقيقة الموقف، أي أدراكها لنسبة شهادة الحسين عليه السلام إلى الله تعالى، وإلى عظمته وارتفاع شأنه وكونه الوجود اللامتناهي. فإذا أدركت الجانب الرئيسي من العظمة الإلهية، والأهمية الإلهية، ستكون حادثة الطف بكل تفاصيلها بما فيها شهادة الحسين عليه السلام بصفته إماماً مفترض الطاعة، ومعصوماً، وابن رسول الله صلى الله عليه وآله أمراً يسيراً وهيناً بإزاء العظمة اللامتناهية للخالق سبحانه وتعالى؛ لأنّ مصرع الحسين عليه السلام مهما كان عظيماً فهو محدود، والمحدود إذا نسب إلى اللامحدود يكون صفراً.

وأما على تقدير عدم وجود صفة (القليل) أمكن بتفسيرها بنفسير آخر. وهو أنهم عليهم السلام يدركون تدني شأنهم عن عظمة الله عزّ وجل إلى حد من المحتمل أن لا يتلفت الله إليهم ـ لو صح التعبير ـ ولا يتقبل منهم أعمالهم ولا يهتم بشأنهم، فإنهم ـ حسب هذه الفكرة ـ من الضآلة بحيث لا يستحقون الالتفات والقبول. ولذا تضع زينب عليها السلام يدها تحت القربان المقدس؛ لكي تقدمه تقديماً حسياً أمام الله سبحانه طامعة برحمته الواسعة في أن يتقبل هذا القربان برحمته لا بالاستحقاق، وتدعو بذلك: «**اللهم تقبل منا هذا القربان**»[٢]. كما ورد في بعض الأدعية: «**افْعَلْ بي ما أَنْتَ أَهْلُهُ، وَلَا تَفْعَلْ بي ما أَنَا أَهْلُهُ**»[٣].

وهذا معناه بوضوح أنه ليس هناك أي إعجاب بالعمل أو أي شعور بأهميته

---

(١) شجرة طوبى ٢: ٣٩٣.

(٢) حياة الإمام الحسين ٢: ٣٠١.

(٣) الكافي ٢: ٥٩٥.

بالرغم من أهميته. وإنّما هو ـ حسب الفكرة ـ تقديم قليل وضئيل ومستحق للرفض من قبل عظمة الله اللامتناهية. وقد ورد: «**أنه لا ينجي إلّا عمل مع رحمة**»(١).

أما العمل وحده من دون رحمة تجعله مقبولاً مبروراً، فليس من المنجيات. وأما الرحمة بدون العمل فإنها لا تأتي؛ لأن العمل يجعل للإنسان درجة من درجات الاستحقاق للرحمة. فالرحمة بدون عمل توقع للمستحيل.

إلّا أنّ الفكرة الأُخرى أيضاً صحيحة، وهي فكرة مقابلة لهذه الفكرة، فإنّ البشارة موجودة، وإن الله تعالى كريم لا بخل في ساحته، بل وسعت رحمته كل شيء، حتّى قال بعض أهل المعرفة: «إنك لو نقلت هذه (القشة) من هنا إلى هنا من أجله تعالى لما نسيها الله تعالى لك، ولجزاك عليها خيراً». وذلك لمدى الرحمة الواسعة اللانهائية التي تجعل الأمر مع شيء من الإخلاص بمنزلة الضروري. واليأس من رحمة الله تعالى حرام حقيقي. فلذا يطمع برحمته أكثر العصاة والكفار، حتّى إبليس. وباب التوبة مفتوح طول العمر، مهما كان الإنسان متطرفاً في الكفر وفي الفسوق والفجور.

فإن قلت: فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يكون موقف زينب عليها السلام هكذا؟ كأنها تشك في قبول العمل، مع أنّ الرحمة الشاملة توجب اليقين بالقبول.

قلنا: هذا من توفيق الله سبحانه لها، حيث يجعل في ذهنها الحال الذي يقتضي ذلك. وذلك لنفي العجب بالعمل والاعتداد بالنفس. الأمر الذي يسقط به العمل حتما أمام الله سبحانه. فإذا انتفى العجب حقيقة حصل الشعور بالضالة حقيقة. وإذا حصل ذلك حصل الشعور بعدم الاستحقاق الذاتي للقبول.

وبحسب النتيجة: أنّ هذا الكلام منها عليها السلام نفي للاستحقاق الذاتي للعمل لا للرحمة الواسعة. وليس نفياً لها. فالرحمة متوقعة وهي تدعو بالقبول ونزول

(١) الإرشاد ١: ١٨٢.

الرحمة. فهذه فكرة عن الجانب الإيجابي من حركة الحسين عليه السلام.

وأما الجانب السلبي، فهو عدم إعطاء قيمة عليا لأي عمل يقوم به أي إنسان من المسلمين أو الشيعة أو المخلصين أو الموالين أو الأولياء، ولأي عمل ديني أو دنيوي تجاه القياس بحركة الحسين عليه السلام، مهما عظم، سواء كان من سنخه أو من سنخ آخر، حتّى لو كان في نفع الدين ومصلحته؛ لأننا إما أن ننسبه إلى عظمة الله تعالى فيكون صفراً. وإما أن ننسبه إلى شهادة الحسين عليه السلام فكيون بمنزلة الصفر.

أو بتعبير آخر، أنه إذا كان الاستحقاق الذاتي للعمل تجاه الله تعالى غير موجوده أخلاقياً حتّى في واقعة الطف، كما نفهمه من كلام زينب عليها السلام وتصورها الموقف أمام الله تعالى. فكيف يكون موجوداً في ما هو أهون منه وأردأ. فهذا غير محتمل إطلاقاً.

أو بتعبير ثالث، أنّ العجب حيث إنه غير موجود وغير جائز حتّى بهذا العمل الذي لعله أعظم أعمال المعصومين عليهم السلام، فكيف يحصل العجب، أو يجوز العجب بالنسبة إلى غيره مهما زادت أهميته.

وقد قال بعض أهل المعرفة: إذا قال الخالق للمخلوق: أعطني شيئاً منك. فغاية ما يستطيع المخلوق أن يقول في الجواب: أُعطيتك نفسي. فيجيب الخالق: نفسك أنا وهبتها لك فأعطني شيئاً آخر منك، بحيث لا يكون متعلقاً بي ولا هبة مني. فينقطع كلام العبد.

وهذا ينتج أنّ التضحيات مهما جلت ليست شيئاً معتداً به في مقابل عظمة الله تعالى، فضلاً عن التضحيات البسيطة والاحتمالات الضعيفة ممّا قد يشعر به الفرد في حياته الاعتيادية من التضحية لله سبحانه وتعالى.

ولذا قال الشاعر:

انست رزاياكم رزايانا التي سلفت وهونت الرزايا الآتية

مهما كانت التضيحة عظيمة بالنفس والنفيس كشهادة الشهيد الأول والشهيد

الثاني، وهدم قبور المعصومين عليهم السلام في البقيع وغير ذلك. فإنها لا تقاس بعظمة الحسين عليه السلام فضلاً عن عظمة الله سبحانه. بل حتّى عمل الإمام المهدي عليه السلام بعد ظهوره سوف لن يكتسب الأهمية ذاتها. وقد قال بعض أهل المعرفة: «إن أصحاب الحسين أفضل من أهل بدر وأصحاب المهدي، لأنّ هؤلاء أقبلوا على الموت عالمين به يقيناً. وغيرهم ليس كذلك، بل كان احتمال النجاة موجوداً».

فهذه فكرة كافية نسبياً عن الحكم العقائدي، وهو الأول ممّا يمكن أن نستنتجه من واقعة الطف.

في احتمال ارتفاع حكم التقية:

وأما الحكم الفقهي، فإنّه قد يقال: بأننا نستطيع أن نستنتج من حركة الحسين عليه السلام بصفته إماماً مفترض الطاعة حكماً عاماً، وهو ارتفاع حكم التقية وجواز القيام بمثل ذلك لكل أحد ممن يتيسر له ذلك. باعتبار أن عمل الحسين عليه السلام من السنة القطعية، وهي قول المعصوم أو فعله أو تقريره، فيكون حجة على كل المسلمين، بل على البشر أجمعين.

وإذا خطونا خطوة أخرى في اتجاه هذه الفكرة فقد نقول: إنّ المسألة غير خاصّة بالحسين عليه السلام بل شاملة لكل المعصومين عليهم السلام، ونحن نعلم بطريقة موتهم، وأنهم ذهبوا اليها باختيارهم ومشوا إليها بأرجلهم وإرادتهم.

فإذا طبقنا تلك القاعدة التي قلناهم فعملهم أيضاً سنة، وسنة المعصوم حجة. إذن، يمكن لأي واحد منا ومن غيرنا أن يقبل على مثل ما أقبلوا عليه. فإذا دفع لي شخص سماً على أن أشربه، يجوز لي ذلك، كما فعل الإمام الرضا عليه السلام أو غيره من المعصومين عليهم السلام، فهل يفتي أحد بمثل هذه الفتوى؟

وجواب ذلك على عدة مستويات:

المستوى الأوّل: أننا إنّما نستطيع أن نعتبر العمل حجة عامة للجميع، وتكليف

يمكن الالتزام به من قبل الجميع فيما إذا استطعنا أن نجرده عن الخصوصية الشخصية. أو قل: إن نفهم أنّ الإمام عليه السلام إنّما فعله أو قاله بصفته واحداً من المسلمين، أو لتعليم سائر المسلمين بالقيام به. فعندئذ يكون وظيفة عامة لهم جميعاً. وأما مع الاختصاص به، أو قل احتمال الاختصاص به فليس الأمر كذلك. والاحتمال دافع للاستدلال، فلا نستطيع أن نستنتج عموم الكليف. فيبقى عمل غيرهم طبقاً للقواعد العامة الأُخرى؛ لأننا نحتمل أن بعض ما قاموا به من هذه الأُمور إنّما هو تكليف خاص بهم، أما لأنه يخص الإمام شخصياً أو يخص طبقة المعصومين عليهم السلام بالذات، وليس منا من هو معصوم بالذات.

المستوى الثاني: أننا لو تنزلنا عن المستوى الأول، فيمكن القول أيضاً بعدم إمكان التجريد عن الخصوصية وتعميم الحكم. وباعتبار أن لأعمالهم مصالح معينة هم يعرفونها. فاذا تحقق ذلك الموضوع في أي مكان أو زمان أمكن الاقتداء بأعمالهم جوازاً أو وجوباً. ولكن احراز تحقق الموضوع أو المصلحة أمر مشكل؛ لأنهم مطلعون على واقعيات كثيرة نحن نجهلها بالتأكيد، وخاصّة بعد الالتفات إلى احتمال أنهم يدركون من تفاصيل الموضوع ما لاندركه. فيكون هذا الأمر ساقطاً عن ذممنا ومورداً للقواعد العامة الشرعية والأُصول العملية.

المستوى الثالث: أننا نعرف اختلاف ردود الفعل من قبل الأئمّة عليهم السلام تجاه المظالم التي كانت تحصل في زمنهم، فالنبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والحسين عليه السلام كانوا محاربين، وباقي المعصومين عليهم السلام كانوا مسالمين، أو قل كانوا عاملين بالتقية والهدنة، ومنتظرين أمر الله سبحانه بالفرج.

فمع وجود هذا الاختلاف في ردود الفعل تجاه المظالم، والمفروض أنّ كليهما حجة وسنة، فأياً منهما نتبع ومنهج من نطبق؟ ولا يمكن تطبيق كلا المنهجين؛ لأننا سنقع عندئذ في تهافت، واجتماع الضدين مستحيل.

إذن، فمثل هذه السنة ستتعارض من حيث دلالتها على العموم وتتساقط.

وعندئذ تنتفي دلالتها على العموم ، أي شمول التكليف للآخرين ، ويبقى مورد التكليف مشمولاً للقواعد العامة والأصول العملية .

المستوى الرابع : أنّ مقتضى إطلاقات أدلة التقية هو وجوبها على كل حال ما دام موضوعها باقياً ، وهو قوة الظلم والظالمين في العالم .

أما بعنوان جواز الفرار من الزحف إذا كان المعسكر المعادي أكثر من الضعف من جيش المسلمين . وأما بعنوان عدم احتمال التأثير احتمالاً معتداً بـه ، وإنّما فقط نخسر شيئاً من النفوس والأموال بدون مقابل .

مع الالتفات إلى أنّ المسلك العام للمعصومين عليهم السلام كان على التقية بلا شك ، سوى بعض الحوادث المستثناة . حتّى إنّ أمير المؤمنين عليه السلام جلس في داره عشرين سنة تقريباً وقال : (فأجريتهما على ما اجريا)[١] .

كما ان الحسين عليه السلام كان في تقية قبل واقعة الطف ، ومن دلائل ذلك عدة أُمور :

١ ـ أنّ والي المدينة (الوليد بن عتبة) حينما طلب منه البيعة ليزيد لم يرفض بصراحة ، وإنّما أجاب بقوله : « وَلٰكِنْ نُصْبِحُ وَتُصْبِحُونَ »[٢] .

٢ ـ انتضاره إلى أن وصل إليه من الكوفيين اثنا عشر ألف كتاباً ، وكان يمكنه الاكتفاء بأقل من هذا العدد ، فإنّ عشرة أو عشرين كاف في ذلك . ونحن نعلم أنّ خبر الثقة الواحد كاف في الشبهات الموضوعية ، وهذا منها .

٣ ـ إرساله لمسلم بن عقيل عليه السلام للفحص في الكوفة ، وعدم مبادرته للذهاب إليها بنفسه . مع علمه أنّها كانت في ذلك الحين مخلصة له ، ومتجهة إليه ، وذلك قبل أن يصرفها عبيد الله بن زياد عن همتها ، ويغير اتجاهها .

---

(١) ورد في زيارة الغدير المرويّة عن الإمام العسكري عليه السلام : « فلمّا آل الأمر إليك أجريتهم على ما اجريا» . المزار : ٢٧٩ .

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف : ١٧ .

٤ـ خطبته الأُولى في الطف أمام معسكر الأعداء، وهو يعلم أنهم قاتلوه على كل حال، وذلك لأمرين: أحدهما مرتبط بهم، والآخر مرتبط به.

اما الأمر المرتبط بهم، فهو حصول أحد أمرين: إما هدايتهم إذا تابوا، وإما اقامة الحجة عليهم إذا أصروا.

وأما الأمر المربوط به، فهو ما أُسميه بالتقية، أو درجة منها. يعني التجنب عن التورط في الدماء مهما أمكن.

ولكنه حينما رأى منهم الاعراض عن الحق، والإصرار على الباطل، خطبهم خطبته الثانية. وهي تختلف اختلافاً جذرياً عن الأُولى. فكان في الخطبة الأُولى يبدو هادئاً، ولكنه كان يبدو ثائراً في خطبته الثانية، وتعتبر بمنزلة إعلان الحرب أمامهم؛ لأنه يصفهم بها بكل عظيمة. يقول فيها:

«وَلكِنْ أَسْرَعْتُم إِلَيْها كَطَيْرَةِ الذُّبابِ، وَتَداعَيْتُمْ إِلَيْها كَتَهافُتِ الْفَراشِ. فَسُحْقاً لَكُمْ يا عَبيدَ الأَمَةِ، وَشِذاذَ الأَحْزابِ، وَنَبَذَةَ الْكِتابِ، ومُحَرِّفي الْكَلِمَ، وَعَصَبَةَ الآثام، وَنَفَثَةَ الشَّيْطانِ، وَمُطْفِئِ السُّنَنِ. أَهؤُلاءِ تَعْضُدُونَ، وَعَنّا تَتَخاذَلُونَ؟! أَجَلْ وَاللهِ غَدْرٌ فيكُمْ قَديمٌ وَشَجَتْ إِلَيْهِ أُصُولُكُمْ وَتَأَزَّرَتْ عَلَيْهِ فُرُوعُكُمْ، فَكُنْتُمْ أَخْبَثَ شَجَرٍ شَجاً لِلنّاظِرِ وَأُكْلَةً لِلْغاصِبِ. أَلا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِي قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ: بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَهَيْهاتَ مِنّا الذِّلَّةُ، يَأْبَى اللهُ لَنا ذلِكَ، وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ، وَحُجُورٌ طابَتْ وَطَهُرَتْ، وَأُنُوفٌ حَمِيَّةٌ، وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ: مِنْ أَنْ تُؤْثِرَ طاعَةَ اللِّئامِ عَلىٰ مَصارِعِ الْكِرامِ»[١].

فهي خطبة حارة وثائرة، وتعتبر بمنزلة إقامة إعلان الحرب. فإنّه هنا قد بدل تكليفه من التقية إلى عدم التقية. فهو إلى تلك اللحظة كان في درجة من درجات التقية.

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٢٢.

علاقة الإمام المهدي عليه السلام بعد ظهوره بالحسين عليه السلام

وأما علاقة الإمام المهدي عليه السلام بعد ظهوره بالحسين عليه السلام، وهما من الأئمّة الاثني عشر المعصومين بالذات والمفترضي الطاعة، ومن أصحاب الولاية العامة التكوينية والتشريعية على الكون عامة وعلى البشر خاصّة. ومنه ما ورد عن الإمام المهدي عليه السلام نفسه من أن نفعه حال غيبته كالشمس إذا حجبها السحاب. فهو يمثل نفسه بالشمس، ويمثل الغيبة بالسحاب. وهو سحاب متحرك سرعان ما يزول وتطلع الشمس ويعرفها الناس أجمعون.

ويمثل نفعهُ وتأثيره في أداء مسؤوليته بتأثير الشمس في الأرض، ولولاها لما وجد نهار وليس هذا فقط، بل لما عاش إنسان ولا حيوان ولا نبات على وجه الأرض. فهي معد ـ في اصطلاح الفلسفة ـ لابتداء وجود هذه الأُمور ولاستمرارها. وكذلك هو معد لأصل وجود ذواتهم بالولاية التكوينية، ولتدبير أُمورهم بالولاية التشريعية. وكلاهما لديه كما هي لدى آبائه عليهم السلام.

وقد ورد أنه يطأ فرشهم، ويحضر مواسمهم، حتّى ما إذا ظهر قال البعض: إني قد رأيته قبلاً. يعني رأيته ولم أعرف أنه المهدي عليه السلام، ولو كان قد عرفه أنه المهدي لما قال هذا الكلام.

وظاهر بعض الروايات أنه يزور قبور المعصومين عليهم السلام ويحج في كل سنة بطي الأرض، ويحضر في مسجد السهلة والكوفة والقدس. كما أنه يحضر المواسم، يعني المناسبات العامة لمواليد الأئمّة عليهم السلام ووفياتهم، وبعض المجالس التي تقام

بذكر آبائه عليهم السلام بما فيهم مجالس الحسين عليه السلام . ويستشهد لذلك برواية وردت عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيها ما مضمونه : أن هناك مجلساً حضره جماعة من الشيعة . فخرج رجل منهم وقابل الإمام عليه السلام فروى له الأمر . فقال الإمام عليه السلام : « بلى ، فقد كنت حاضراً » . فقال الرجل : لم أرك يا سيدي . فقال الإمام عليه السلام : « إنك حينما خرجت عثرت بثوب أبيض » . فقال الرجل : نعم . فقال الإمام عليه السلام : « هذا الثوب ثوبي »[1] .

وهذه الرواية وإن كانت ليست عن المهدي عليه السلام ، لكنها إذا أمكنت للصادق عليه السلام أمكنت للمهدي عليه السلام للمماثلة ، أو بطريق أولى .

إذن ، فحضوره بشكل غير دنيوي لو صح التعبير ، وإنّما هو مستوى من مستويات التجرد .

إلّا أنّ الذي ينبغي أن نلتفت إليه هو أن الارتكاز المتشرعي يقضي أنه يحضر كل المجالس التي تقام للمناسبات الدينية .

وأما أنا فأقول : « إنه يحضر المجالس المخلصة فقط دون سواها » . فما كان فيها من الشرك الخفي تركه لا محالة ، كحب الدنيا والسمعة والمال ونحو ذلك من الأُمور .

كما أنه عليه السلام لا ينقذ كل متورط ، بل خصوص من يخلص في دعائه وندائه . وأما الذي لا يخلص أو الذي لا يدعو فلا إنقاذ له . ومن هنا نجد الروايات في إنقاذ المتورطين قليلة نسبياً ، إلّا أنّها موجودة بالعشرات .

وهذا الأمر لا زال وسيبقى موجوداً ، ولكن بشرطين :

أحدها : الإخلاص .

ثانيهما : الطلب . فإذا لم يكن الإخلاص موجوداً لا يأتي لإنقاذه . واذا لم يحصل الطلب فلا إنقاذ . ولا يحصل الطلب لأحد سببين :

١ ـ التدني الشديد ، بحيث لايعتقد أنّ الإمام ينقذه ، ونحو ذلك .

---

(١) لم نعثر على المصدر .

٢ ـ الارتفاع الكامل ، وأنه يقبل بكل ما قضى الله تعالى وقدر.

والحضور المتصور له في المناسبات وغيرها يمكن أن يكون على ثلاثة أشكال غير متكاذبة ، أي في الإمكان تحققها جميعاً خلال الزمان ، كل واحد حسب استحقاقه.

الشكل الأوّل : الحضور الروحي فقط . ومحصله هو الحب القلبي والميل النفسي لما يقع . وبطبيعة الحال فهم يميلون عليهم السلام إلى طاعة الله تعالى ، وكل من يقوم بها . إذن ، فهم يكونون معه بشكل وبآخر.

وأنا سمعت عدة مرات من عدد من الخطباء يقسم أنّ الزهراء عليها السلام حاضرة في هذا المجلس ، ويشير إلى المجلس الذي يتحدث فيه . أو يقول : أنا أعتقد أنّها حاضرة . وأما أنا فأعتقد أنه يتزلف بذلك إلى صاحب المجلس ، وإلّا فالمعصومون عليهم السلام لا يحضرون إلّا مع الإخلاص الكامل لدى صاحب المجلس .

والمهم الآن أن نلتفت إلى أنّ الزهراء عليها السلام إنّما تحضر بالحضور الروحي لا بالحضور الجسدي . ولذا يتصورها المتشرعة تنزل من عليائها من فوق ، لا أنّها تدخل من الباب كما يدخل الآخرون .

فهنا قد يكون حضور المهدي عليه السلام روحياً كحضور الزهراء عليها السلام .

واما الشكلان الآخران فيحتاجان إلى مقدمة وحاصلهما . أننا قلنا في تاريخ الغيبة الكبرى : إن الغيبة يمكن أن تكون على نوعين غير متنافيين ، يعني يمكن الجمع بينهما ، هما خفاء الشخص وخفاء العنوان . ونريد بخفاء الشخص أنه يكون حاضراً غير مرئي ، ونريد بخفاء العنوان أن يكون حاضراً مرئياً ، ولكنه بصفة أُخرى مثل الحاج سعيد الخياط مثلاً ، ولا نعلم أنه المهدي عليه السلام .

فالشكل الثاني : أن يكون حضوره بنحو أُطروحة خفاء الشخص . يعني يدخل المجلس وهو غير مرئي . وهو غير الحضور الروحي الذي تحدثنا عنه .

الشكل الثالث: أن يكون حضوره بنحو أُطروحة خفاء العنوان. فأنت تقول: جاءني الحاج سعيد الخياط، الذي لا تعلم أنه المهدي عليه السلام.

وكذلك بإحدى هاتين الأُطروحتين أو الأُسلوبين يمكن أن يحضر سائر المناسبات، وزيارات قبور آبائه، والحج. وبهذا أيضاً يمكنه أن يقوم بسائر أعماله المتعلقة بمسؤوليته.

وقد قلنا في المصدر المذكور: إنّ الأغلب من وضع الإمام عليه السلام حسب ما نفهمه هو أُطروحة خفاء العنوان، يعني أنْ يعيش في المجتمع غير معروف الهوية والواقع، ما لم تقتض مصلحة غيبته أو ظهوره حصول خفاء الشخص، فيختفي لدفع ضرر عنه، ونحو ذلك. وذلك لأجل نظرية عامة قلناها هناك. وقد كتبت موسوعة الإمام المهدي عليه السلام طبقا لها. تقول: إنّ المعجزة لا تحصل إلّا عندما تقتضي مصلحة الهداية ذلك بإذن الله سبحانه.

فاذا لم تقتض المصلحة ذلك فلا حاجة إلى المعجزة. وهذا يترتب عليه نتائج كثيرة جداً. فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حارب بدون معجزة في انتصاره. وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام وكذلك الحسين عليه السلام. وكذلك المهدي عليه السلام بعد ظهوره.

ومنه أيضاً أنّ أُطروحة خفاء الشخص لا تحدث إلّا بالمعجزة، فإذا لم تكن هناك مصلحة للمعجزة لم تحدث تلك الأُطروحة، وأمكن القول بأنّ الإمام المهدي عليه السلام يعيش في المجتمع كفرد عادي. كل ما في الأمر أنه مجهول العنوان.

إلّا أنني بعد ذلك حاولت إعادة النظر في هذه القاعدة العامة؛ لأنني إنّما كنت إنّما كنت أعتقد بها؛ لأنني سمعتها من أسلافي، لا لقيام الدليل عليها حقيقة. وهي لها منحى مادي إلى حد ما؛ وذلك لأنّ فيه احتراماً لما يسمى بالقانون المادي أو الطبيعي. وقد ذكرت في اليوم الموعود أنّ القوانين الطبيعية ليست بصحيحة، فليس لها وجود خارجي. ومن العجيب أن الماديين يؤمنون بها على الرغم من أنهم يقولون: ما ليس بمحسوس ليس بموجود. فالقانون كقانون ليس بمحسوس بطبيعة

الحال. فهم يعتقدون أن الإحساس بالمعلول إحساسٌ بالعلة، ومع ذلك فانهم يعتبون علينا حينما نؤمن بوجود الله تعالى باحساسنا بمعلولاته.

ففكرة القانون كلية، والخارج هو عالم الجزئيات؛ لأنّ الذهن حينما يرى أفراداً كأفراد الإنسان، فإنّه يحمل عنها فكرة مشتركة ويسميها الإنسان.

فالذهن ينتزع معنى عاماً نسميه بقانون الجاذبية أو غيره، والصورة الذهنية يستحيل أن تؤثر في الخارج.

الخطوة الأُخرى بهذا الصدد: أننا تعبدنا بما علّمنا به أئمتنا عليهم السلام وهو أنّ الكون الخارجي محرك بأسباب خارجية، وعلل موجودة، هي بالدرجة الأُولى الملائكة. وهم (قوانين القوانين) حسب ما عبر عنه السيّد أبو جعفر قدس سره. وفي المرتبة التي فوقهم أرواح المعصومين عليهم السلام وأنوارهم، فهم أبواب الله وامناؤه.

فالفكرة التي تقول: إنّ المعجزة لا توجد إلّا لضرورة قد انتفت، فإنّه لا دليل عليها.

فإذا كان المطلب كذلك، إذن لا يختلف ما يقع في الخارج بين أن يكون بإدراكنا طبيعياً أو معجزة في كونه بإرادة الله تعالى وتأثير العلل العليا. وقد كنت أقول لبعض طلابي: إنّ كل شيء يحدث بمعجزة، إلّا أننا اعتدنا على بعض الأشياء فحسبناها قوانين طبيعية، ولم نعتد على البعض الآخر فحسبناها خرقاً للقوانين.

نعم، الهداية من موارد إمكان المعجزة، ولعلها ألطف مكان لها. ولذا يقوم الأنبياء والأوصياء بمعاجزهم لإثبات صدق مناصبهم، هداية للناس. إلّا أنّ بين الهداية والمعجزة عموماً من وجه. فقد يكون مورد الهداية بدون معجزة، وقد تحدث المعجزة لأمر آخر غير الهداية.

إن قلت: فإنّ اختفاء الإمام عليه السلام بعد لقائه إنّما هو معجزة للحماية لا للهداية.

قلنا: بل للحماية والهداية معاً؛ لأنّ هذه الحماية لأجل بقائه إلى حين الظهور

وحصول هداية الناس للحق. مضافاً إلى هداية الشخص الذي يراه بنفسه. مضافاً إلى كونها امتحانا للموالين، وقد ورد: «وقد علم أنّ أولياءه لا يرتابون، ولو علم أنّهم يرتابون ما غيّب حجّته عنهم طرفة عين»[١].

فإن قلت: إذن لماذا لم يستعمل النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والحسين عليه السلام والمهدي عليه السلام المعجزة في قتال أعدائهم؟

قلنا: ذلك له نظام آخر داخل في نسق التدبير العادل الكامل الذي يدبر الله تعالى به خلقه كونه، وكثير من فقراته مجهولة لدينا، أو هي من الأسرار التي لا يعرفها إلّا خاصّة الخلق والراسخون في العلم.

والشيء المعروف لدى خاصّة المتشرعة ما قاله في القرآن الكريم: ﴿ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾[٢]؛ لأجل ذلك لم يكثر وجود المعجزة، لكي يكون الإيمان ممحصاً، ليصبح مخلصاً. وإلّا فالإيمان السهل الساذج لا يكون ممحصاً فلا يكون مخلصاً، فينسد باب التكامل الأعلى.

ومن زاوية أخرى قريبة يمكن أن نقول: إنّ الأشياء تعرف بأضدادها. فإذا عاش الفرد الإيمان والعدل ورآه طبيعياً ساذجاً لم يعرف نعمة الله عليه. وإنّما المهم أن يقارن حسياً بين العدل والظلم، والصلاح والفساد، ليستطيع أن يقول بإخلاص: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق. ونودوا أن تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون.

إذن فمن الصحيح أنّ الأصل هو قلة المعجزة، وأن الله تعالى يريد أن يري الناس الأشياء سائرة على الطريق الطبيعي الاعتيادي. فمثلاً إذا أراد الله تعالى استجابة الدعاء أحدث له سبباً، لا أنه يستجيب بالمعجزة. وبحسب تعبير السيّد أبي

---

(١) معجم أحاديث الإمام المهدي (عج) ٣: ٣٩٩، والكافي ١: ٣٣٣.

(٢) الأنفال: ٤٢.

جعفر عليه السلام: أنّها تتميع في الطريق. وبحسب فهمي: أنه يقصد أن الله تعالى يلبسها ثوب القانون الطبيعي وليس شيئاً خارقاً للعادة.

فإن قلت: إنه يظهر من الكتاب والسنة أنّ المعجزات كانت تحصل فيما قبل الإسلام أكثر ممّا تحصل فيما بعد الإسلام. حتّى في زمن الأئمّة عليهم السلام، فإنهم قللوا المعجزات إلّا بمقدار أقصى الضرورات. مع العلم أنّ المناسب هو العكس؛ لأننا نعرف ارتفاع شأن قادة الإسلام عن القادة السابقين.

وجوابه: من عدة وجوه:

أوّلاً: أنه لا دليل على ذلك. كل ما في الأمر أنّ المعجزات منقولة عن العصور السابقة على الإسلام. وأما إذا لاحظنا نسبتها إلى الزمان والمكان الذي وقعت خلاله، وهو مكان واسع جداً، وزمان طويل جداً، لما وجدنا لها نسبة عالية إطلاقاً.

ثانياً: أننا ندعي - لا أقل بنحو الأُطروحة - أنّ هذا الذي قلناه بالجواب الأول ليس بصحيح، وكانت المعجزات كثيرة قبل الإسلام. لكننا نقول: إنّ المعجزات بعد الإسلام أيضاً كثيرة جداً بالمقدار المناسب لها، لكن الغافلين والسادرين بأمور الدنيا يدعون أنّها قليلة نعم، المعاجز المعلنة في عصر الإسلام قليلة، إلّا أنّ أصل وجود المعجزة بغض النظر عن إعلانها متوفرة.

ثالثاً: أنّ أمة الإسلام هي الأُمة المرحومة، يعني أنّ العقوبات الدنيوية المعجلة، وإنْ كانت تستحقها، إلّا أنّها لا تأتي؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله هو نبي الرحمة. فمن حين بعثته إلى يوم القيامة انقطع هذا الزخم من العقوبات الذي كان موجوداً قبل ذلك، وبذلك انقطع عدد كبير من المعجزات؛ لأن كثيراً من العقوبات السابقة إنّما كانت تأتي على نحو المعجزة، فبانقطاعها انقطعت كثير من المعجزات.

رابعاً: أنّ هناك تعمداً في الحكمة الإلهية لتقليل المعجزة بعد الإسلام؛ لكي ينال كل شخص استحقاقه. فإذا كانت له قابلية الفسق أو الكفر أو نحو ذلك فلتاخذ طريقها

تماماً ، فلعله إذا رأى معجزات كثيرة أن يتوب أو يؤمن ، إلّا أنّ المصلحة لا تقتضي ذلك . بل ينبغي أن يؤخذ الايمان من أي فرد صعباً وببط وليس سهلاً . كما قال تعالى : ﴿ **إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴾[1] ، يعني ولكننا لا نفعل ذلك .

فإن قلت : فإنّ هذا بنفسه ينطبق على ما قبل الإسلام ، أو قل ينطبق على البشر أجمعين . فلماذا كانت المعجزات قبل الإسلام اكثر ؟ لو قبلنا ذلك وتنزلنا عن الوجوه السابقة .

جوابه : أنه يمكن القول : إنّ مستوى البشرية كان مختلفاً جداً من حيث إنّ (الطبع العام) لو صح التعبير كان متدنياً ، يندرج في ذلك تدني ذكائهم وثقافتهم وضعف نفوسهم ومستوياتهم الروحية والمعنوية . مضافاً إلى تدني دعوة أنبيائهم عن دعوة الإسلام . وتكون النتيجة أنهم بمنزلة السفهاء لو حصل قياسهم إلى البشرية بعد الإسلام ، فإنهم أكثر وعياً وعقلاً وثقافة وصبراً ، سواء كانوا مسلمين أم لم يكونوا .

وهذا من أهم الأسباب التي ندركها لنسخ الشرائع السابقة ؛ لأنها لا تصلح لتربية الأجيال الواعية المتأخرة . وخاصّة بعد أن أدت تلك التعاليم وظيفتها في تربية البشرية وانتهت . وأما من بقي على تلك الأديان فهو جاهل من هذه الناحية ؛ لأنه يتخذ الدين البسيط طريقاً للتربية المعمقة وهو مستحيل ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه ،كما يقولون .

وعندئذ يمكننا أن ندرك أنّ التبليغ للسفيه وأضرابه ينبغي أن يكون أوضح وأشد تركيزاً من التبليغ لغيره . ولذا اقتضى ذلك زيادة المعجزات .

خذ إليك مثلاً : أنّ إعلام الطفل أو الاطفال يحتاج إلى كلام أطول واوضح ، وإلى وسائل إيضاح وروسومات ونحو ذلك . في حين يكون الكبير مستغنياً عنها بوضوح .

---

(١) الشعراء : ٤.

فمن الممكن القول: إنّ عصور ما قبل الإسلام تمثل دور طفولة البشرية، في حين يمثل الإسلام زمان رشد البشرية ونضجها. ومن هنا احتاج العصر السابق إلى معجزات.

فإن قلت: فهل يمكن أن تدخل البشرية رشدها ونضجها في زمن قصير نسبياً، وهو زمن البعثة؟

قلنا: كلا، لم يحصل ذلك. بل التكامل تدريجي وبطي، حصل على أيدي الأنبياء السابقين جميعاً، مضافاً إلى البلايا الدنيوية التي مرت بها البشرية وشاركت في التربية.

غير أنّ الله تعالى يعلم أنّها قد بلغت النضج الكامل عند بعثة الرسول صلى الله عليه وآله. ومن نتائج ذلك في محل حديثنا: أنّها كانت قريبة من النضج منذ زمن بعثة عيسى عليه السلام إلى زمان الإسلام. ومن هنا يمكن القول بقلة حصول المعجزات خلال هذه الفترة أيضاً.

فهذا هو موجز عن علاقة الإمام المهدي عليه السلام بالحسين عليه السلام في عصر الغيبة، مع ما نجر إليه الكلام من متعلقات وتفاصيل.

وأما علاقته بالحسين عليه السلام بعد ظهوره: فاهم ما يواجهنا من ذلك: أنه موجود في الروايات أنّ من اهم شعاراته: (يا لثارات الحسين) فإنّه يظهر ويثأر للحسين عليه السلام[(١)].

فإنّ هذا الجانب، وهو جانب الثأر للحسين عليه السلام له منشئان:

١ ـ **منشأ ثبوتي:** أي واقعي.

٢ ـ **منشأ إثباتي:** أي إعلامي.

أمّا المنشأ الثبوتي الواقعي، فإنّ الدعوة المهدوية في حقيقتها عين دعوة الحسين عليه السلام، وهدف المهدي عليه السلام في حركته هو نفس هدف الحسين عليه السلام. وهو إقامة

---

(١) انظر: عيون أخبار الرضا ٢: ٢٦٨، الأمالي، للصدوق: ١٩٢.

الطاعة الكاملة لله عزّ وجلّ على وجه الأرض.

فإن قلت: إنّ هدف المهدي عليه السلام يختلف عن هدف الحسين عليه السلام، لأنّ هدف المهدي عليه السلام هو إصلاح كل العالم، فإنّه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

وأما هدف الحسين عليه السلام فإنّه يستفاد من كلامه عليه السلام: **«وَإِنّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِراً، وَلَا بطراً، وَلَا مُفْسِداً وَلَا ظَالِماً، وَإِنَّما خَرَجْتُ لِطَلَبِ الإِصْلاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله»**[(١)]، فإنّه يحمل همّ المجتمع الإسلامي وليس وجه الأرض كله.

جوابه من عدة وجوه:

أوّلاً: أننا حينما قلنا: إنّ هدف المهدي عليه السلام وهدف الحسين عليه السلام واحد، كان النظر إلى الهدف المشترك بينهما، وهو إيجاد طاعة الله تعالى وإصلاح الناس بمقدار ما هو ممكن. فكل واحد منهما يبذل امكانه في سبيل هذه النتيجة. وبهذا يفترق كل واحد منهما عن الآخر، فبحسب إمكانيات الحسين عليه السلام فإنّه يصلح العالم كله. وهذا لا ينفي أنهما مشتركان في الهدف، فكلاهما يريد أن يطبق طاعة الله تعالى.

ثانياً: أنّ غرض الحسين عليه السلام وتصريحه إنّما هو بمقدار (ثبوتي) وهو ما هو ممكن في ذلك الحين. وليس من المعقول أن يعرض هدفاً خارج إمكانه، فالله تعالى لا يريده منه، والناس أيضاً لا يتوقعونه. وبمقدار (إثباتي) أنه بمقدار ما يعقله الناس، وأما مازاد على ذلك فهو غير مناسب مع عقولهم في ذلك الحين؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون كل العالم عندئذ فضلاً عن أن يتوقعوا هدايته.

مضافاً إلى أنّ الحسين عليه السلام لو كان قد انتصر انتصاراً دنيوياً، ووفق لسعة حركته وقوته وسيطرته على المجتمع، لتوسع إلى هداية كل الناس بالتأكيد.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

ثالثاً: أننا نستطيع أن نفهم من الأمة: (الأُمة المدعوة، لا الأُمة الداعية). فإنّ الله تعالى أرسل رسوله صلى الله عليه وآله للبشر أجمعين. إذن فأمة محمد صلى الله عليه وآله هم كل البشر.

فالأُمة الداعية هم المسلمون. والأُمة المدعوة هم باقي البشر، فهم أُمة محمد صلى الله عليه وآله وإن أنكروا. إذن فالإصلاح الذي طلبه الحسين عليه السلام إنّما هو في أُمة جده صلى الله عليه وآله الداعية منها والمدعوة أيضاً.

وأما المنشأ الإثباتي الإعلامي، فهو الاستفادة الإعلامية لكسب الرأي العام إلى صالحه، من حيث إنّ الحسين عليه السلام هو أوضح أشكال الحق المهتضم والمظلوم. ولا يوجد في البشرية من ينتقده إلّا النادر جداً، ولا يوجد من لا يأسف على مقتله إلّا القليل القليل. ومن ثم فسوف تكون نصرة الحسين عليه السلام من أعظم الشعارات الإسلامية التي توجب له النصر والتقدم.

ونحن نعلم أنّ أي حركة إذا أُريد لها النجاح، أو قل إذا أرادت قناعة الناس بها، فإنها تحتاج إلى شعار مسلم الصحة جمهورياً أو شعبياً أو عند الأعم الأغلب من الناس.

ومن أمثلة ذلك: إنّ أي اتجاه في البلاد الإسلامية سواء كان محقاً أم مبطلاً، ينبغي أن يعلن مناوءته لاسرائيل لكي يقبله الناس، ويكسب الرأي العام إلى جنبه. ولكن ماذا لو لم تكن إسرائيل موجودة؟ ماذا كان يقول الناس، وكيف تتكلم وسائل الإعلام؟ الله أعلم.

وعلى أي حال فنصرة الحسين عليه السلام حق، وعداء اليهود حق، ومن المحتمل أيضاً، بل من المؤكد اتخاذ المهدي عليه السلام شعار عداء اليهود، بل مبادرته لقتالهم والقضاء عليهم. وهذا ما ورد في كتب الفريقين. وفي بعض الروايات أنه يتتبعهم تحت كل حجر ومدر، حتّى يقول الحجر: هذا تحتي يهودي فاقتله.

تبقى بعض الأسئلة حول نصرة الحسين عليه السلام أو قل أخذ المهدي عليه السلام بثاراته.

أولاً: أن يقال: كيف يحصل ذلك مع أن قتلة الحسين عليه السلام قد ماتوا قبل سنين طويلة، ولا وجود لهم على وجه الأرض لكي ينتقم منهم. مضافاً إلى أنّ التوابين والمختار الثقفي قد بادروا إلى الانتقام منهم في ذلك الحين. فهل من العدل أن يحصل القصاص مرتين ؟

جوابه من عدة وجوه:

الأوّل: من زاوية الافتراض الأقرب الارتكاز المتشرعة أنه لاينتقم من أشخاص المعسكر المعادي للحسين عليه السلام، وإنّما من بعض الناس الذين يعيشون في زمان المهدي عليه السلام. حينئذ نقول: بأنّ هناك اتجاهاً فكرياً لإعطاء وحدة لمجموعة من الناس بالرغم من عدم اجتماعهم بالزمان ولا بالمكان. وهذا الاتجاه موجود في القرآن الكريم، فمثلاً في سورة البقرة حينما يقول:

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[1]، فإنّه يعتبر المجموع مجموعاً واحداً. فيقول:

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾[2]، في حين أنه انزله على أجيالهم السابقة. ويقول:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا ﴾[3]، وإنّما قتلها السابقون. ويقول:

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[4]. ويقول:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾[5]، وغير ذلك،

---

(١) البقرة: ٤٠.

(٢) البقرة: ٥٧.

(٣) البقرة: ٧٢.

(٤) البقرة: ٥١، ٥٢.

(٥) البقرة: ٦١.

وإنّما حصل كل ذلك في أجيال سابقة .

وليس ذلك جزافاً ؛ لأن القوم أنفسهم يشعرون بالوحدة فيما بينهم ، فكان ما حصل في أي جيل قد حصل في كل جيل . وكأنّ المتأخرين كانوا حاضرين مع المتقدمين ، وكلهم بنو إسرائيل كوحدة متكاملة . وكذلك كل قوم تجمعهم وحدة معينة مستمرة في أجيال عديدة مثل العشيرة أو الدين أو المذهب وغير ذلك .

إذن ، فقتلة الحسين عليه السلام بلحاظ هذه الوحدة موجودون ، إما بعنوان العشيرة أي بنو أُمية ، وإما بعنوان المذهب ، وإما بأي عنوان آخر .

الثاني : الاتجاه القائل : (الراضي بفعل قوم أو شخص كفاعله) . ويراد بذلك الرضا بالسيئات ، فمن رضي بالسيئة فهو كفاعلها ، يعني مثله من جميع الجهات . وليس الراضي بالحسنة كفاعلها ، وإنّما يحصل على ثواب الرضا فقط . فقد يكون جالساً في بيته ويرضى عن ألف شخص يصلون صلاة الليل ، فهل يكون له ثواب ألف صلاة ؟ طبعا لا .

فإذا كان الأمر كذلك ، فإنّ كل من رضي بفعل قتلة الحسين عليه السلام فهو كمن قتل الحسين عليه السلام ، ويستحق القصاص برضاه بمقتل الحسين عليه السلام .

الثالث : أنه يوجد في كل جيل طبقة من الناس المتطرفين في الظلم ، بحيث لو كان الحسين عليه السلام موجوداً لقتلوه . وهم على استعداد فعلاً أن يفعلوا شيئاً كواقعة الطف ، يعني ان مستواهم النفسي والعقلي والاجتماعي والديني مناسب لذلك . إذن فالقصاص يأتي على هذه الجريمة ، وهي الحفاظ على هذا المستوى المتدني وعدم التوبة منه .

الرابع : أن كل ما مر من الأجوبة السابقة على اعتبار أنّ المهدي عليه السلام يقتل عدداً من الناس بعنوان أنهم قتلة الحسين عليه السلام . وهذا لم يثبت وإنّما المراد بتلك الشعارات مجرد الإشارة إلى اتحاد الطريق والهدف بينه وبين الحسين عليه السلام .

الخامس: أنه من المحتمل ـ كأُطروحة ـ أنه يُخرج قتلة الحسين عليه السلام من قبورهم ويحييهم ويقتلهم من جديد. وحينئذ يصدق شعاره فعلاً. ومن المحتمل أيضاً ـ كما يحتمل ورود ذلك في بعض الروايات ـ أنّ الحسين عليه السلام إذا رجع يُعطى هذه الصلاحية، فيستخرج قتلته ويقتلهم بنفسه. وإن كانت هذه الرواية على تقرير وجودها ضعيفة، وقابلة للمناقشة دلالة؛ لأنّ المنساق منها هو التشفي والانتقام، ونحن نجل المعصومين عليهم السلام عن مثل هذا المستوى. إلّا أن يراد به مصالح ثانوية مناسبة مع هداية أهل ذلك العصر الذي تحدث فيه هذه المعجزة وما بعده.

السادس: أنه وردت رواية معتبرة السند من روايات الرجعة، أنه يرجع من محض الإيمان محضاً، ومن محض الكفر محضاً[١].

والمفهوم متشرعياً أنّ الرجعة تكون في عصر ظهور المهدي عليه السلام ووجوده. فإنْ حدثت بعده فلا كلام لنا الآن. ولكن إنْ صح هذا الفهم المتشرعي، فمعناه أنه يعود أهل الإيمان العالي في عصره عليه السلام من أجل المشاركة والمعاونة في إحياء الحق وإماتة الباطل، وإقامة دولة الحق، ومباشرة تطبيق الإسلام على وجه الأرض كله.

وفهم المتشرعة أن الذي يرجع هم أهل الحق بعد الإسلام لا قبله، ومقتضى القاعدة ذلك، للنضج والرشد الذي يتصفون به ممّا لا يتصف به السابقون، ولكن إطلاق الرواية يقتضي العموم والشمول. فلا يبعد أن يرجع أي شخص إذا كان في المصلحة والاستفادة أن يرجع إلى الدنيا.

وعلى أي حال فقد وردت رواية كمصداق لهذه القاعدة، تقول بما مضمونه: إنه يرجع سلمان وحذيفة وعمار وأبو ذر وأضرابهم[٢]، يعني ممن محض الإيمان محضاً.

---

(١) بصائر الدرجات: ١٨٨.

(٢) انظر: كتاب سليم بن قيس: ١٢٩، بحار الأنوار ٥٣: ٦٨.

كما أنّ المفهوم متشرعياً أمران:

١ ـ أنه يعود من محض الكفر محضاً ممن هم بعد الإسلام لا قبله.

٢ ـ أنهم يعودون ليس لأجل مباشرة الحياة الاعتيادية فعلا من ممارسة الحكم، وإنّما لأجل التنكيل بهم والانتقام منهم.

وكلا الأمرين مناسبان مع الطبع، ولا حاجة إلى مناقشتهما. ويكفي أن نلتفت إلى أنّ المهدي عليه السلام في غنى عن أن يجمع حوله الموتى من الكفار والمنحرفين الموجودين في طول البشرية. وإنّما يخرج جماعة كنماذج مهمة، ويمارس قتلهم لأجل وجود الحكمة والمصلحة.

وعلى أي حال فمن هذه القاعدة يمكن أن نفهم إمكان أن يرجع بعض شهداء كربلاء، باعتبارهم ممن محضوا الإيمان محضاً، ليمارسوا طاعة الله تعالى والإعانة عليها، وليخدموا المهدي عليه السلام كما خدموا الحسين عليه السلام.

وفي المقابل يمكن أن نفهم أنه يرجع إلى الدنيا بعض أعداء الحسين عليه السلام في واقعة الطف، يعني من المتحمسين والمتطرفين ضده، ولم يكونوا كلهم كذلك، كما قلنا في (الاضواء). إذن، فقد توصلنا مرة أُخرى لكونهم يعودون إلى الدنيا، ليمارس المؤمنون قتلهم والتنكيل بهم، من حيث ليس لهم قوة الدفاع ولا حمل السلاح. وربما يمارس ذلك هؤلاء المؤمنون من أهل الطف أنفسهم.

فإن قلت: فإنّه يلزم من ذلك أخذ القصاص أكثر من مرة من أي شخص منهم، وهو خلاف العدل الإلهي. وقد حصل من قبل المختار الثقفي رحمه الله ولا يمكن أن يتكرر.

قلنا: هذا فيه عدة أجوبة:

منها: أنّ القصاص يجب أن يكون من ولي الدم، أو من يأذن له ولي الدم. وولي دم الحسين عليه السلام بالأصل هو رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالمرتبة الثانية المعصوم الذي يكون موجوداً في عصره.

ومن الواضح أنّ المختار ﷺ كان متبرعاً بعمله، ولم يأخذ إذناً بحسب الظاهر من ولي الدم الفعلي الذي هو الإمام السجاد عليه السلام. ومن هنا فإنّ قصاصه ليس بحجة، وإنّما كان مجرد انتقام إلهي معجل لهؤلاء القوم المتطرفين الضالين.

ومن هنا يتعين أن ينزل القصاص أحد المعصومين عليهم السلام، وحيث لم ينزله احد من السابقين منهم، إذن فيتعين أن ينزله المهدي عليه السلام.

ومنها: أنّ هناك أنواعاً من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة، تكون سبباً لغفران الذنوب وستر العيوب، ومعنى ذلك أنّ الله تعالى برحمته الواسعة لا يريد ان يدخل الناس جهنّم، ويتوصل بمختلف الأساليب لأجل هذه النتيجة. فبلاء الدنيا موجب لغفران الذنوب لدى البشر.

ومن جملة البشر هم قتلة الحسين عليه السلام. فربما ـ كأُطروحة ـ أننا نقول: إن جملة منهم كما قربنا في (الأضواء) لم يكونوا معاندين بالشكل الذي يتصوره المتشرعة. فربما أنّ جملة منهم من غير المعاندين يتسبب الله تعالى إلى تقليل ذنوبه. إذن فهي رحمة بهم ولو بدرجة ما، وذلك بشي من بلاء الدنيا وشيء من بلاء الآخرة.

حوادث الظهور:

الخطوة الأُخرى، أنّ من جملة الأُمور التي ينبغي أن تذكر بهذا الصدد التي لها ربط في علاقة المهدي عليه السلام بالحسين عليه السلام. أنه ورد: **«يُبايع المهديّ سبعة رجال علماء توجّهوا إلى مكّة من أُفق شتّى على غير ميعادٍ، قد بايع لكلّ رجل منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فيجتمعون بمكّة فيبايعونه في المسجد الحرام»**[1].

وفي قصة أُخرى: أنه يقول لأصحابه الخاصة: «يا قوم، إنّ أهل مكّة لا يريدونني، ولكنّي مرسل إليهم لاحتجّ عليه بما ينبغي لمثلي أن يحتجّ عليهم. فيدعو رجلاً من

---

(١) كتاب الفتن، لابن حمّاد: ٢١٧.

أصحابه فيقول له: امضِ إلى أهل مكّة فقل: يا أهل مكّة، أنا رسول فلان، وإنّا قد ظلمنا واضطهدنا وقهرنا وابتزّ منّا حقّنا منذ قبض نبينا إلى يومنا هذا، فنحن نستنتصركم فانصرونا. فإذا تكلّم هذا الفتى بهذا الكلام أتوا إليه فذبحوه بين الركن والمقام، وهي النفس الزكيّة، فإذا بلغ ذلك الإمام قال لأصحابه: ألا أُخبركم أنّ أهل مكّة لا يريدوننا»[1].

فمن هذه النقطة يبدأ الظهور، وحسب الظاهر أنه مساء عاشوراء بعد صلاة العشاء في سنة من السنين. وقد قربت في موسوعة الإمام المهدي عليه السلام أنّ أصحابه يذهبون بعنوان أنهم حجاج، ويبقون مقداراً من الزمن إلى أن يصبح محرم، وتنتهي العشرة الأُولى منه، فيظهر الإمام عليه السلام. ثم يخطب عليه السلام فإذا خطب ثاروا به يريدون أن يقتلوه. فيقوم ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً ممن جمعهم الله تعالى له، وهم المتربون خلال الغيبة الكبرى فيحمونه من القتل. فيبات وهو أخوف الناس ويصبح وهو آمن الناس، ينصره الله في ليلة. ثم يتوارد عليه بعد ذلك المؤمنون حتّى يكون قوام جيشه مئة الف. فيقول لهم: لا يحمل أحد منكم ماءً ولا طعاماً، ونذهب إلى العراق.

ومضمون خطبته هناك أن يقول: من حاجني بآدم فأنا أولى بآدم، ومن حاجني بنوح فأنا أولى بنوح، ومن حاجني بإبراهيم فأنا أولى بإبراهيم، ومن حاجني بموسى فأنا أولى بموسى، ومن حاجني بعيسى فأنا أولى بعيسى، ومن حاجني بمحمد فأنا أولى بمحمد، ومن حاجني بعلي فأنا أولى بعلي. ثم يعدد الأئمّة عليهم السلام إلى أبيه عليه السلام[2].

فأما من كان خارج الأديان فلا كلام معه، فهو أحقر من أن نخاطبه أو من أن

---

(١) بحار الأنوار ١٢: ٣٠٧.

(٢) انظر: بحار الأنوار ٥٢: ٣١٥.

يخاطبه الإمام عليه السلام.

وأما الأديان فمن هو تبع لإبراهيم عليه السلام فليس له أن يجيب أنه أولى بإبراهيم. واليهود أيضاً تنقطع حجتهم فهو أولى بموسى عليه السلام. والنصارى أيضاً تنقطع حجتهم فهو أولى بعيسى عليه السلام. وكذلك المسلمون فهو أولى بمحمد صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، وهذا لا يستطيع أن يقوله أحد إلّا المؤيد بإرادة خاصّة.

والمهدي عليه السلام هو الولي الحقيقي الذي يجب التمسك به والانضواء تحت لوائه، وهو الوريث الحقيقي والكامل لما لديهم من علم ومواهب وكمال وأهداف.

فهذه نتف من علاقة الإمام المهدي عليه السلام بالحسين عليه السلام.

علاقة الحسين عليه السلام بالشعراء

نتعرض الآن إلى تأثير الحسين عليه السلام في الشعر عموماً، حتّى نسب إلى الأديب المصري المعروف الدكتور طه حسين قوله: «لا زال الشعر رافضياً». وبالتأكيد أنه لولا ثورة الحسين عليه السلام لما كان كذلك.

وبعد ذلك أنّ أفضل الشعراء في اللغة العربية، هم الشعراء الإماميون الاثنا عشريون بتأثير مذهبهم في ذلك فعلاً. فبالرغم من إننا نجد فطاحل من الشعراء العرب من الأديان الأُخرى والمذاهب الأُخرى، سواء في صدر الإسلام أو العصر الحديث. إلّا أنّ الشعر الشيعي يتميز بمزايا لا يمكن للآخرين الاتصاف بها أو السير باتجاهها أو حتّى نكرانها.

دعبل الخزاعي

ونتعرض الآن إلى دعبل الخزاعي. ولديوانه عدة طبعات منها بتحقيق شخص شيعي[1]، ومنها بتحقيق شخص سنّي[2].

وقد وجدت السني يعتبر دعبلاً رجل هزل ومجون. كما يعتبر أنّ شعره مقسم إلى ثلاثة أقسام بعضه محرز الانتساب إليه، وبعضه مشكوك، وبعضه منتحل. يعني معلوم عدم الانتساب إليه. ويعتبر قصيدته التائية المشهورة من المشكوك. وأنّها

---

(١) هو عبد الصاحب الدجيلي.

(٢) منها طبعة للدكتور عبدالكريم الأشتر، ومنها طبعة للدكتور محمّد يوسف نجم.

محاولة من الشيعة لاعتباره شيعياً، وإلّا فالأمر يختلف في نظره كثيراً.

كما أنه يتورط بأحد الأبيات التي يقول فيها: (وقبر بطوس يا لها من مصيبة). مع العلم أنه لم يكن في حياة الإمام الرضا قبر للعلويين هناك. هل هو مدسوس في القصيدة؟ أم يدل على كذب القصيدة ككل؟ أم هناك قبر مجهول صاحبه؟ كل ذلك لنفي العقيدة الشيعية بعلم الإمام عليه السلام، وأنه من التنبؤ الصادق بالمستقبل؛ لأنه حتماً قرأ الرواية، إلّا أنه أخذها مسلمة الكذب.

وفي حدود فهمي، أنّ بعض الشيعة خلال الأجيال، كانوا يتقربون إلى الله تعالى بإيجاد إضافات إلى الأشعار المسموعة والموروثة اتباعاً لنفس هدف الشاعر الذي هو نظيف، وفيه هدى وموعظة. ولا يعلمون أنّ هذا من الكذب الحرام؛ لأنها تكون منسوبة إلى الشاعر نفسه، وهو خطأ.

وطبقاً لذلك قد أُزيد في عدة قصائد:

منها: قصيدة الفرزدق في مدح الإمام السجاد عليه السلام. ومن علامات ذلك أنه اختلف في أولها، هل هو قوله: (هذا الذي تعرف البطحاء وطأته)، أم قوله: (يا سائلي أين حل الجود والكرم). والمناسب مع قصتها هو الأول لا محالة؛ لأنه جواب قوله: من هذا؟

ومنها: أنهم أزادوا أيضاً في القصيدة التي أولها: (شيعتي ما إن شربتهم عذب ماء فاذكروني). حتّى ذكروا مقتل الحسين عليه السلام وحوادث الطف كلها فيها. ممّا يستحيل صدوره عادة عن الحسين عليه السلام.

ونحن نستدل على تحريف التوراة بأدلة منها: أن فيها ذكر موت موسى عليه السلام ودفنه فكيف يكون ذلك قد نزل وحياً على موسى نفسه أو كتبت في عصره. فإمّا ان يكون كله مدسوساً أو بعضه.

ومنها: أنهم أزادوا في القصيدة التي يرثى بها مسلم بن عقيل عليه السلام وهي الهائية التي يقول فيها:

وسحباً تجر بأسواقهم ألست أميرهم البارحة

ومنها: أنهم ازادوا في القصيدة المنسوبة إلى الإمام الهادي عليه السلام، ولعلها لا تزيد أصلا على عشرة أبيات في حين جعلوها طويلة، والتي أوّلها:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فلم تنفعهم القلل

ولا أعتقد أنّها للإمام الهادي عليه السلام وإنّما تنسب إلى شاعر من الشعراء. وقد استشهد بها الإمام الهادي عليه السلام في مجلس شراب المتوكل.

وازادوا كذلك في قصيدة دعبل، وهي بالأصل طويلة، إلّا أن أبياتها واضحة الاختلاف في الرصانة والركاكة. فمن الراجح ان نقول: إنّ الركيك منها ليس لدعبل، بل هو من المدسوس. ومن علامات ذلك أنّها أيضاً اختلف في أولها في عدة احتمالات، والمشهور أن اولها:

منازل آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

فالمهم أننا نأخذ القصيدة إما من المصادر الموثوقة، أو ناخذها من تلك الأبيات التي تتواجد في كل المصادر دون تلك الأبيات التي تذكرها بعض المصادر دون بعض.

وهذا نتيجة أنّ الطبع والنشر لم يكن موجوداً فيما سبق، فقد أصبح الدس والزيادة فيها سهلاً، والنسبة إلى الشاعر ميسوراً.

وأنا رأيت بعض كتب المشجرات والأنساب المخطوطة فيها إضافات بخط جديد ممن كان يرغب بإضافة نسبه إلى الكتاب، بعنوان أنّ المؤلف هو الذي ذكره. فيخيب الله ظنه لكونه معروفاً باختلاف الخط.

وعلى أي حال، فقصيدة دعبل قد شاركت فعلاً في أهداف الحسين عليه السلام إعلاماً وهداية ومعارضة. وتعرض دعبل إلى ظهور صاحب الأمر عليه السلام وأقره الإمام الرضا عليه السلام، وواضح من سياق الرواية أنّ دعبلاً لم يكن يحدد شخصه كما نحدده

الآن، وإنّما سمع به إجمالا.

وحسب فهمي أنّ اعلان هذا الاتجاه بصراحة على المجتمع كان مخالفاً للتقية. وإنّما عرفنا ذلك بصراحة عند حصول الاثني عشر أنفسهم. وأما خلال عصر الأئمّة عليهم السلام فقد كانت هناك محاولة لكتمه. ومن هنا كان الشيعة الذين يعيشون في البعد عن الإمام عليه السلام يجهلون ذلك، وقد كان دعبل على هذه الصفة. وقد كانت صفة الشيعي يومئذ أنه يؤمن بإمامة أمير المؤمنين عليه السلام ودولة الإمام المعاصر له، يعني يؤمن بالولاية إجمالا لا تفصيلاً.

ومن ذلك ما ورد أنّ شخصاً يقول للإمام الرضا عليه السلام: أنت صاحب هذا الأمر؟ يعني هل أنت المهدي؟ فيجيب: **«أنا صاحب هذا الأمر، ولكنّي لست بالذي أملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»**[(١)].

وقد كان الأئمّة عليهم السلام مضطرين تحت ظروف التقية المكثفة إلى إبقاء هذا الجهل في أوساط شيعتهم، وإنّما يقومون بتزريق الحقائق بالتدريج البطي. فقد لا يتوفق العديدون إلى الحصول على بعض تلك الحقائق.

وحسب فهمي فإنّ قصيدة دعبل ليست على نفس المستوى من الجودة بل فيها أكثر من مستوى. ويمكن أن نعزو ذلك إلى عدة أسباب:

أوّلاً: الدس. فما كان ضعيفاً فهو مدسوس، وما كان قوياً فهو له. إلّا أنّ هذا ممّا لا يمكن أخذه على إطلاقه، بمعنى أن نحكم على البيت بالدس لمجرد ضعفه.

ثانياً: ضعفه الشعري نسبياً، إذ لا شك أنّ الكميت والفرزدق فضلاً عن المتنبي والشريف الرضي خير منه. والشعر معلول للنفس ولا يمكن أن يزيد على مستوى الشاعر بحال. وأستطيع أن أشبهه بأبي العتاهية من هذه الناحية، فإنّ شعره أغلبه

---

(١) كمال الدين وإتمام النعمة ٢: ٣٧٦.

سهل إلّا أنه ليس بممتنع. ويحضرني قوله:

فاسمع لقول ناصح   يدعى أبا العتاهية

ثالثاً: صعوبة القافية عنده مع إرادة التطويل بالقصيدة أو عدم تكرر الكلمات، طبعاً مع إرادة ضغط معانٍ معينة خلال السياق. فقد تبدو بعض الأبيات متكلفة، أو أنّ بعض الكلمات يصعب تخريجها لغوياً. كل ذلك لحفظ الوزن والقافية، أو قل لضرورة الشعر كما يعبرون.

وعلى أي حال نسمع في تلك الرواية لقصيدة دعبل أنّ الإمام الرضا عليه السلام كان في جمع نسائه أيضاً وراء الستر للاستماع والبكاء، والرجل كان واسع النظر لم يقتصر على بعض تاريخ الأئمّة عليهم السلام، بل ذكر مصائبهم ومقاتلهم حسب ما يفهمها كلها، كقوله:

ارى فيأهم في غيرهم متقسماً   وأيديهم من فيئهم صفرات

وقوله:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً   وقد مات عطشاناً بشط فرات

وقوله:

وقبر ببغداد لنفس زكية   تضمنها الرحمن بالبركات

ولم يكن الإمام الجواد عليه السلام قد دفن في ذلك الحين إلى جنب جده الكاظم عليه السلام ليذكره.

وقد تعرض دعبل في قصيدته إلى بعض الثوار العلويين، وقد أقره الإمام الرضا عليه السلام على ذلك. والظاهر أنه تعرض إلى الأشخاص الذين يحرز إخلاصهم ووثاقتهم في حركتهم وشهادتهم. وأغلب الذين ذكرهم هم من الشهداء الحسينيين، إما باعتبار كون الرضا عليه السلام حسينيا، أو باعتبار زيادة الإخلاص فيهم كما سبق،

حيث يقول:

وقـــبر بـــبغداد لنــفس زكــية　　　　واخـرى بـفخ نـالها صـلواتـي
وقبر بأرض الجوزجـان مـحله　　　　وقبر بـباخمرى لدى الغـرفات
وقـــبر بـــبغداد لنــفس زكــية　　　　تــضمنها الرحــمن بــالبركات

وقد تخيل جامع الديوان السني أنه محمد بن عبد الله بن الحسن. وهو من السادة الحسنيين. ولكن المراد به موسى بن جعفر عليه السلام، وإنّما عبر عنه بالنفس الزكية مدحاً وليس اصطلاحاً. ولا دليل على أنّ ابن الحسن هذا مدفون ببغداد.

ثم يقول:

وقبر بطوس يـالها مـن مـصيبة　　　　ألحت على الأحشاء بالزفرات

وقال المعلق السني: وتقول بعض مصادر الشيعة: إن الإمام الرضا عليه السلام هو الذي ألحق هذا البيت والبيت السابع عشر بالقصيدة حين أنشده إياها دعبل. ونلاحظ أنّ (ياقوتا) عد البيت السابع عشر ممّا صح عنده من القصيدة وأورده فيها.

أقول: وهو قوله:

إلى الحشر حتّى يبعث الله قائماً　　　　يــفرج عــنا الهـم والكــربات

إلّا ان نسبة هذا البيت إلى الرضا عليه السلام نفسه من الدس. وإنّما تنسب مصادر الشيعة البيت الخامس عشر فقط إليه؛ لأنه قائم على علم الغيب والتنبؤ بالمستقبل الذي يستحيل على دعبل العلم به. وأما قضية المهدي القائم عليه السلام أمراً أمراً مشهورا في ذلك الحين لا يخفى على دعبل وغير دعبل. ونستطيع أن نتحدى القائل بالإثبات لنا بالمصدر الشيعي الذي ينسب هذا البيت إلى الرضا عليه السلام نفسه.

المتنبي:

والمتنبي الذي شهد له الجميع أنه أشعر العرب، يـمكن القـول بأنـه شـيعي.

وإنّ كتاب الملاح (المتنبي يسترد أباه) وإن كان فاشلاً في هدفه الرئيسي وهو إثبات كونه ولداً للمهدي محمد بن الحسن عليه السلام. إلّا أنّ أدلته تثبت كونه شيعياً، ومن ذلك أنه يقول: إنه كان هناك مدارس خاصّة لا يدخلها إلّا الشيعة أو الهاشميون قد درس فيها المتنبي في أول أمره فعلاً. وكذلك جملة من أبيات الافتخار التي يقولها تعطي انتسابه إلى الدوحة الهاشمية، أما علويته فلم تثبت تفصيلاً.

وهو حتّى لو كان شيعياً هاشمياً، إلّا أنه رجل دنيوي ومتكبر ومرافق ملوك لأجل الحصول على السمعة والمال. ولا يشعر بدينه وتشيعه مع شديد الأسف، حتّى لا تجد له أي بيت ينصر به الدين أو المذهب، أو يمدح شخصاً لتدينه.

ولعل أهم ما قاله في الافتخار قوله:

أي مجال أرتقي   أي عظيم أتقي
الله وما لم يخلق   وكلّ ما قد خلق
كشعرة في مفرقي   محتقر في همتي

وهو واضح في عدم خوفه من أي عظيم حتّى من عظمة الله سبحانه. كما أنهم استشكلوا عليه فيها أن قوله: « وما لم يخلق » شامل لذات الله نفسه، فكأنه يرى نفسه أعلى من الله سبحانه، ويحتقره بقوله: « محتقر في همتي ».

فإن قلت: بأنه لا يقصد ذلك، وإنّما يقصد العدم.

قلنا: نعم، إلّا أنّ قوله: « وكل ما قد خلق الله » يشمل الأنبياء والأولياء والعلماء وأضرابهم، فيكونون محتقرين في نظره. والشعر نص في ذلك ولا يمكن الاعتذار فيه.

شوقي:

كما أنه من الممكن القول بأنّ شوقي أمير الشعراء شيعي. وعلى أي حال فإنّه ليس مصري الأصل، ولا على مذهب الجماعة. ولا يوجد له نسب في مقدمة

ديوانه ، والظاهر أنه هو الذي تعمد إخفاءه والذي يقوله الثقاة أنه تركي الأصل علوي المذهب ، يعني ممن يعتقد بإلهية علي عليه السلام . فهو من هذه الجهة إن لم يكن شيعياً فهو يقدس ويحترم علياً عليه السلام ، إجمالا كما تحترمه الشيعة وتقدسه . أو قل : إن مذهبه أقرب إلى التشيع من هذه الناحية من التسنن ، وإن كان هو رجلاً دنيوياً من شعره، وليس له إلّا قصيدة واحدة في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكل أشعاره الأُخرى للدنيا والشيطان .

يبقى عندنا مشاهير الشعراء غير المتنبي وشوقي ، وهم من الشيعة أكيداً وبضرورة التاريخ : كالكميت الأسدي والشريف الرضي والصاحب بن عباد والسيد حيدر الحلي والسيد جعفر الحلي والجواهري والفرطوسي والشيخ عبد المهدي مطر والسيد مصطفى جمال الدين ، وعشرات غيرهم .

الشريف الرضي :

ولا بأس أن نحمل فكرة بسيطة عن بعض هؤلاء . فالشريف الرضي لا يخلو ديوانه من الافتخار والتكبر ، حتّى يقال : إنه كان يطمع بالخلافة . ويدل عليه قوله : للخليفة العباسي :

عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق
إلّا الخلافة ميزتك فإنني ... أنا عاطل عنها وأنت مطوق

فأجابه : على رغم أنف الشريف[1] .

ومنه قوله :

ما مقامي على الهوان وعندي ... مقول صارم وأنف حمي
أحمل الضيم في بلاد الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي[2]

(١) شرح نهج البلاغة ١ : ٣٤.
(٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٣٧.

ممّا أثار غضب العباسي في بغداد ، وأصر عليه والده في أن يقسم أمامه أن هذا الشعر ليس له . وهو غير مثبت في الديوان حسب علمي .

ولما وضعت الباب الذهبية لحضرة أمير المؤمنين عليه السلام أُقيم احتفال وأُلقيت فيه القصائد ، وكان جملة منهم شعراء فحولاً مشهورين . وكان منهم بعض من أسميناه ، كالشيخ الفرطوسي ، فقد شارك بقصيدة عينية رائعة لعلها خير شعره إطلاقا . ومطلعها :

نشيدي وأنت لـه مطلع ... من الشمس يعنو[1] لـه مطلع

وهي موجودة في ديوانه ، وفيه ما يدل على أنه يقدسها ويقدمها بصفتها أفضل حسناته . وله ملحمة أهل البيت ، وهي حوالي خمسة وعشرون الف بيت في تاريخ المعصومين عليهم السلام . وأولها :

هاك قلبي مضرجاً بدمائي ... قطعاً في سلاسل من ولائي

وهي كلها بوزن وقافية واحدة .

وكذلك شارك فيه الشيخ عبد المهدي مطر ، وهو أُستاذي في كلية الفقه في قواعد اللغة العربية ، فقد شارك بقصيدته الرائعة ، ولعلها خير شعره والتي مطلعها :

لعلع بباب علي أيها الذهب ... واخطف بأبصار من سروا ومن غضبوا

محمد مهدي الجواهري :

بالرغم من أن محمد مهدي الجواهري دنيوي أيضاً وفاسد في عقيدته وسلوكه ومناصر للملحدين في شعره . وكذلك فإنّ ديوانه يحتوي على كثير من الغزل لمعشوقات أوربيات أحبهن ونظم فيهن ، كما أنّ فيه قصيدة صغيرة في ذم الحوزة العلمية ، وينسب اليها الكبائر والفضائح .

---

(١) يعنو : أي يخضع .

وبالرغم من كل ذلك فإنّ قصيدته في الحسين ﷺ وخاصّة المقطع الأول منها: هي خير شعره، كما أنّها خير ما قيل في الحسين ﷺ على الطريقة الفكرية الحديثة. وأعتقد أنّ فيها توفيقا إلهياً. مع الالتفات أنه قالها منذ شبابه حين كان معمماً في الحوزة، ولم يكن متدنساً بالآثام التي طرأت عليه بعد ذلك. ولعل خير ما فيها قوله:

كأن يداً من وراء الضريح ... حمراء مبتورة الإصبع

تمد إلى عالم بالخنوع ... والذل في شرف مترع

لتبدل منه جدب الضمير ... بآخر معشوشب ممرع

والبيت الأول منها: يعطي صورة خيالية جبارة ليد الحسين ﷺ اليمنى المبتورة الإصبع والمخضبة بالدماء.

وواضح أيضاً من الأبيات أنه يمجد الحسين ﷺ باتجاه دنيوي، للإصلاح وإحياء الضمائر الميتة ورفع المظالم من المجتمع. وليس فيه شمة إليهية أو أُخروية. كما أنه ليس فيه اتجاه إلى البكاء والتفجع، إلّا ما يأتي عرضاً. ولكن جانب الإخلاص والعاطفة فيه موجودٌ أكيداً، في مثل قوله:

وما أعظم من أن يكون ... لحمك وقفاً على المبضع

وتطعم للموت خير البنين ... من الأكهلين إلى الرضع

وعلى أي حال فمن الواضح أن الحسين ﷺ يفهمه كل شخص بمقدار مستواه وثقافته وقناعته، وأي من ذلك حصل كان خيراً ونعمة. وكان مؤثراً في إيجاد الهمة نحو التمرد على الظلم والتضحية بالنفس والنفيس، في سبيل إيجاد العدل حسب اختلاف مستويات إدراك هذا العدل.

حتّى من الممكن القول: إن كل الثورات والتمرد في التاريخ، حتّى إلى العصر الحاضر، بل والمستقبل منتسبة بشكل واضح أو غامض إلى ثورة الحسين ﷺ، بعد أن أعطى الأُمثولة العليا في ذلك.

حتّى من يكون على مستوى الدنيا أو على مستوى الإلحاد أو أديان أُخرى. فإنّه لا أقل أنه يعرف الحسين عليه السلام كقائد وكمصلح وكمضحٍ في سبيل أقامة الحق والعدل أجمالاً، وهذا يكفي في التحريك نحو الهدف.

جمال الدين:

والسيد مصطفى جمال الدين، شعره جيد ينحو نحو الاتجاه الرمزي، كما هو الحال الغالب في الشعر الحر، أي ينظمون معاني مجملة وغائمة. وقد كان زميلي في نفس الصف في الدورة الأُولى من كلية الفقه، وصورته مثبتة في العدد المطبوع من مجلة النجف بين المتخرجين من الدورة الأُولى. وله قصيدة رنانة بمناسبة افتتاح جامعة النجف الدينية، ينحو بها المنحى الرمزي، والتي يقول في مطلعها:

اصعدي لا يرعك درب عسير ... فجناحاك عزمة وسرور

إلى أن يقول في نهاية المقطع الأول:

واكتشاف النبع الغزير إذا ... امحل صرح الآمال نبع غزير

من نصروا الإسلام من خارجه:

ويوجد هناك عدد لا يستهان به من الشعراء والمفكرين ممن نصروا الإسلام من خارجه نصراً قليلاً أو كثيراً. أخص منهم بالذكر: غاندي أو المهاتما غاندي، وليوبولد فايس الذي أسلم وسمى نفسه محمد أسد وهو نمساوي، وله عدة مؤلفات لنصرة الفكر الديني، أشهرها (الطريق إلى مكة)، وروجيه كارودي الشيوعي الفرنسي الذي أسلم وألّف كتابه: البديل، يعني البديل عن الحضارة الأوربية.

وكذلك (بولس سلامة) في ملحمته الشعرية المعروفة، ويصرح بها أنه إنّما نظمها رجاء الشفاء من مرضه المزمن، مستشفعاً بالنبي وآله.

كذلك (انطون بارا) صاحب كتاب (الحسين في الفكر المسيحي) ، فإنّه كاتب منصف ، مجد الحسين عليه السلام ورثا له وقارنه بالمسيح كما يعتقد هو به ، لأنه يرى مقتله وشهادته ، فقد قارن بين الشهادتين . ولم ينكر من تاريخنا شيئاً حتّى مسألة تكلم الرأس الشريف الذي يعد من المعجزات ، والمفروض بالماديين وغير المسلمين عموماً أن يكذبوه دائماً لا تجاههم النفسي والعقائدي .

ولا ينبغي أن ننسى بهذا الصدد الكاتب المسيحي اللبناني المشهور (جورج جرداق) في موسوعته الشهيرة (على صوت العدالة الإنسانية) حتّى قال بعض المفكرين من الشيعة : أنه يفضل علياً على رسول الله صلى الله عليه وآله ، في حين أنّ فخر علي هو اتباع الرسول صلى الله عليه وآله .

وأنا أقول : إنه لم يقل فيه إلّا ما يعرف . وهو أعلى ممّا قال بكثير . وأقول : إننا نأخذ منه الحق وندع الباطل . وأقول : إننا نطبق القاعدة التي نعرفها (إنّ ما عند الأدنى عند الأعلى وزيادة) فما كان لعلي كان لمحمد ، ولا أعتقد أنّ هذا يخفى على (جورج جرداق) ولو ارتكازاً .

كما لا ينبغي أن ننسى بهذا الصدد الشاعر المعروف المعاصر (عبد الرزاق عبد الواحد) . فإنّه صابئي ، بل يقال : إنه رجل دين عظيم عندهم ، ولعله شيخهم على الإطلاق . ومهما قلنا في جهته الدينية والدنيوية فإنّ قلبه متجه حقيقة باتجاه الإسلام وأهل البيت ، وله قصائد مشهورة في هذا الصدد قديماً وحديثاً . وهو ممن يعرف الإسلام بصفته شيعياً ، أو قل : إنه لو أسلم لتشيع ولم يتبع أي مذهب آخر .

وله قصيدة متأخرة القاها بمناسبة مولد الحسين عليه السلام[١] .

---

(١) قدمت وعفوك عن مقدمي ... حسيراً أسيراً كسيراً ظمي
قدمت لأُحرم في رحبتيك ... سلام لمثواك من محرم
فمذ كنت طفلاً رأيت الحسـ ... ـين مناراً إلى ضوئه أنتمي

ومذ كنت طفلاً وجدت الحسـ يـن ملاذاً بأسواره أحتمي
ومذ كنت طفلاً عرفت الحسـ يـن رضاعاً وللآن لم أُفطم
سلام عليك فأنت السلام وإن كنت مختضباً بالدم
وأنت الدليل إلى الكبرياء بما ديس من صدرك الأكرم
وإنك معتصم الخائفين يا من من الذبح لم يعصم
لقد قلت للنفس هذا طريقك لاقي به الموت كي تسلمي
وخضت وقد ضفر الموت ضفراً فما فيه للروح من مخرم
وما دار حولك بل أنت درت على الموت في زرد محكم
من الرفض والكبرياء العظيمة حتّى بصرت وحتّى عمي
فمسك من دون قصد فمات وأبقاك نجماً من الأنجم
ليوم القيامة يبقى السؤال هل الموت في شكله المبهم
هو القدر المبرم اللايرد أم خادم القدر المبرم
سلام عليك حبيب النبي وبرعمه طبت من برعم
حملت اعز صفات النبي وفزت بمعياره الأقوم
دلالة أنهم خيروك كما خيروه فلم تثلم
بل اخترت موتك صلت الـ جبين ولم تتلفت ولم تندم
وما دارت الشمس إلّا وأنت للألائها كالأخ التوأم
سلام على آلك الحوم حواليك في ذلك المضرم
وهم يدفعون بعرى الصدور عن صدرك الطاهر الأرحم
ويحتضنون بكبر النبيين ما غاص فيهم من الأسهم
سلام عليك على راحتين كشمسين في فلك أقتم
تشع بطونهما بالضياء وتجري الدماء من المعصم
سلام على هالة ترتقي بلالائها مرتقى مريم
طهور متوجة بالجلال مخضبة بالدم العندم

تهاوت فصاحة كل الرجال — أمام تفجعها الملهم
فراحت تزعزع عرش الضلال — بصوت بأوجاعه مفعم
ولو كان للأرض بعض الحياء — لما دت بأحرفها اليتم
سلام على الحر في ساحتيك — ومقحمه جل من مقحم
سلام عليه وعتب عليه — عتب الشغوف به المغرم
فكيف وفي ألف سيف لجمت — وعمرك يا حر لم تلجم
واحجمت كيف وفي ألف سيف — ولو كنت وحدي لم احجم
ولم أنتظرهم إلى أن تدور — عليك دوائرهم يا دمي
لكنت انتزعت حدود العراق — ولو أنّ إرساءهم في فمي
لغيرت تاريخ هذا التراب — فما نال منه بنو ملجم
ويا سيدي يا أعز الرجال — يا مشرعاً قط لم يعجم
ويا بن الذي سيفه ما يزال — إذا قيل يا ذا الفقار احسم
يحس مروّة مليون سيف — سرت بين كفك والمحزم
وتمسك أنت ثم ترخي يديك — وتنكر زعمك من مزعم
فاين سيوفك من ذي الفقار — وأينك من ذلك الضيغم
علي علي الهدى والجهاد — عظمت لدى الله من مسلم
ويا أكرم الناس بعد النبي وجهاً — وأغنى امرئ معدم
ملكت الحياتين دنيا واخرى — وليس ببيتك من درهم
فدى لخشوعك من ناطق — فداء لجوعك من أبكم
تقدمت وعفوك عن مقدمي — مزيجاً من الدم والعلقم
وبي غضض جل أن أدريه — ونفس أبت أن أقول: اكظم
كأنك أيقضت جرح العراق — فتياره كله في دمي
ألست الذي قال للباكرات — خذيني وللنفس لا تهزمي
وطاف بأولاده والسيوف — عليهم سوار على المعصم

وقبل أن أختم الحديث عن الذين نصروا الإسلام من خارجه، لا بأس أن أذكر شيئاً يتعلق بغاندي، ومحمد أسد.

أما غاندي، فقد كان يلقب بماهاتما، وهو لقب ديني عندهم. وقد كان واضح الزهد، مشهوراً بزيه غير المخيط. حتّى قالوا له: هل تذهب بزيك هذا إلى قصر (برمنكهام) في بريطانيا؟ فقال: نعم. وهناك صورة لمخلفاته بعد وفاته، وهي أشياء قليلة تعد بالأصابع. ويقال: إنّ طرحه الرئيسي فيها هو أن يكون الإنتاج وطنياً لا أجنبياً. وينقض عليه بزجاجات نظاراته. وهذا لا شك أنه كان يقوله. إلّا أنه لا يمنعه من لبس المخيط، فاختياره لهذا الزي أنما هو للزهد فقط، أو قل للآخرة لا للدنيا. ثم هزاله وقلة طعامه، هل كان لدفع الاستعمار أيضاً؟ كلا. وكذلك كان يمشي حافياً، ودخل قصر (برمنكهام) حافياً.

وهذه المقدمات لا تذهب سدى، وقد وجدت في الصفحتين الأخيرتين من كتابه: (تجاربي عن الحقيقة) إنه يبشر بالحب الإلهي. وإن الفرد غاية مناه أن يصل إلى الحب الالهي. ولعله كان يحارب الانكليز والاستعمار من وجهة نظر

فضحت بأضلعه الكبرياء ... }صاح على موته أقدمي
كذا نحن يا سيدي يا حسين ... شداد على القهر لم نشكم
كذا نحن يا أيها الرافدين ... سواترنا قط لم تهدم
لئن ضج من حولك الظالمون ... فإنا وكلنا إلى الأظلم
وإن خانك الصحب والأصفياء ... فقد خاننا من له ننتمي
تدور علينا عيون الذئاب ... فنحتار من أيها نحتمي
لهذا وقعنا عراة الجراح ... كباراً على لؤمها الألأم
فيا سيدي يا سنا كربلاء ... يلألئ في الحلك الاعتم
تشع منائره بالضياء ... وتذخر بالوجع الملهم
ويا عطشاً كل جدب العصور ... سينهل من نورك الزمزم
سأطلع ثغري على موطئيك ... سلام لأرضك من ملثم

دينية وليس دنيوية فقط .

ورأيه في الإسلام وقادته حسن ، وإن كان ذلك لا يصدق على التفاصيل . بدليل أنه اجتمع مع (محمد علي جناح) وهو سياسي شيعي عندهم ، فلم يتفق معه على نتيجة ، وانقضى الاجتماع بدون اتفاق ؛ لأنه ينصر طائفته طبعاً .

وهو بوذي ، والبوذيون يقدسون البقر . وقد نقل عن غاندي أنه قال : إنّ البقر أحسن من أمي ؛ لأني أستفيد من حليبها ولحمها وجلدها وعظمها ، وأما أمي فليست كذلك . وأنا أجله أن يقول يبشر بالحب الإلهي لا يمكن أن يبشر بحب البقر . ونحن نسمع قوله تعالى : ﴿ **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ** ﴾[1] ، فلا يجتمع حب العجل مع الحب الإلهي ، وما دام الحب الإلهي موجوداً ، إذن فحب العجل منتف .

وأما محمد أسد ، فله أفكار طريفة وكثيرة ، منها : ما ذكرناه في (ماوراء الفقه) ، من أنّ التوحيد أجل من أن يجعل له مثال زخرفي وإنّما المهم هو الهيبة والرصانة ، فقمت أتامل حكمة الصانع الذي اختار للتوحيد مكعب من حجر يقصد الكعبة المشرفة .

ويقول : إني جلت في مختلف البلاد الإسلامية ، فوجدت الأذان المعلن على المنائر بوتيرة واحدة وطريقة مشتركة . كأنه يجعل ذلك إشارة إلى وحدة المسلمين في الطريقة والهدف ، مهما اختلفت مذاهبهم وتباعدت بلدانهم . إلّا أنه يذكر في الطريق إلى مكة (عبد العزيز آل سعود) ومقابلاته معه ، ويذكره باحترام ، ولا ينتقده بقليل ولا بكثير .

وفي كتاب آخر له يتحدث عن إمكان جعل وزراء غير مسلمين في دولة إسلامية . لأنّ مقتضى (الديمقراطية) عند تعدد الجاليات هو ذلك . ثم يستشكل : بأنّ

---

(١) البقرة : ٩٣.

ولي الأمر يجب أن يكون مسلماً ، والوزير ولي أمر ، فيجب أن يكون مسلماً . ويجيب بأنّ الأمر ليس بالضرورة كذلك ، بل يمكن أن نعطيه صفة لا يكون فيها ولياً للأمر .

وقد يشفع له أن يقال : إنّ ولي الأمر الذي يجب أن يكون مسلماً هو الحاكم الشرعي الأعلى . أما من دونه فليس بولي . ولولا آية في القرآن الكريم لقبلنا هذه النتيجة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾[(١)] . وتسلط الوزير على حصة من الحكم نحو من السبيل بلا شك . وتمام الكلام في محله .

من نصروا المذهب من خارجه :

وأما الآن فنتحدث عمن نصروا المذهب من خارجه . فهذا تارة يكون من حيث لا يعلمون ، فإذا قصدنا ذلك كان كلهم تقريباً كذلك ، من القدماء والمحدثين (إلّا النواصب والمتعصبين) فإنهم جميعاً يحملون فكرة جيدة جداً عن المعصومين عليهم السلام ولا يذكرونهم إلّا بكل خير . بل حتّى أمثال ابن حجر في (الصواعق المحرقة على أهل البدع والزندقة) ويقصد الشيعة . المهم أنّ الأمر واضح أنه ضد الشيعة ، وليس ضد أئمتهم ، ولا يذكرهم إلّا بالإكبار والاجلال .

ومن هنا تكون كثير من كتبهم حاوية على أصناف من الأخبار ، يمكن الاستدلال بها لنصرة المذهب . وتكون حجة عليهم من حيث الاعتماد على هذه الكتب ، وهؤلاء الرواة من قبلهم في الأمور الأُخرى كالفقه والتاريخ والعقائد وغيرها . ويكفينا مثالاً : كتاب (فضائل الخمسة في الصحاح الستة) . وأُسلوبه وإن لم يكن منهجياً ، ولكنه يعرفنا بالأخبار الواردة في الصحاح الستة ، وهي أعلى كتب الجماعة على الإطلاق ، وفيها فضائل وكرامات ومدح أصحاب الكساء الخمسة ، وهم أعلى

---

(١) النساء : ١٤١.

جماعة في نظرنا على الإطلاق.

وكذلك البخاري فهو عدل القرآن عندهم، فإنّه لم يرو عن الإمام الصادق ﷺ حديثاً واحداً. وروى عن الزهراء حديثين فقط أو نحو ذلك. ولكن فيه ما يكفي لفضائل المعصومين ﷺ عن رسول الله ﷺ. وكذلك حادثة وفاته، وقولهم: إنّ النبي ليهجر. وكذلك كثير من الأخبار الواردة في البشارة عن المهدي ﷺ.

وفي صحيح مسلم، يوجد كل ذلك أيضاً مع زيادة الأخبار عن الأئمّة الاثني عشر: «**يكون من بعدي اثنا عشر خليفة**» ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي ما قال؟ فقال: «**كلّهم من قريش**»[1]. ولها أسناد كثيرة في الكتاب إلى حد الاستفاضة، وهي لا تنطبق إلّا على المعصومين ﷺ؛ لأنّ كل أُطروحة أُخرى تفشل. كالخلافة الأُولى، أو الأُموية، أو العباسية، أو الفاطمية، أو العثمانية. وهذا ما يعلمه مفكروهم، فلذا يجيبون بوجود خلفاء متفرقين بين هؤلاء. ويعدون جماعة كالأربعة، وعمر بن عبد العزيز، والمهتدي، وغيرهم حتّى يصير العدد ثمانية أو تسعة. ثم يقولون: إننا نضيف المهدي الذي يأتي في مستقبل الزمان، ومع ذلك قصر العدد عن المطلوب. فيقولون: بأنه ربما يأتي أُناس صالحون يتولون الخلافة في المستقبل ونحن لا نعلم!!...

إلّا أنّ هذا الفهم إن قبلناه رغم عجزه، فإنّه خلاف ظاهر الحديث من جهتين:

الأُولى: أنّ ظاهره حصولهم بعد النبي ﷺ مباشرة، وليس بزمان بعيد.

الثانية: أنّ ظاهره أنّ حصولهم بشكل متقارب فيما بينهم، وليسوا متباعدين إلى هذه الدرجة. فتبقى هذه الأطروحة وهماً من الأوهام. مضافاً إلى كونها غير ناجحة في نفسها. فينحصر الحال في المعصومين ﷺ الذين نؤمن بإمامتهم.

---

(١) صحيح مسلم ٦: ٣.

وصحيح مسلم عندهم يلي البخاري في الأهمية ، وكل أخباره بل كل أخبار الكتب المسماة بالصحاح الستة حجة ومعتبرة . فهم من هذه الناحية ينحون منحى الأخباريين من الشيعة في الاعتقاد بصحة أخبار الكتب الأربعة جميعاً .

وأما من نصروا المذهب من خارجه عن علم وعمد ، فهم عديدون وإن كانوا قليلين نسبياً . أخص منهم بالذكر الشيخ محمود أبو رية صاحب كتاب (شيخ المضيرة) . وكتاب ينقد به البخاري ويبين زيفه ، وعبد الفتاح عبدالمقصود صاحب كتاب علي بن أبي طالب عليه السلام ، فإنّه وإن كان به بعض الأُمور إلّا أنّ نصرته للحق واضحة جزاه الله خيراً .

أما الذين أعلنوا تشيعهم فعديدون ، وهناك كتاب عنوانه : (لماذا اخترت المذهب الإمامي) يسرد فيه جماعة من هؤلاء . ومن أشهر هذا الصنف : الأنطاكي ، وله ملحمة شعرية مطولة في مدح أهل البيت وذكر تاريخهم .

والدكتور محمد التيجاني السماوي أعزه الله ، وواضح من كتابه : (ثم اهتديت) كيف مرّ بالمشكلة الدينية وكيف خرج منها : منتصر للحق جزاه الله خيراً .

وكنت أقول فيه ولا زلت أقول : إنه خير من الذين كتبوا في نصرة المذهب من الشيعة ، كالسيد عبد الحسين شرف الدين والشيخ عبد الحسين الأميني وغيرهم ؛ لأنه قد يقال : أنّ هذا الفرد أو ذاك إنّما هو شيعي ومن الطبيعي أن يدافع الفرد عن مذهبه ، إلّا أنّ التيجاني مرّ بالمشكلة حقيقة ، وترك مذهبه وانتقل إلى مذهبنا وحسن تشيعه ودافع عنه . ولا زال يدافع ويعقد الندوات لذلك . إلّا أنّ تقليده وميله الحوزوي الله أعلم بحقيقته .

وبهذا ينتهي الكلام عن العنوان الرئيسي ، وهو علاقة الحسين عليه السلام بمن قبله وبمن معه وبمن بعده .

طلب البيعة ليزيد

السؤال الذي يمكن طرحه هنا بلحاظ حركة الحسين ﷺ ما يقوله التاريخ، من طلب والي المدينة من الحسين ﷺ البيعة ليزيد بعد موت معاوية. حيث أرسل على الحسين ﷺ ليلاً. وقد ورد أنّ الحسين جمع جماعة من أصحابه وأهل بيته مسلحين، وأوقفهم على الباب. فهو يعلم أنه سوف يطلب منه طلباً على غير القواعد الشرعية، ومن المتيقن أنه سوف يرفض. فإذا رفض ولم يتنازل فسوف يكون خطراً على حياته. فجمع هذه الجماعة لكي تدخل وتخرجه عندما يشتد الأمر.

قال بعض المؤرخين: « ولمّا استقر المجلس بأبي عبد الله ﷺ نعى الوليد إليه معاوية، ثم عرض عليه البيعة ليزيد. فقال الحسين ﷺ **مثلي لا يبايع سرّاً، فإذا دعوت الناس إلى البيعة دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً**. فاقتنع الوليد منه.

لكن مروان ابتدر قائلاً: إنْ فارقك الساعة ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتّى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرجل حتّى يبايع أو تضرب عنقه. فقال الحسين ﷺ: **يا بن الزرقاء أنت تقتلني أم هو؟** كذبت وأثمت.

ثم أقبل على الوليد وقال: **أيها الأمير، إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور وقاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله. ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة**.

فاغلظ الوليد في كلامه وارتفعت الأصوات، فهجم تسعة عشر رجلاً قد انتضوا

خناجرهم، وأخرجوا الحسين عليه السلام إلى منزله قهراً»[١].

فمن جملة الأسئلة التي خطرت في ذهن السيّد عبد الرزاق المقرم في (مقتل الحسين عليه السلام) إنه لماذا قال: يابن الزرقاء؟ وهو على خلاف الأدب الإسلامي. ويعلق السيّد المقرم: إنه في تذكرة الخواص قال: إنه كانت جدة مروان من البغايا[٢].

وفي كامل ابن الاثير: كان الناس يعيرون ولد عبد الملك بن مروان بالزرقاء بنت وهب؛ لأنها من المومسات ومن ذوات الرايات[٣].

وفي تاريخ بن عساكر: جرى كلام بين مروان وعبد الله بن الزبير، فقال له عبد الله: وإنك لههنا يابن الزرقاء[٤].

وفي تاريخ الطبري: كان مروان بن محمد بن الأشعث يقول: لم يزل بنو مروان يعيرون بالزرقاء. وإن بني العاص من أهل (صفورية)[٥].

ثم يبدأ السيّد المقرم بالاعتذار عن صدور مثل هذه الصفة عن الحسين عليه السلام وهو معصوم. مع أنه خلاف الأدب الشرعي.

ويجيب بعدة أجوبة تستفاد من كلامه بحسب المضمون، وهي بعرض مني وليست بلفظه.

١ ـ هو معصوم ولا بد من التسليم للمعصوم في كل ما يفعله ويقوله.

٢ ـ إن مقتضيات أحوال ذلك الزمن كانت تقتضي ذلك، إجمالا ولم يفصل في ذلك.

---

(١) مقتل الحسين، المقرم: ١٣٠، مثير الأحزان: ١٤.

(٢) مقتل الحسين، المقرم: ١٣٠.

(٣) الكامل في التاريخ ٤: ٧٥.

(٤) مختصر تاريخ دمشق ١٢: ١٨٩.

(٥) تاريخ الطبري ٥: ١٥٧.

٣ ـ إنّ مثل هذا النبز صادر عن الجليل جل وعلا في كتابه الكريم. فإذا كان صادراً عن الله تعالى، فلا بأس أن يصدر عن غيره. حيث يقول تعالى في سورة القلم: ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾[(١)]، والزنيم في اللغة الدعي في النسب اللصيق به.

فإن قلت: (وهذا الإشكال ضد استدلال السيّد المقرم)، فان الله تعالى قال ذلك بصفته الخاصة به ولا يشمل غيره.

قلنا: (دفاعاً عن السيّد المقرم): كلا، بل قاله بصفته متكلماً فقط، وذلك من عدة وجوه:

أوّلاً: أنه لا بدّ من فهم العموم، فإنّ هذا الكلام من قبل الله عز وجل دليل على الجواز لكل متكلم، مالم يثبت الاختصاص به سبحانه وتعالى، وفي مورد كلامنا لم يثبت شيء من هذا القبيل.

ثانياً: أنه كما أن لنا أُسوة حسنة برسول الله ﷺ، كذلك لنا أُسوة حسنة بالله تعالى، فكل ما فعله أو قال: فلنا أن نفعله أو نقوله إلّا ما خرج بدليل. وقد ورد في الخبر: « **تخلقوا بأخلاق الله** »[(٢)].

فإن قلت: فإنّ الله تعالى لايجب عليه اطاعة الأحكام الشرعية؛ لأنه هو الآمر بها. وإنّما أمرنا لأجل مصلحتنا، وأما هو فليس مأموراً بشي من ذلك **أوّلاً**، وليس له مصلحة في تطبيقها **ثانياً**. فالمصلحة الأساسية هي التكامل، والله تعالى هو عين الكمال المطلق.

قلنا: إنّ الأمر ليس كذلك على مستوى علم الكلام والعقائد الإسلامية، فإنّ كل ما هو مأمورٌ به شرعاً وجدناه حسناً عقلاً. وكل ما هو منهي عنه شرعاً وجدناه قبيحاً

---

(١) القلم: ١٣.

(٢) بحار الأنوار ٥٨: ١٢٩.

عقلاً. والله تعالى يضع كل شيء موضعه الصحيح المطابق للواقعيات التي هو أعلم بها من خلقه. ومقتضى ذلك أنه لا يفعل القبيح، ويتعين عليه فعل الحسن. فيطبق هذه الأُمور لا بصفتها أوامر شرعية، بل بصفتها عقائد عقلية وهذا يكفي؛ لأنه إذا لم يطبقها هو نقص في ذاته وفي عدله، والله تعالى أجل من ذلك، فيطبقها لكونه كاملاً لا لكونه محتاجاً إليها، والعياذ بالله.

ومنه اتضح أن مقتضى الأدب الشرعي الكف عمن لا يستحق الشتم، وأما من يستحقه فلا. وهذا معنى ثابت باستمرار ولا دخل لمقتضيات ذلك الزمن في ذلك، كما هو ظاهر عبارة السيّد المقرم، بل هو من مقتضيات كل زمن.

ثم إن السيّد المقرم كان ينبغي أن يلاحظ ما هو أهم من ذلك؛ لأن لهجة مروان لم تكن لهجة مجاملة، بل كانت لهجة تهديد، وقد سمعها الحسين عليه السلام. ومعناه كونه متطرفاً في الضلال وهاوياً لقتل الحسين عليه السلام، ومن هنا كان أهلاً لهذه الصفة.

ومثله قالت السيدة زينب بنت علي عليه السلام ليزيد بن معاوية: يا بن الطلقاء[1]؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله في فتح مكة كف عن المنافقين ولم يقتلهم، وقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[2]، وكان فيهم أبو سفيان جد يزيد بن معاوية، ومن هنا صدق عليه أنه ابن الطلقاء.

السؤال الثاني الذي يطرح بهذا الصدد: هو أنه لماذا لم يصرح الحسين عليه السلام من أول الأمر بعدم المبايعة؟ وإنّما رتب الأمر بالشكل الذي يوحي إلى الوليد أنه من الممكن أن يبايع.

وجواب ذلك من عدة وجوه:

الوجه الأوّل: أنه ليس في كلام الحسين عليه السلام أي إشعار بوقوع المبايعة من قبله

---

(١) العوالم، الإمام الخميني: ٤٠٣.

(٢) الثقات، لابن حبان ٢: ٥٦.

في الصباح علناً. كل ما في الأمر أنّ هناك توقعاً لعرض المبايعة عليه، وليس هناك ظهور في كلامه بأنه يوجد توقع لرد الفعل الأيجابي بالنسبة إلى هذا العرض.

الوجه الثاني: نعرضه كأُطروحة، وذلك أنّ الحسين عليه السلام إلى هذا الحد يريد ايجاد شيء من المجاملة والتقية أمام حاكم البلد، لأجل تجنب المواجهة والمشاكل، لو صح التعبير، واحتمال اتساع الضرر. ولكن لما سمع عليه السلام التهديد من مروان اعتبر أنّ المجابهة قد حصلت من طرف الخصم، فلابد من التصريح بما يكنه ويضمره في نفسه الشريفة من عدم المبايعة، فقال تلك الكلمة المشهورة، وفيها «**مثلي لا يبايع مثله**»[1].

الوجه الثالث: نعرضه كأُطروحة أيضاً فنقول: إنّ الحسين عليه السلام يكون في ذلك المكان المنعزل عن الناس إمام هذين الخصمين العنيدين أضعف موقفاً دنيوياً واجتماعياً، فإذا تأجل الأمر إلى الصباح وأمام جمهور الناس بما فيهم وجهاء المدينة وعلماؤها كان هو في نقطة قوة؛ لأنّ العديد من الحاضرين عندئذ سيكونون إلى جهته ويقبلون منه التبرير الكامل لعدم مبايعة يزيد.

وكذلك يستطيع أن يحذرهم علناً من مبايعة يزيد؛ لأنه إذا رفض أمام الناس فسوف يرفض كل الناس الموجودين في المجلس. فمن هذه الناحية كان التأجيل إلى الغد وانتظار اجتماع الناس فيه مصلحة كبيرة، لو كان الوليد قد اقتنع بذلك. ولكنه لم يحصل ولم يدع الناس بعد ذلك.

الوجه الرابع: إنّ الحسين عليه السلام قد يكون أسرَّ في نفسه أنه: إذا اجتمع الناس غدا فسوف يصرح لهم بحرمة المبايعة وينهاهم عنها، وهذا ما لا يستطيعه في المجلس الليلي المنعزل.

وعلى أي حال فمن المعلوم أنه بعد أنّ صرح الحسين عليه السلام بعدم المبايعة في ذلك

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥.

المجلس لم يكن للوليد أمل لمبايعته أمام الناس ، فلم يحصل الاجتماع المقترح ، وترتب على ذلك أنّ عموم أهل المدينة وآخرين كثيرين لم توخذ منهم البيعة ليزيد إطلاقاً .

وذلك لأنهم ليس لهم خبر تفصيلي عن هذا المجلس الذي حصل وليس لهم خبر عن البيعة ليزيد ، فالدولة أخذت المسألة ساذجة بالسيطرة القهرية وكان الشعب كله قد أصبح شعبها .

وترتب على ذلك أنّ الحسين عليه السلام حين أراد الخروج إلى الكوفة لم تكن قد أخذت البيعة من أحد مباشرة ، فيستطيع كل واحد من أهل المدينة أن يقول : إنني لا أبايع . فترتب على ذلك شيء في مصلحة الحسين عليه السلام وهو أنه حينما قال : **« من كان باذلاً فينا مهجته ، وموطّناً على لقاء الله نفسه ، فليرحل معنا ، فإنّني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى »**[1] ، صحبه الكثيرون لأنهم لا يملكون عهداً وبيعة تجاه الحاكم الأُموي ، ولكن تفرقوا عنه بالتدريج في منازل السفر .

وقوله : **« أنت يا بن الزرقاء تقتلني أم هو ؟ كذبت والله وأثمت »**[2] . له ظهور بالاستشمام من ظهر الغيب ، إنّ قاتله ليس هو هذا ولا هذا ، بل غيرهما كما قد حصل فعلا .

ومراده بقوله : « كذبت » هو ذلك بحسب فهمنا ، وتدل عليه القرينة المتصلة ، وهي قوله : « أنت تقتلني أم هو » ، أي أنت لا تقتلني ولا هو . فإنّ الاستفهام الاستنكاري مرده إلى النفي .

ولا يراد من قوله عليه السلام : « كذبت وأثمت » إرجاع الكذب لكلا الفقرتين اللتين قالهما مروان ، فإنّه قال كلمة صادقة وكلمة كاذبة . بل إن المراد إرجاع الكذب إلى الفقرة

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف : ٣٨.

(٢) العوالم ، الإمام الحسين : ١٧٤.

الكاذبة فقط .

أما الفقرة الصادقة فهي قوله : إذا خرج الآن فسوف لن تحصل منه على مبايعة ، فقد كان صادقاً في هذا الكلام . فقوله ﷺ : « أثمت » فلانه نصرة للظالم ، وأما قوله : «كذبت » فهو راجع إلى فقرة التهديد وهي قوله : « إما أن يبايع ، وإما أن تضرب عنقه » ؛ لأنه في المستقبل لن يحصل ذلك ، وإنّما يحصل في علم الله من مقتله .

نصيحة عبد الله بن الزبير :

وقال المؤرخون خلال هذه الحادثة : ووضح لابن الزبير ما عزم عليه الحسين ﷺ من ملاقاة الوالي في ذلك الوقت ، فعبد الله بن الزبير كان موجوداً في المدينة ومعارضاً للأمويين .

فجاء ابن الزبير لينصح الحسين أن لا يذهب ليواجه الوالي ، فأجابه الحسين ﷺ بما مضمونه : « أنا ممتنع بالجماعة التي آخذها معي »[1] ، وقوله : « ممتنع » أي أنه قوي بهؤلاء الناس ، وهو جواب من باب كلم الناس على قدر عقولهم .

وسيكون الزبير وعبد الله بن عمر من الذين ينصحون الحسين ﷺ بعدم الخروج إلى الكوفة ، أو بعدم الخروج خوفاً عليه . فماذا كانت وجهة نظرهم ؟ مع العلم أنهم لا يتخوفون عليه حقيقة ، بل يختلف مسلكهم عن مسلكه اجتماعياً واقتصادياً ومذهبياً .

وجواب ذلك من عدة وجوه :

الوجه الأوّل : الحفاظ عليه لأجل الحفاظ على سعة المعارضة ضد الحكم الأموي ؛ لأن كليهما كان يمثل المعارضة ضد الحكم الأُموي ، فإنّه لو قتل الحسين ﷺ ضعفت المعارضة في رأيهم ، ويقل عدد المعارضين المشهورين ،

---

(١) ورد في مقتل الحسين ، أبو مخنف : « لا آتيه إلّا وأنا على الامتناع قادر » .

بزوال أو ذهاب الحسين عليه السلام عن الساحة.

الوجه الثاني: أنه لو حصل قتل الحسين عليه السلام بالرغم من قوته اجتماعياً، ورسوخ حبه في الناس وإنه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، ونحو ذلك من الأُمور المعتد بها اجتماعياً ودينياً، فسوف يسري احتمال حصول ذلك بالنسبة إليهم، فالذي يتسلط على من هو أقوى وأهم ويقتله، فإنّه وبكل سهولة يقتل من هو دونه. فيريد الحفاظ على حياة الحسين عليه السلام للحفاظ على حياته.

الوجه الثالث: أنهم وإن لم يتفقوا معه في الكثير من القضايا، إلّا أنهم لعلهم يفكرون في إمكان الاستفادة منه ومن أصحابه في تدابير كثيرة محتملة ضد الحكم الأُموي، سواء كان ذلك عند تمثيل دور المعارضة أو لدى الحصول على الهدف.

ومن هنا كانت المصلحة الدنيوية بالنسبة إليهم، بقاء الحسين عليه السلام حيّاً وعدم تعريض نفسه للقتل في حين أنّ المصلحة التي كان يتوخاها الحسين عليه السلام كما نعلم أكيداً بوضوح أنّها ليست مصلحة دنيوية، وإنّما مصلحة أُخروية صرفة، وأن له مقامات لا ينالها إلّا بالشهادة.

الوجه الرابع: أنهم خافوا من احتمال سيطرته على العراق. فكأنهم غير متوقعين قتله لأنهم لا يعلمون الغيب طبعاً. فمن هذه الناحية لو ذهب وصار أمير الكوفة وتوسع حاله وتوسع أنصاره، فلا يجعل لهم مجالاً، وربما يقتلهم.

وقد ورد في التاريخ أنّ الحسين عليه السلام حينما ذهب إلى مكة كان صعباً على عبد الله بن الزبير وجوده، فإنّ الناس يلتفون حول الحسين عليه السلام ولا يعتنون به. فكيف إذا سيطر الحسين عليه السلام على المنطقة كلها، فماذا يكون حالهم؟

ولكن هذا الوجه يتوقف على شيء وهو أنّ هؤلاء لم يكونوا يتوقعون مقتل الحسين عليه السلام، مع العلم أنّ مقتل الحسين عليه السلام متوقع منذ تلك اللحظة لقوة الدولة وحقدها عليه آنئذ، وهو من الناحية الدنيوية ضعيف وليس عنده أتباع كثيرون.

والناس هم كما وصفهم الحسين ﷺ: «فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون»[١] فلا يذهب معه إلّا النادر، والنادر لا ينفع بالانتصار الفعلي الدنيوي.

والذي له درجة من الذكاء الاجتماعي حتّى في ذلك الحين يمكن أن يلتفت إلى ذلك. ولكن يبدو ان هؤلاء لا يفهمون ذلك!.

وينبغي أن نلتفت إلى أنّ خطبته فيها أمران رئيسيان:

أولاً: نبؤته بخروجه: «فإنّني راحل مصبحاً إن شاء الله»[٢].

ثانياً: نبؤته بمقتله: **«كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء»**[٣].

ولكن خطبته هذه كانت بعد هذه النصائح والكلمات، فمن حق الفرد الاعتيادي أن يتوقع أن يقتل الحسين ﷺ بهذا الشكل.

ويبدو أنّ الحر أيضاً حينما جعجع بالحسين ﷺ وهو بعد ذلك بكثير، لم يكن يتوقع مقتل الحسين ﷺ. فحينما وصل الحسين ﷺ إلى كربلاء وبدأ القتال، قال بما مضمونه: لم أكن أعلم أو أتوقع وصول المسألة إلى هذه الدرجة مع العلم أنه قائد كتيبة وذو خبرة من الناحية الاجتماعية.

إذن فهؤلاء أولى بهذا الاطمئنان وهو أن الحسين ﷺ لا يقتل. فالأفضل لهم حسب ما يفكرون أن يبقى الحسين ﷺ منعزلاً بالمدينة ولا يذهب إلى هناك ليتلقى الانتصار والسمعة والملك.

---

(١) تحف العقول: ٢٤٥.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ٣٨.

(٣) مثير الأحزان: ٢٩.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كتب أهل الكوفة

قال المؤرخون: وفي مكة وافته كتب أهل الكوفة من الرجل والاثنين والثلاثة والأربعة يسألونه القدوم عليهم؛ لأنهم بغير إمام، ولم يجتمعوا مع النعمان بن بشير في جمعة ولا جماعة. وتكاثرت عليه الكتب حتّى ورد عليه في يوم واحد ستمئة كتاب، واجتمع عنده من نوب متفرقة اثنا عشر ألف كتاب. وفي كل ذلك يشددون الطلب وهو لا يجيبهم. وآخر كتاب ورد إليه من شبث بن ربعي وحجار بن أبجر ويزيد بن حارث وعزة بن قيس وعمرو بن الحجاج ومحمد بن أمير بن عطارد.

وفيه: أنّ الناس ينتظرونك لا رأي لهم غيرك فالعجل العجل يا بن رسول الله، فقد اخضر الجناب، وأينعت الثمار وأعشبت الارض، وأورقت الأشجار، فاقدم إذا شئت فإنما تقدم على جند لك مجندة[1]. ويقال: إن بعده (والسلام). ولكن (المقرم) حذفها.

وهذه العبارات التي وردت في الكتاب وهي قولهم: «فقد اخضر الجناب» إلى قولهم: «وأورقت الأشجار» لا يحتمل حملها على معناها المطابقي. وانما تحمل على الرمز لأُمور معينة اقتضت المصلحة عدم التصريح بها. أو أنّ معناها أنّ الأُمور معدة ومتهيئة لاستقبالك. وأما أنّها رموز منعت التقية عن التصريح بها.

فإن قلت: أنهم لم يكونوا في ذلك الحين في تقية.

---

(١) مقتل الحسين، المقرم: ١٤٤.

قلنا: نعم، من حيث الهدف. وأما من حيث التفاصيل فلا.

فإن قلت: فإنها تحتوي على مجابهة كاملة لقولهم: «جند لك» يعني محاربين للكيان القائم. وهو معنى أنهم ليسوا في تقية من أية جهة.

قلنا: نعم كأُطروحة، وحينئذ تسقط هذه الأُطروحة فنتحول إلى أُطروحات أُخرى.

ويمكن أن يكون حول ذلك بعض الأسئلة:

السؤال الأوّل: أنه لماذا لم تأتِ مثل هذه الكتب من غير الكوفة، كالبصرة والشام وغيرها؟ فإنّ الوارد في التاريخ أنّها جميعاً جاءت من الكوفة، أو قل من منطقة الكوفة.

جوابه: أنّ الكوفة كانت عاصمة الحكم العلوي ردحاً من السنين، وتربت على يد أمير المؤمنين عليه السلام وفيها مخلصون ومتحمسون له. كما أنّ فيها محبين له، وكل الشعب هناك يتذكر أيام السعادة التي عاشها بين يدي الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. وهذه الصفة لم تكن موجودة في أي مكان في العالم حتّى البصرة. فإنّ البصرة مرّ فيها الإمام عليه السلام أياماً خلال حرب الجمل، وصلّى فيها جماعة، إلّا أنّ مقامه غير طويل أولاً، ولم يعاشر الناس ويقضي حاجة المحتاجين واحدا بعد واحد، ويجيب على الأسئلة واحداً بعد واحد، ويخطب كثيراً كما فعل في الكوفة، وإنّما كان مشغولاً بحرب الجمل. ولم يصادف هناك حالة استقرار وهدوء وفعالية اجتماعية. فلم يحمل الناس هناك عنه نفس الفكرة التي حملها عنه الكوفيون.

وإذا لم يكن الحال في البصرة كذلك، ففي غيرها أولى.

مضافاً إلى أنّ البصرة كان واليها عبيد الله بن زياد، فكانت تخاف منه؛ لأنه قاس في حكمه، وواضح العداء والنصب لأهل البيت عليهم السلام.

فإن قلت: فإنه إنّما اشتدت قسوته في الكوفة تلافياً لما حصل من الحركة

العلوية بقيادة مسلم بن عقيل ﷺ من مصلحة الحسين ﷺ ولم يكن مثل ذلك في البصرة. وليس من المعروف أنه كان قاسياً في الحكم بالبصرة.

قلنا: إنهم هناك كانوا يعرفون اتجاهه وذوقه وموقفه الاجتماعي. فلو كان قد حصل في البصرة من الحركة الإيمانية ما حصل في الكوفة لكان رد فعله اتجاهها هو نفسه الذي فعله في الكوفة.

فإن قلت: فإنّه فعل ذلك في الكوفة؛ لأنه مخول بذلك من قبل الحاكم الأُموي، ولم يكن مخولاً بذلك من قبله في البصرة.

قلنا: نعم، إلّا إنه إنّما خوله بذلك نتيجة للحركة الإيمانية، فإذا حصل مثلها في البصرة فاحسب أنّ التخويل موجود وما أسرع ما يصل إليه.

السؤال الثاني: أنه ما الذي حدث في الكوفة في ذلك الحين، وقد بادرت بكل مفكريها ووجهائها وشعبها إلى دعوة الحسين ﷺ إليهم ولم تبادر قبل ذلك.

جوابه: أن هذا يحتاج إلى مقدمتين: إحداهما محرزة، والأُخرى محتملة تعرض كأُطروحة

المقدّمة الأُولى: أنهم لم يكونوا يستطيعون ذلك خلال حكم معاوية لمدى سيطرته ومكره واستعداده للتنكيل بهم. كما فعل بخاصة أصحاب الامام ﷺ كحجر بن عدي وجماعة آخرين ممن قتلهم بعد واقعة صفين، فكانت قسوته في الحكم مسببة لدرجة مكثفة من التقية والحذر لدى الكوفيين وغير الكوفيين.

وإنّما انفتحت الفرصة بعد موته مباشرة، وكأنه كان حجراً ثقيلاً أُزيل عن صدر هذه الأُمة، وقد اختلف وضع المجتمع بموته، وضعفت دولة الأُمويين بحكم يزيد، ولم يكن أحد يحسن به الظن أو يحبه. كما لم يكن (يزيد) إلى ذلك الحين قد مارس شيئاً من القسوة التي مارسها بعد ذلك. وإنّما المعروف عنه أنه مشغول بشهواته وخمره. ومثل هذا النموذج من الحكام لا يستطيع ممارسة الحكم القوي كما

كان عليه معاوية .

إذن فمن المناسب جداً أن يبدأ من جديد وجود الحكم العادل المحبوب للناس وهو حكم أهل البيت عليهم السلام متمثلاً بشخص الحسين عليه السلام لأنه هو الإمام في ذلك الحين .

المقدّمة الثانية : كأطروحة ، أنّ هذا الأمر وهو إيجاد همة عامة من الناس كلهم ، يحتاج في المجتمع إلى تحريك ، لا أنه يوجد في نفسه على سبيل الصدفة . ولم يرد في التاريخ أنه من هو أول من حركه ، ومن هنا كان الأمر مجهولاً . غير أننا نعلم أنّ في الكوفة مخلصين ومتحمسينن واتجاهاً علوياً قوياً يعتبر أقوى الاتجهات على الإطلاق في ذلك المجتمع . بالرغم من أنه لا يخلو أي مجتمع من اتجاهات مختلفة ومستويات متباينة ، إلّا أنّ الاتجاه العلوي كان هو الأقوى حتماً .

ولم تخنس الكوفة إلّا في عهد عبيد الله بن زياد ونراها بعد أن انقذها الله منه احتضنت التوابين ، بل أكثر التوابين هم منها فعلا . كما احتضنت المختار الثقفي للأخذ بالثأر ، وكانت عاصمته إلى أن تسلطت عليها القسوة من جديد متمثلة بالحجاج الثقفي .

وعلى أي حال فقد كانت هذه الكتب نتيجة طبيعية لهذا الاتجاه القوي بعد زوال المانع ووضوح ضعف الحكم المعادي انئذ .

السؤال الثالث : لماذا يتوقف أمر الحسين عليه السلام على الذهاب إلى الكوفة ، بل كان يستطيع أن يعلن نفسه حاكماً على المنطقة التي هو فيها ، ثم يتصرف بعد ذلك من نقطة قوة ضد الحكم الأُموي كما تقتضيه الأُحوال .

جواب ذلك من وجوه :

الوجه الأوّل : أنه لم يكن من المناسب جداً أن يبدأ الناس بذلك ويعلن نفسه أميراً ، لأنّ أسهل ما يقال ضده حينئذ كونه محباً للإمارة وطالباً للدنيا . فالأمر

كان متوقعاً على وجود المبادرة من غيره ، والطلب إليه في ذلك . في حين لم يحدث من هذا القبيل في المدينة والحجاز .

الوجه الثاني : أنّ المجتمع في الحجاز لم يكن كالمجتمع في الكوفة أكيداً . فإنّ الحجاز قد عاشت الخلافة الأُولى على طولها ، وعاشرت العلماء والمفكرين والرواة والقصاصين المؤيدين لها . من طبقة الصحابة والتابعين . والمهم أنّ هذا الاتجاه كان قوياً هناك شعباً وحكومة ، لو صح التعبير .

والناس وإن حملوا فكرة طيبة عن أهل البيت وذرية رسول الله ﷺ ، إلّا أنهم لم يحدثوا أنفسهم بتمكينهم من الحكم عليهم ، لما يعرفون منهم من تطبيق الحق والعدل . الأمر الذي يكسر بالتدريج مصالحهم الدنيوية ويؤدي إلى تشتيت شملهم وتصدع حالهم بخلاف الكوفة التي كانت علوية بطبعها .

الوجه الثالث : أننا نعرف أنّ في الحجاز قادة مشاهير معارضين للحكم الأُموي وللحسين عليه السلام أيضاً ، وأشهرهم عبد الله بن الزبير . وهذا معناه أنّ أي واحد منهم سواء كان على مستوى التأثير الفكري ، أو التأثير العسكري ، استطاع التغلغل في المجتمع واكتساب الثقة به والشهادة بمشروعية وجوده بل وجود المتحمسين له والمدافعين عنه ، قلوا أو كثروا .

وهذا معناه أنّ منطقة الحجاز مجتمع مختلط من هذه النواحي اختلاطا كبيراً وصعباً . ولا يمكن للحسين عليه السلام الانفراد به ، أو السيطرة عليه سيطرة تامة ، إلّا بالمعجزة التي لم تكن مفروضة في نشر الحق وإقامة العدل .

وخاصّة بعد أن نلتفت إلى أنّ أسلوب الحكم يومئذ لم يكن على أسلوب الحكومات الحديثة من الأجهزة والأموال والمعدات ، وأنحاء كثيرة لم يكن يعرفها الناس إطلاقاً .

كما لا يستطيع الحسين عليه السلام حسب فهمي أن يتعامل مع أعدائه خصوصاً ،

ومع المجتمع عموماً عن طريق القسوة والسيطرة المكثفة. وإنّما عليه أن يتعامل معهم بالأخلاق والتواضع والرحمة وهي صفات لا تفيد حقيقة في قيادة المجتمع المختلط وغير الكفوء. فإنّه يحتاج في قيادته إلى قسوة وحزم. فإذا كان يمثل جده رسول الله ﷺ في الرحمة فمن الصعب عليه أن يتقدم.

ومن ثم سنجد أنّ الإمام المهدي عليه السلام لا يتعامل مع المجتمع بالمجاملة والرحمة، وإنّما بالقسوة والشدة والتركيز، لكي يستطيع أن يكون جدياً حقيقة في إقامة دعائم العدل والحق، وإقامة حكم الله في الأرض. وقد ورد عنه في بعض الروايات بما مضمونه: أنه يقتل أحد أصحابه، وكان يقف إلى جانبه(١)؛ لأنه قد خطر في ذهنه أنه يكون ضد الإمام عليه السلام.

السؤال الرابع: أنه لماذا استجاب لهم الحسين عليه السلام مع علمه بكذبهم وخداعهم - بغض النظر عن علم الإمامة الخاص - فإنّ جملة منهم كان واضح النفاق يومئذ، كشبث بن ربعي، وحجار بن أبجر، وعمرو بن الحجاج، وآخرين. ونحن نعلم أنهم أصبحوا في معسكر الأعداء ضده في واقعة الطف في المستقبل القريب.

فكان مقتضى الفهم الاجتماعي المعمق الالتفات إلى ذلك، وعدم الاستجابة لهم إطلاقاً، وخاصّة إذا ضممنا الفهم المتشرعي تاريخياً. فإنهم يفهمون أنّ هذا الكتاب الأخير هو العلة الأخيرة، أو جزء العلة النهائي لذهابه عليه السلام. مع العلم أنّ جزء العلة النهائي هو فاشل في نفسه؛ لأنه موقع من أناس منافقين لا أكثر ولا أقل. وقد يكون فيهم من هو يهودي الاصل كعزرة بن قيس، ومن الصعب أن نتصور أنّ اليهودي يحسن إسلامه!. فإنما كان ذلك مصيدة للحسين عليه السلام ليس إلّا!.

جوابه: أننا ينبغي سلفاً أنّ لا نأخذ مسلماً أنّ العلة الأخيرة لحركة الحسين عليه السلام

---

(١) ورد في بحار الأنوار ٥٢: ٣٥٥، «بينا الرجل على رأس القائم عليه السلام يأمره وينهاه إذ قال: أديروه، فيديرونه إلى قدّامه، فيأمر بضرب عنقه، فلا يبقى في الخافقين شيء إلّا خافه».

هو هذا الكتاب ، وإنّما ذاك كان على سبيل الصدفة .

نعم ، اهتم به المؤرخون ونقلوا مضمونه . وهذا لا يعني أنه أهم في نظر الحسين عليه السلام من الكتب الأُخرى ، ولا يعني اهتمامه بالموقعين فيه أكثر من اهتمامه بالكتب الأُخرى . وإنّما الاهتمام الحقيقي ـ حسب فهمنا ـ منصب على كثرة الكتب فقط . بحيث يصدق أكيداً أنّ الكوفة كلها كتبت إليه . وإذا دعته الكوفة كلها وأظهرت إسناده واستعدادها للدفاع عنه ، كان ذلك موضوعاً كافياً للحكم الشرعي بوجوب الحركة .

فمن هنا يمكن القول : إن الذي دعاه إلى الحركة أحد أُمور :

أوّلاً : تمامية الحكم الشرعي في نظره بوجوب إقامة حكم الله في الأرض ، ولو على منطقة محدودة بعد تحقق موضوعه وهو دعوة الكوفيين له .

ثانياً : أنّ هناك رد فعل سي سوف يحصل إذا لم يذهب ، إما من الله سبحانه ، وهو غضبه بصفته أمراً بهذا الحكم الشرعي . وإما من الناس . وإنه متقاعس وجبان والفرصة سنحت له ولم يذهب ؛ لأن خبر هذه الكتب انتشر حتماً في المجتمع ، والذين يأتون بالكتب يذهبون ويتحدثون عنها في الكوفة وفي مكة وفي المدينة وفي أي مكان ، وكذلك مرسلوها . يكفينا وجود هذه الشائعة إذا وجدت في الكوفة نفسها .

ونحن نعلم أنّها إذا كانت ضد الحسين عليه السلام فستكون ضد الدين والمذهب . وهذا ما لا يريده الحسين عليه السلام بطبيعة الحال .

ثالثاً : أنه ذهب ليجرب حاله ومباشرته للحكم ، فإنّ استتب له الأمر بتوفيق الله سبحانه فهو المطلوب . وإلّا أمكن التفكير بأمر آخر ، الله يعلم أنه ماذا سوف يكون عندئذ . ونحن نعلم من موقف الحسين عليه السلام أنه سوف يختار أشد الاحتمالات من التصرف في رضا الله سبحانه .

رابعاً: أنه وإن كان المعلن ظاهراً هو ذهابه إلى الكوفة ، إلّا أنه لم يكن قاصداً لها ، ولم يكن له أمل الوصول إليها ، وإنّما كان قاصداً إلى كربلاء . أي إلى موضع شهادته التي أمر أن يسير فيها ونحوها أمراً شرعياً . مضافاً إلى أنه قاصد للمقامات العالية التي لن ينالها إلّا بالشهادة . وكل هذه الأُمور لا ربط لها بالكوفة ولا بكتب الكوفيين .

فإن قلت: فإنّ الأئمّة عليهم السلام من ذريته أصبح لديهم وضوح بهذه الفكرة ـ كما نعبر عرفاً ـ وهو ضرورة وجود أصحاب مخلصين كاملين لا تأخذهم في الله لومة لائم . وإلّا فهم لا يتحركون ولا يشهرون السلاح .

وعلى هذا المضمون عدة روايات :

منهـا: قوله عليه السلام : « لو كان لي بعدد هذه الغنيمات رجال لقمت بالسيف »(١) .

ومنهـا: قوله : عليه السلام : لرسول الثورة الخراسانية : كم تجد بخرسان مثل هذا ؟ فقال : والله ولا واحد »(٢) . قال : فأنا أرفض الاستجابة لكم . ونحو ذلك .

فهل كان يعلم الحسين عليه السلام ذلك أم لا ؟ فإنّ لم يعلم كان على خلاف عصمته ، وإن كان يعلم كان على خلاف حركته ، فلماذا تحرك ؟

جوابه : **أوّلاً:** أنّ هذا مبني على الوجوه الأُخرى غير طلب الشهادة ، وأما إذا كان غرضه الشهادة انسد السؤال .

ثانياً: بعد التنزل عن الوجه الأول ، أنه كان محرزاً وجود عدد كاف من المدافعين المخلصين في الكوفة ، وإن كان فيهم غيرهم أيضاً . وهذا كاف لتحقيق موضوع الحكم الشرعي بوجوب الحركة . كهاني بن عروة وميثم التمار والمختار الثقفي وحبيب بن مظاهر الأسدي ومسلم بن عوسجة وآخرين . وكلهم ممن استشهد في

---

(١) ورد عن الإمام الصادق عليه السلام : « والله يا سدير لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء ما وسعني القعود ... » ، الكافي ٢ : ٢٤٣ .

(٢) مدينة المعاجز ٦ : ١١٥ .

سبيل الله بعد ذلك وأثبت جدارته من هذه الناحية.

وبتعبير آخر: أنه كان في الكوفة بقدر هذه الغنيمات من الأصحاب المخلصين الكاملين!. إذن، فيجب القيام بالسيف، طبقاً للرواية التي قالها حفيده الصادق عليه السلام.

ثالثاً: أنه يمكن القول بأنّ موضوع الحكم الشرعي يتحقق بما دون ذلك. وقد تحقق له الموضوع وتنجز في ذمته الوجوب؛ لأن الكثرة لها دخل في الدفاع. فإذا كانت تحت قيادة رشيدة ومعصومة أمكن أن تؤتي أُكلها وتنتج نتائجها.

قال التأريخ: فقال مروان للوليد: عصيتني. لا والله لا يمكنك مثلها من نفسه أبداً. فقال الوليد: الويح لغيرك يا مروان. إنّك اخترت لي التي فيها هلاك ديني... أقتل حسيناً إن قال: لا أُبايع؟! والله إنّي لا اظن أن امرأً يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة، ولا ينظر الله إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم»[1].

وعتبت أسماء بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام امرأة الوليد عليه لما جرى منه مع الحسين عليه السلام. فاعتذر بأنه بدأ بالسب قالت: «وان سبّك حسين تسبّه؟ وإن سبّ أباك تسبّ أباه؟ فقال: لا أفعل أبداً»[2].

وظاهر (لا أفعل أبداً) أنه لا يسبُّه أبداً، لا أنه لا أنسبه أبداً. بحيث يكون هذا تعنتاً بموقفه والتزاماً بشتمه.

أقول: وهذه الفقرة وأمثالها ممّا لا ينقلها الخطباء على منابرهم لأجل أنّ فيها جنبة من الحق وقائلها من أهل الباطل. وهم ـ أعني الخطباء ـ يريدون أن يبرزوا أعداء الحسين عليه السلام وأعداء المعصومين عليهم السلام على أنهم باطل صرف، ليس لديهم أية جنبة من الحق مهما قلت، يبرزونهم شياطين خالصين في كل أقوالهم وأفعالهم.

---

(١) الإرشاد ٢: ٣٣، لواعج الأشجان: ٢٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٠٧.

مع العلم أنّ هذا مخالف للواقع غالباً لأمرين:

الأمر الأوّل: وجود ذلك في كثير من أهل الباطل.

منهـا: هذه الرواية عن الوليد.

ومنهـا: بكاء عمر بن سعد على الحسين عليه السلام.

ومنهـا: كتاب هؤلاء المنافقين إلى الحسين عليه السلام كحجار بن أبجر ورهطه وهو أشهر كتب الكوفة، مع أن حجار بن أبجر أصبح قائد كتيبة ضد الحسين عليه السلام في كربلاء.

ومنهـا: قول معاوية في بعض خطبه: إنّي والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا تصوموا، ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا أنّكم لتفعلون ذلك، ولكنّي قاتلتكم لأتأمر عليكم. وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون. ألا وإنّي كنت منّيت الحسن وأعطيته أشياء، وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها له»[(١)].

فهم يحذفون قوله: وإني أعلم أنكم تفعلون ذلك؛ لأن فيه نحواً من العذر لهذا الطاغية.

الأمر الثاني: أنّ النفس الإنسانية خلقها الله تعالى تميل إلى الخير والشر معاً، وكل مجموع سلوك الفرد إنّما هو ناشئ من هذا ومن هذا معاً، قال الله تعالى: ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾[(٢)]. والناس مختلفون تماماً في انصياعهم لهذا العامل أو ذاك. فمنهم من يكثر خيره، ومنهم من يكثر شره، على درجات مختلفة ومتباينة تبايناً شديداً.

وليس أعداء الحسين عليه السلام في استثناء من ذلك. كما أنهم ليسوا على غرار واحد

---

(١) الإرشاد ٢: ١٤.

(٢) البلد: ١٠.

في التصرف تجاه الشر، وإن وجد من يكون كذلك فعلاً، كيزيد بن معاوية وشمر بن ذي الجوشن. فإنّ جانب الخير قد يموت في نفس الإنسان تماماً إذا بلغ ذروته في درجات التكامل الأدنى. كما أنّ جانب الشر قد يموت تماماً إذا بلغ الفرد ذروته في درجات التكامل الأعلى.

فالمهم أنّ الدرجات الوسطى ذات التذبذب بين الخير والشر هم أكثر البشر، وهم موجودون في كلا المعسكرين: معسكر الحق ومعسكر الباطل. فبينما نجد الفرد أكثر تصرفه على الحق، نجد فيه شيئاً من الباطل، وبينما نجد الفرد أكثر تصرفه على الباطل نجد فيه شيئاً من الحق. وهذا ضروري في أي فرد بصفته ناتجاً من رسوخ كلا الجانبين في نفسه.

والمهم الآن: كمفكرين وباحثين ينبغي لنا أن نكون موضوعيين ومتجردين لدى البحث عن أي إنسان. فننسب له كل أفعاله وأقواله. ولا ننكر منها شيئاً لمجرد الغرض في انفسنا. فإنّ ذلك من الكذب ولا يحسن أمام الله ولا أمام التاريخ والإنسانية.

بل الأمر أكثر من ذلك، فقد نستفيد من كلمات الحق التي قالها الآخرون، فمثلا نقول: إنه شهد بحرمة قتله الأعداء، كما قال الوليد. أو بكى عليه الأعداء، كما بكى عمر بن سعد. أو ان نستشهد بفضائل أهل البيت الموجودة في كتب الجماعة وهكذا.

نعم، غرض الخطباء في كتم ذلك هو تحصيل الدمعة عند العوام. وهذا هدف طيب في نفسه، باعتباره مصداقاً لما ورد: من بكى على الحسين أو أبكى أو تباكى فله الجنة»[1]. مع العلم أنهم لو نقلوا جوانب الإنصاف القليلة الموجودة لدى بعضهم لتعجب منها العوام وانقطع بكاؤهم.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٤.

وأنـــا أقـــول: إنّ هـذا صـحيح ، إلّا أنـه لا يـنافي أنـنا فـي الأبـحاث الدقـيقة والموضوعية ، ينبغي أن نذكر كلا الجانبين ونعطي كلا الحقين . وإلّا لم نكـن نـحن منصفين ، وكان حذفه بمنزلة الشهادة بعدمه وهو كذب . ولا أقل إذا لم يكونوا هم من المنصفين فلابد أنْ نكون نحن من المنصفين .

هدف يزيد من قتل الحسين عليه السلام

الآن نتكلم عن هدف يزيد من قتل الحسين عليه السلام وهو متحقق ومحتمل في عدة أمور:

الأمر الأوّل: وهو أشهرها: إباء الحسين عليه السلام مبايعة يزيد، وهو الشعار الذي كان يرفعه الجيش المعادي في كربلاء، وإنك لو بايعت يزيد ووضعت يدك في يده كففنا عنك.

الأمر الثاني: ما ذكره يزيد في شعره، وهو الانتقام لقتلى بدر وأُحد، أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله. كما أكلت جدته هند كبد حمزة سيّد الشهداء. حيث يقول:

قد قتلنا القرم من أشياخهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل

فهو حقد قديم، نفّس عنه في أول حصوله على الملك والخلافة.

الأمر الثالث: أنّ هناك حركة علوية كانت منذرة بالاتساع والتغلغل في المجتمع. بدءاً بكتب الكوفيين ومروراً على سيطرة مسلم بن عقيل عليه السلام على الكوفة وانتهاء بتوجه الحسين عليه السلام إليها. وقد يكون أنّها تنتهي بالحكم العلوي الحسيني الذي يجهلون حده وأمده من حيث النشاط والمكان والزمان. والذي سيكون معادياً لهم وقاضياً عليهم وقاسياً في معاملتهم. إذن، فيجب من وجهة نظرهم القضاء عليه في مهده واجتثاث أمره قبل حدوثه وصعوده، وهذا ما فعلوه.

ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يعلنوا ذلك للمجتمع بصراحة؛ لأنّ كل أحد من

حقه الطموح والسيطرة كما تشاء له رغباته. وليس من حق أحد أن يمنعه إلّا أن يكون مدافعاً عن ملكه. وأقل ما نقول في الحسين عليه السلام: إنه يريد الملك، وليس في هذا محذور دنيوياً ولا قانونياً، بل ولا دينياً. وقد أراد الملك من هو مثله كمعاوية ويزيد نفسه. بل ونبي الإسلام أيضاً من وجهة نظر هؤلاء الساقطين، لانه يقول:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل[1]

وهو يعني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أراد بادعاء النبوة مجرد السيطرة وحب الملك والزعامة. وهو بذلك يمثل جده أبا سفيان حين قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، والذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار[2].

إذن، فإرادة السيطرة مهما كانت دوافعها مشروعة في نظرهم، فليكن الحسين عليه السلام كذلك على اسوأ تقدير. إذن، فعمله مشروع. فلماذا ينبغي قتاله والاجهاز عليه؟ ومن هنا لم يكونوا يستطيعون أن يعلنوا ذلك في المجتمع صراحة وأنهم يمنعون الحسين عليه السلام عن الملك والسيطرة، فجعلوا شعارهم أخذ البيعة ليزيد.

ومن الواضح أنه لو بايع يزيد لم يستطع السيطرة على الكوفة أيضاً. فقد خيروه بين أمرين، كلاهما في مصلحتهم. إما القتل وإما البيعة «بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة»[3] يعني البيعة.

فإنّ حصلت البيعة فبها ونعمت، من وجهة نظرهم، وقد خاب الحسين عليه السلام واستسلم وانطفأ نوره واندرس أثره. وإن لم يبايع فلا ينبغي أن يمارس نشاطه المأمون ويصل إلى هدفه المنشود، وإنّما لا بدّ من قتله والإجهاز على حركته.

ومن هنا نعرف أنه لا تنافي بين تلك الأهداف الثلاثة لأعداء الحسين عليه السلام،

---

(١) تاريخ الطبري ٨: ١٨٨.
(٢) الاحتجاج ١: ٣٤٩.
(٣) اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٩.

بل كلها صحيحة في نظرهم، وكلها قد فكروا بها فعلا وأبرزوها بوضوح. وكان مقتل الحسين عليه السلام سبباً لتحققها جميعاً في نظرهم، لولا أنّ الله سبحانه نصر الحق بعده بحركة التوابين وحركة المختار الثقفي.

والسؤال الآخر التابع لذلك: أنه من الواضح أنّ الأمر يتم لأعداء الحسين عليه السلام بمقتله شخصياً، ولا حاجة إلى قتل غيره؛ لأنه هو الذي يأبى أن يبايع، وهو الأمير المتوقع على الكوفة، وهو أبرز المعادين للحكم يومئذ. وهذا ما أدركه الحسين عليه السلام حين قال: «فإنّ القوم إنّما يطلبونني ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب غيري»[1].

فلماذا فعلوا فعلتهم الشنعاء بكل قساوة في كربلاء؟ فزاد القتل واستفحل الظلم وتعددت المظالم والمصائب. فماذا كان غرضهم في ذلك؟

وهذا يمكن تفسيره في مرحلتين:

المرحلة الأُولى: في قتل الاصحاب وبني هاشم الذي قتلوا قبله.

وهنا من الواضح أنهم لم يكونوا يمكنهم أن ينالوا الحسين عليه السلام بسوء ما دام واحد من هؤلاء موجوداً. وخاصّة مع نظام الحرب وتقاليدها الشائعة عندهم. ومن هنا كان لا بد ـ من وجهة نظرهم ـ قتل الجميع ليصلوا إلى قتل الحسين عليه السلام.

المرحلة الثانية: ما حصل بعد مقتله عليه السلام؛ لأنهم بمقتله بلغوا المراد الدنيوي. فلماذا فعلوا الأمور الأُخرى؟ وهي فضائع وفضائح كثيرة، كحرق الخباء وسرقة النساء وقطع الرؤوس ودوس جسد الحسين عليه السلام بحوافر الخيل. وكل واحد منها يملأ الكون مصائب وعجائب.

وهذا لا تفسير له اجتماعياً وسياسياً، ولكنه ناشئ من الحقد الدفين والغل الأعمى، لكي يزيد العوض في نظرهم على المعوض.

---

(١) الأمالي، للصدوق: ٢٢٠.

فليت شعري ، فأنّ أشياخه في بدر قتلوا بدون عطش ولا دوس ولا حرق ولا نهب . ولكنهم بالمقابل فعلوا ذلك كله .

ولكن هذا يتوقف على أنّ الموجودين في جيش يزيد من بني أُمية يشعرون بشعور يزيد فورياً ، بحيث يريدون الانتقام من قتلى بدر وأُحد ،كما يريد يزيد . أو أنّ الأمر أو الاتفاق قد حصل على ذلك مسبقاً . وكلاهما بعيد .

ومن الأكيد أننا لا نستطيع أن ننسبه إلى يزيد مباشرة ، وهو جالس في الشام لا يعلم بالتحديد ما الذي يجري في الكوفة وكربلاء .

نعم ، يمكن نسبته إلى عبيد الله بن زياد . والظاهر أنّ عليه بعض الروايات . مع العلم أنه لم يكن في طف كربلاء ليوجه إليهم الأوامر مباشرة بهذا الخصوص .

فإما أن نقول : إنه أمرٌ مبيت ومتفق عليه سلفاً بين عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد وأضرابهم . وإما أن نقول : إنه كتب إليه بذلك في وقت متأخر . وإما أن نقول : إنه من عمر بن سعد نفسه الذي كان يعتبر هو قائد الجيش الأعلى المعادي للحسين عليه السلام ، فعله زيادة في النكاية أولاً ، وزيادة في القرب من أعداء الله ، عبيد الله بن زياد ويزيد . ولم يوفقه الله سبحانه إلى ذلك . وسلط عليه من يقتله على فراشه .

تقديم النصيحة للحسين عليه السلام

توجد ظاهرة بالنسبة إلى المؤمنين الذين نصحوا الحسين عليه السلام بعدم التوجه إلى العراق. بل يمكن أن يقال: إنها أكثر من ظاهرة. بما فيهم محمد بن الحنفية، وعمر الأطرف ابن أمير المؤمنين عليه السلام وامه سلمة.

وهذا يواجه عدة إشكالات:

منها: أنه لا معنى لنصح الحسين عليه السلام وإعطائه الرأي، دون أن يسألهم ويطلب منهم المشورة. فإنّه من الممكن أن يقال: إنّ كل وجيه وعظيم في المجتمع لا معنى لنصيحته ما لم يأذن هو أو يطلب المشورة، والحسين عليه السلام لم يأذن أو يطلب المشورة. فإنها سوء أدب من ناحية وحمل له على الغفلة وعدم التأمل في الأُمور من ناحية ثانية. في حين أنه من الواضح أنه أرشدهم وأعلمهم وأبعدهم نظراً. فما قيمة الصغير تجاه الكبير، والسفيه تجاه الرشيد. ولعل من نتائج ذلك عدم أخذ الحسين عليه السلام برأي الناصحين على الإطلاق، لأنّ المصلحة التي يعلمها ممّا لا يمكن التنازل عنها لأحد.

ومنها: أنّ جملة من هؤلاء الناصحين يعلمون بحصول الشهادة في قضاء الله وقدره، وقد رووا أو سمعوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك. فكيف يتصور إمكان الحيلولة دون حدوث ما قضى الله وقدره في علمه الأزلي الثابت؟ إنّ هذا ممّا لا يمكن.

وجواب ذلك على أكثر من مستوى:

الأول: إنّ الباعث لهم على النصيحة إنّما هو الشفقة عليه والحب له من

ناحية، وتصور المجتمع خالياً منه وما يحتمل أن تحصل من مفاسد ومظالم من ناحية أُخرى.

الثاني: أنهم لا يريدون الحيلولة دون قضاء الله وقدره، فإننا الآن بعد حصول الحادثة نعلم أنّها كانت مقضية لا بدّ منها في علم الله تعالى. وأما قبلها فلم يكن هذا واضحا. كل ما في الأمر أنّها كانت مسموعات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وامير المؤمنين عليه السلام وهم صادقون بطبيعة الحال. إلّا أنّ أمثال هذه الإخبارات قد يدخل فيها البداء. فإذا كتب الله النجاة للحسين عليه السلام فقد حصل البداء ولا محذور من ذلك. وبذلك نعلم أنّ الحادثة لم تكن في قضاء الله المحتوم، بل كانت في لوح المحو والإثبات الذي يمكن أنْ يطرأ عليه التغير والتبدل والبداء.

فقبل وقوع الحادثة، لم يكونوا يعلمون أنّها من القضاء المحتوم، ولعلها من لوح المحو والإثبات. فتحملهم الشفقة عليه على أن يبادروا للنصح على أمل ورجاء المطلوبية أن يكون في الإمكان رفع اليد عنها وحصول البداء فيها. وهذا موقف مشروع في نفسه، جزاهم الله خيراً.

الثالث: أنّ الشيعة عموماً لم يكونوا يحملون الفكرة التي نحملها الآن عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام وإنّ الواحد منهم إمام مفترض الطاعة ومعصوم عن الخطأ والنسيان. بل مجرد كونه مشاراً إليه من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله، وممدوحاً من قبله، وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وابن بنته، ونحو ذلك. وهذا عليه دلائل كثيرة من الروايات. ومعه يكون موضع النصيحة في نظرهم موجوداً.

الرابع: أنّ الحسين عليه السلام وإن كان زعيماً وعظيماً في أُسرته ومواليه، إلّا أنه لم يكن يرتب هذا الأثر على نفسه. بل كان متواضعاً كجده رسول الله صلى الله عليه وآله، يخاطب الصغير والكبير، ويقضي حاجة القريب والبعيد، ولا يحتشمه أحد. ولم يعاتب على فعل، ويتحمل كثيراً من أمثال هذه الكلمات بسعة صدر وصبر عظيمين. إلى حد أصبح لا يحتشمه الآخرون، وخاصّة وهم يحسبون أنهم مقربون عنده ومن أقاربه.

أو يحسبون أنهم مشاهير في المجتمع مثله ، كأعدائه الذين نصحوه .

ومن المؤسف أنْ نرى كثيراً من الحوزة ليسوا على هذا المستوى ؛ لأنهم لا يسيرون على سيرة علي بن أبي طالب عليه السلام ، فأيٌّ منا يجلس جلسة العبد ويأكل أكل العبد ، ويأكل مع العبيد ، ويجلس على التراب ، ويخصف نعله بيده . فهل نريد من الحسين عليه السلام أنْ يكون مثلنا ؟

إنّما يسير الحسين عليه السلام بسيرة جده وأبيه ، وهي التواضع . فإنّه لا يقول : أنا .. أنا . وإن كان هو . هو . ولكنه لا يرتب على ذلك أثراً ؛ لأنه ترابي ومتواضع ، وممثل لسيرة أبيه وأُمه وجده . فكانت أُمه تخرج ومقنعتها مخاطة باثنتي عشر خوصة من خوص النخيل . فهل أنّ أبسط النساء تعمل الآن هكذا .

تقول الرواية : إنها تمنت على أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله خاتماً من ذهب (وإن كنا نجلها عن ذلك) . فقال : ألا أُعلّمك ما هو خير من الخاتم ؟ إذا صلّيت صلاة الليل ، فطلبي من الله عزّ وجلّ خاتماً ، فإنّك تنالين حاجتك .

قال : فدعت ربّها تعالى ، فإذا بهاتف يهتف : يا فاطمة ، الذي طلبتي منّي تحت المصلّى ، فرفعت المصلّى فإذا الخاتم ياقوت لا قيمة له ، فجعلته في اصبعها وفرحت ، فلمّا نامت من ليلتها رأت في منامها كأنّها في الجنّة ، فرأت ثلاث قصور لم ترَ في الجنّة مثلها ، قالت : لمن هذه القصور ؟ قالوا : لفاطمة بنت محمّد .

قال : فكأنّها دخلت قصراً من ذلك ودارت فيه فرأت سريراً قد مال على ثلاث قوائم ، فقالت : ما لهذا السرير قد مالت على ثلاث ؟ فقالوا : لأنّ صاحبته طلبت من الله خاتماً فنزع أحد القوائم وصيغ لها خاتماً وبقي السرير على ثلاث قوائم ، فلمّا أُصبحت دخلت على رسول الله وقصّت القصّة ، فقال النبيّ : معاشر آل عبدالمطّلب ، ليس لكم الدنيا إنّما لكم الآخرة ، وميعادكم الجنّة ما تصنعون بالدنيا فإنّها زائلة غرّارة ؟ ! فأمرها النبيّ صلى الله عليه وآله أن تردّ الخاتم تحت المصلّى ، فردّت ،

ثمّ نامت ، فرأت السرير على أربع قوائم ، فسألت عن حاله ، فقالوا : ردّت الخاتم ورجع السرير إلى هيئته»[١].

فالحسين ﷺ عندما يكون متواضعاً ، يتجرأ الناس عليه ، فينصحونه . وهو يستمع إلى كلام الصغير والكبير . فكانوا يناقشونه بما يريدون . ولكنه يفعل ما يريد ، وكان له أن لا يأخذ بكلامهم .

قالت أم سلمة : لا تحزني بخروجك إلى العراق ، فإني سمعت جدك رسول الله ﷺ يقول : «يقتل ولدي الحسين ﷺ بأرض العراق في أرض يقال لها : كربلاء»[٢]، وعندي تربتك في قارورة دفعها إليّ النبي ﷺ .

وإلى هنا يكون حصول البلاء محتملاً ، ولكن لننظر في الجواب :

فقال الحسين ﷺ : يا أُماه وأنا أعلم أني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً ، وقد شاء عز وجل أنْ يرى حرمي ورهطي مشردين ، وأطفالي مذبوحين مأسورين مقيدين ، وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً .

وهذا معناه أنّ القضاء الحتمي نافذ في ذلك قطعاً . ومع ذلك قالت أم سلمة : واعجباه فأنى تذهب وأنت مقتول ؟ وكان ينبغي لها أن تقول : وا عجباه كيف لا تذهب !. فإنّ ذهابك حتمي .

فقال ﷺ : يا أُماه إن لم أذهب اليوم ذهبت غداً ، وإن لم أذهب في غد ذهبت بعد غد ، وما من الموت والله بد . وإني لأعرف اليوم الذي أُقتل فيه ، والساعة التي أُقتل فيها ، والحفرة التي أُدفن فيها . كما أعرفك ، وأنظر إليها كما أنظر إليك . وإن أحببت أن أُريك مضجعي ومكان أصحابي .

فطلبت ذلك ، فأراها تربة أصحابه (المستقبلية). ثم أعطاها من تلك التربة

---

(١) مستدرك سفينة البحار ٣: ٢١.

(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٣١.

وأمرها أن تحتفظ بها في قارورة ، فإذا رأتها تفور دماً تيقنت مقتله . وفي اليوم العاشر بعد الظهر نظرت إلى القارورتين فإذا هما يفوران دماً(١).

أقول : لعل البعض يفهم من (أراها تربة أصحابه) أنه أراها أرض كربلاء في ذلك الحين ، مع العلم أن المقصود من ذلك أنه أراها كربلاء بعد مقتلهم ، أي أراها قبروهم . وكذلك فإنّ الرواية تقول (تربة أصحابه) وليس تربته ؛ لأنها لا تطيق ذلك .

والظاهر أنّ القارورة الأُولى دفعها رسول الله صلى الله عليه وآله إليها ، وهي تربة الحسين عليه السلام ، والثانية دفعها الحسين عليه السلام وهي تربة أصحابه .

وقد كان السيّد أبو جعفر رحمه الله ملتفتاً إلى أنّ الحسين عليه السلام أجاب كل واحد من ناصحيه بما يناسب حاله وقناعاته ، وهو أعلم بحال المخاطب له . فأُم سلمة اعتذر إليها بوجود القضاء الحتمي ، ومحمد بن الحنفية اعتذر له بأنه رأى جده رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام فأمره بذلك وأجاب عبد الله بن عمر قائلاً : « أما تعلم أنّ بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبياً ، ثم يبيعون ويشترون كأن لم يصنعوا شيئاً ، فلم يعجل الله عليهم ، بل أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر »(٢).

والذي أحسبه أنّ المحصل في كل الأجوبة واحد ، بالرغم من اختلافها بالدلالة المطابقية . وهو متكون من أمرين :

الأول : الإشارة إلى أنّ ذلك من القضاء المحتوم .

الثاني : أنه عازم على عدم البيعة والخروج إلى العراق .

مضافاً إلى أننا ينبغي أن نلتفت إلى أنّ جلسة قد حصلت كل مرة مع واحد من هؤلاء . فهل من الممكن أنّها اقتصرت على هذه الكلمات القليلة التي نقلها

---

(١) بحار الأنوار ٤٤ : ٣٣١ ، مع اختلاف اليسير.

(٢) مثير الأحزان : ٢٩.

المؤرخون ، أو أنّ الحديث فيها قد طال فعلا ؟

وماذا قال الحسين عليه السلام غير ذلك ؟ الله العالم . إذن ، فلا نستطيع أن نجزم بالفرق الجوهري بين أقواله .

هذا ، وفي التاريخ وضوح بعذر محمد بن الحنفية عن الخروج معه . منها : قول الحسين عليه السلام له : وأما أنت فلا عليك أن تقيم بالمدينة ، فتكون لي عيناً عليهم لا تخفي عني شيئاً من أُمورهم . ولم ينقل التاريخ أنه فعل ذلك ، ولعله لم يتمكن منه .

وكذلك وصيته إليه قبل خروجه من المدينة فإنها واضحة بالدلالة الالتزامية على وجوب بقائه وليس جوازه فقط .

وعلى أي حال فما سمعته قبل عدة سنين من بعض الخطباء من أنه كان معذوراً ؛ لأنه كان قوي الساعدين فأُصيب بالعين فضعفت ساعداه لا حاجة إليه ، مضافاً إلى أنّها رواية ضعيفة وبعيدة الصدق .

كتاب الحسين عليه السلام إلى البصرة

قال التاريخ: وفي مكة كتب الحسين عليه السلام نسخة واحدة إلى رؤساء الأخماس بالبصرة، وهم مالك بن مسمع البكري والاحنف بن قيس والمنذر ابن الجارود ومسعود بن عمرو وقيس بن بن الهيثم وعمرو بن عبيد، يدعوهم إلى نصرته وإمامته. وهي حركة معتد بها في مقام المعارضة واثبات الوجود. إلّا أنه لم يستجب أحد منهم إلّا واحد، وهو يزيد بن مسعود، حيث جمع الجيش وسار بهم فلم يدرك النصرة.

فسلم المنذر ابن الجارود العبدي رسول الحسين عليه السلام إلى ابن زياد فصلبه عشية الليلة التي خرج في صبيحتها إلى الكوفة.

وأما الأحنف فإنّه كتب إلى الحسين عليه السلام: أما بعد فاصبر إنّ وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون.

وقد كتب يزيد بن مسعود جوابه إلى الحسين عليه السلام بالموافقة، فلما قرأ الحسين عليه السلام كتابه قال: مالك، آمنك الله من الخوف وأعزك وأرواك يوم العطش الأكبر.

ولما تجهز ابن مسعود إلى المسير، بلغه قتل الحسين عليه السلام فاشتد جزعه، وكان أسفه لفوات الأُمنية من السعادة بالشهادة(١).

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٦٦، مقتل الحسين، أبو مخنف: ٢٦، مع اختلاف في الألفاظ.

مهمة مسلم بن عقيل عليه السلام :

ثم إنّ الحسين عليه السلام كتب كتاب الجواب إلى أهل الكوفة ، وتجدونه بالمصادر وأعطاه إلى مسلم بن عقيل عليه السلام ليحمله إلى الكوفة ، وأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطف . فإنّ رأى الناس مجتمعين له عجل له بذلك .

فأقبل مسلم عليه السلام إلى المدينة فصلّى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وودع أهله واستاجر دليلين من قيس ، فأقبلا به ، فضلا الطريق وعطشوا فمات الدليلان من العطش . وقالا لمسلم : هذا الطريق إلى الماء . وفي مقتل المقرم أنه تركهما ومضى على الوصف ، ولم يسعه حملهما ؛ لأنهما على وشك الهلاك .

فكتب مسلم عليه السلام إلى الحسين عليه السلام (وهذا ما حذفه المقرم) : إني أقبلت إلى المدينة واستاجرت دليلين فضلا الطريق ، واشتد عليهما العطش فماتا . واقبلنا إلى الماء فلم ننج إلّا بحشاشة أنفسنا . وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبيت . وقد تطيرت من وجهي هذا ، فإنّ رأيت اعفيتني وبعثت غيري .

فكتب إليه الحسين عليه السلام : أما بعد فقد خشيت إلّا يكون حملك على الكتاب إليّ إلّا الجبن ، فامض لوجك والسلام[1] .

فهنا إشكالان حول الدليلين اللذين ماتا وتركهما مسلم بن عقيل عليه السلام ، والرواية مجملة هل أنه تركهما قبل موتهما أم بعده ؟ وعلى كلا التقديرين لا يكون هذا جائزاً . أما إذكان قد تركهما في حياتهما فيجب عليه إنقاذهما من العطش والهلاك . وأما إذا كان قد تركهما بعد موتهما فيجب عليه تجهيزهما ودفنهما .

وجوابه : أنّ هذا سؤال من لا يعرف الحال في تلك الصحراء المترامية الأطراف ، التي لا أول لها ولا آخر كما يقال . ولكلا الحالين جوابه :

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٢٦٣ ، مقتل الحسين ، أبو مخنف : ١٩ ، مع اختلاف يسير .

اما إذا كان قد تركهما قبل موتهما ، فله أكثر من جواب :

أولاً : ما ذكره المقرم حيث قال : وغاية ما وضح للدليلين العلائم المفضية إلى الطريق لا الطريق نفسه . ولم تكن المسافة بينهم وبين الماء معلومة ، وليس لهما طاقة على الركوب بأنفسهما ، ولا مردفين مع آخر . وبقاء مسلم بن عقيل عليه السلام معهما إلى منتهى الأمر يفضي إلى هلاكه ومن معه . فكان الواجب الأهم التحفظ على النفوس المحترمة بالمسير لإدراك الماء ، فلذلك تركهما في المكان(١) .

ثانياً : عدم استطاعة جلب الماء إليهما لليقين بأنه لو رجع إليهما لوجدهما قد ماتا .

ثالثاً : أنهما رضيا بمغادرته ، فقد سقط حقهما في ذلك وفدياه بأنفسهما .

غير أنّ ما ذكره المقرم من وجود آخرين معه خلاف الظاهر ، بل الظاهر أنه بقي وحده ، وتوجه إلى الماء وحده .

وأما إذا تركهما بعد موتهما ، فتغسيلهما وتكفينهما ودفنهما متعذر تماماً . ونقلهما إلى مكان آخر أشد تعذراً .

فإن قلت : فإنه يمكن أن ييممهما ويدفنهما .

قلنا : هذا يأخذ منه الجهد والوقت والعطش ، وهو قد كان مشرفاً على الهلاك من الحر والعطش مثلهما ، إلّا أنه أقوى قليلاً . فلم يكن من المعقول أن يمارس ذلك كله وهو مجهداً جداً .

مضافاً ، إلى أنّ الدفن لأجل حجب ضرر الجسدين عن الناس . ومعلوم أنّ الجسدين في هذه الصحراء الواسعة لا ضرر فيه على أحد وسوف يسرع إليهما الجفاف تحت الشمس المحرقة أو تاكلهما الحيوانات . فلا يكون أحد متضررا .

---

(١) مقتل الحسين ، المقرم : ١٤٦ .

والسيد المقرم وإن لم ينقل التشاؤم من قبل مسلم بن عقيل عليه السلام كما نقله ابن الأثير، إلّا أنه نقل شيئاً يدعمه، ويدل على أنّ لمسلم عليه السلام مثل هذا الفهم والاتجاه، يعني يتفاءل ويتشاءم من بعض الأشياء. وقد لا يكون هذا اختيارياً للفرد.

قال المقرم: ولما قرأ مسلم الكتاب سار من وقته، ومرّ بماء لطي فنزل عليه ثم ارتحل. فإذا رجل يرمي ظبياً حين أشرف (ظهر) له فصرعه فتفاءل بقتل عدوه[١].

أقول: هذا من الصعب فهمه هكذا، وذلك لعدة أُمور:

١ ـ أنه لم يكن يعلم أنه سيحصل بينه وبين عدوه قتال، وليس في الكتاب الذي يحمله إشارة إلى ذلك.

٢ ـ أنّ العكس هو الصحيح. فإنّ الغزال رمز للخير والعطاء، ويستفاد من لحمها وجلدها. إذن، فمن الراجح أن تكون رمزاً عنه هو. فيكون قتلها رمزاً عن مقتله لا عن مقتل عدوه. وهذا بالنسبة إليه من التشاؤم لا من التفاؤل.

وعلى أي حال فمن يتفاءل يمكن أن يتشاءم. فلا تكون تلك القصة ببعيدة من هذه الناحية، وإن لم ينقلها المقرم، وبالتأكيد أنه رآها في المصادر، ولم ينقلها حفاظاً على سمعة مسلم بن عقيل عليه السلام.

والجواب على ذلك من وجوه:

الأوّل: تكذيب هذه الحادثة والاستعفاء عن الذهاب نتيجة للتشاؤم. فإنّه موجود في مصادر العامة وغير موجود في المصادر الخاصة. فلعله من الدس الذي حصل ضد أهل البيت عليهم السلام وتابعيهم.

الثاني: أنّ النفس مركوز فيها من كلا الجانبين الهدى والضلال. فكما يوجد من أهل الضلال ما يكون من جانب الهدى فأيضاً قد يوجد من جانب أهل الهدى

---

(١) مقتل الحسين، المقرم: ١٤٧.

ما يكون إلى جانب الضلال. وهو ليس ضلالا، وإنّما هو من جنس حب الذات أو حب الدنيا وخوف الموت، وهو ارتكازي لدى الفرد. إلّا أنه قد يكون مضاداً للهدف الحق كما في هذه الحالة.

ومثلها قول مسلم بن عقيل عليه السلام في الكوفة حين قيل له: إنّ من يطلب مثل ما تطلب لا يبكي إذا نزل به مثل الذي نزل بك، قال: إنّي والله ما لنفسي أبكي وما لها من القتل أرثي، وإن كنت لم احبّ لها طرفة عين تلفاً، ولكنّني أبكي لأهلي المقبلين إلى الكوفة، أبكي الحسين وآل الحسين»[1]. ممّا يدل على أنّ هذا الحال كان يستيقظ في نفس مسلم بن عقيل عليه السلام بين الحين والحين.

الثالث: أنّ الشتاؤم قد يحصل اليقين بالنتيجة وهما أو حقيقة، ولم يكن مسلم بن عقيل عليه السلام متوهماً؛ لأن ما حصل بالنتيجة هو مقتله فعلاً.

ومعناه أنه من هذا التشاؤم حصل له اليقين من فشله دنيوياً، وعدم حصول الخير في وجهته تلك. الأمر الذي يؤدي إلى فشل مهمته التي أرسله الحسين عليه السلام لأجلها. وبالتالي سيعود الفشل إلى الحسين عليه السلام وإلى الدين في النتيجة. فيكون الأولى أن يبادر إلى الاستعفاء عن ذلك. ولا أقل من المبادرة إلى السؤال من الحسين عليه السلام عن الاستمرار في مهمته.

وأما قوله: «أعفيتني وبعثت غيري»، فالشيء الذي أفهمه أن التشاؤم يرتفع بالتبديل. أو قل: إنّ التشاؤم إنّما هو على خصوص مسلم عليه السلام. فإرسال غيره يرفع التشاؤم. فمن المنطقي أن يرسل الحسين عليه السلام شخصاً يخلو من احتمال الفشل الدنيوي، وهو خير للحسين عليه السلام وللدين أيضاً، لو أخذنا هذا التشاؤم بنظر الاعتبار. ولذا قال مسلم بن عقيل عليه السلام بلسان الناصح المؤدب: فإنّ رأيت أعفيتني وبعثت غيري.

---

(١) البداية والنهاية ٨: ١٧١، مقتل الحسين، أبو مخنف: ٥٠.

ولم يكن لمسلم بن عقيل عليه السلام أن يسكت بعد أن حصل له الاطمئنان من الفشل الدنيوي.

فإن قلت: فإنّه يعلم أنّ الحسين عليه السلام يعلم بذلك.

قلنا: أولاً: لا دليل على أنه يعلم به؛ لأن مستويات المعصومين لم تكن ظاهرة بين أجيال الشيعة إلى ذلك الحين.

ثانياً: أنه إن كان يعلم بذلك فهو يعلم أنّ ذلك العلم لا يستعمله في الظاهر، وإنّما يتصرف بصفته جاهلاً به. فلا بد أن يجعله عالماً ظاهراً به.

وأما جواب الحسين عليه السلام فهو لم يقل به: إنك جبان، وإنّما كلامك ذلك يمكن أن يحمل على الجبن، أو هو مظنة الجبن. أو قل: لو صدر من غيرك لكان محمولاً عليه. فلذا يقول: خشيت أن لا يكون حملك على ذلك.

وهذا معناه أمران:

الأول: الظن المستفاد من «خشيت»، بل هو لا يدل على الظن الفعلي، بل الاقتضائي، وهو المظنة كما يعبرون.

الثاني: الانحصار (ما حملك إلّا) فلو لم يكن منحصراً لما كان عيباً. ولربما يكون هو الجانب الأدنى والأضعف في نفسه، ويكون الجانب الأهم من الاستعفاء هو مصلحة الدين، ولكن لابأس أن تقتضي مصلحة الدين نجاته من المصاعب أو من القتل. نعم لو كان الجبن وحده حمله على ذلك لكان ضعفاً شديداً أو عيباً.

مضافاً إلى أنّ الحسين عليه السلام يعلم بجهة التشاؤم، وانها قد تأتي بغير اختيار، ولم يكذبه في ذلك. ولكن كان العتب عليه هو أن المتوقع منه تحمل التبعات وإن حصل التشاؤم. وأما التوهم بأنها ستكون ضد الدين فهو ليس بصحيح؛ لأن الهدف الديني الحقيقي يتوقف على حصول مثل هذه الأُمور لاعلى نفيها. نعم تأسيس الحكم الثابت ينافيه. ولم يكن الحسين عليه السلام مستهدفاً ذلك، ولم يكن

مسلم بن عقيل ﷺ يعلم بذلك.

وأريد هنا الإشارة إلى شيء، وهو أنني جعلت في حياتي فلسفة أُطبقها. ومن جملة الأُمور التي هي من فلسفتي: أن التشاؤم والتفاؤل لا مجال لها في حياتي، ولكن قد حمل علي التشاؤم في يوم ما تحميلاً. فإنّه قد يكون اختياريا. وحينما لا يكون اختيارياً لا يكلف الإنسان بتركه.

فعندما تمرضت والدتي رحمها الله مرض الوفاة، وقد نقلناها إلى المستشفى، وكان والدي هو المرافق لها. وكنت أذهب إليهما بين الحين والآخر.

وفي مرة من المرات، حينما كنت أذهب إلى المستشفى صادفت سيارة محطمة في الطريق، فتشاءمت من وجود هذه السيارة قهراً ومن دون اختيار، وأولت ذلك أن أُمي ستتوفى. وكلما أردت التخلص من هذا التشاؤم لم أستطع. ولعله لم يمر على والدتي إلّا ساعة، وتوفيت، رحمها الله تعالى. فإنّ التشاؤم قد يكون غير اختياري، وقد يكون صادقاً في بعض الأحيان.

وأُريد هنا أن أعقد مقارنة بين موقف مسلم بن عقيل ﷺ وموقف نبي الله يونس ﷺ. فكلاهما أراد الانسحاب عن ساحة المعركة وعوقب على انهزامه. ولكن موقف مسلم بن عقيل ﷺ أفضل حالاً من موقف يونس ﷺ.

فعند المقارنة نجد في موقف مسلم بن عقيل ﷺ نقطة ضعف ونقطة قوة. أما نقطة الضعف: فإنّ يونس ﷺ صبر حتّى حصل له اليأس من هداية قومه. وقد حصل له اليأس بعد عدة سنين قضاها بينهم. وأما مسلم بن عقيل ﷺ فقد أراد الانسحاب والاستعفاء قبل أن يواجه قومه.

وأما نقطة القوة في موقف مسلم بن عقيل ﷺ. فإنّ عقوبة يونس ﷺ كان أن يبتلعه الحوت. ولكن مسلم بن عقيل ﷺ لم تعجل له العقوبة. وكان حوته من بعد ذلك هو عبيد الله بن زياد؛ لأنه المسيطر دنيوياً كسيطرة الحوت.

ويونس عليه السلام إنّما دخل في البلاء الدنيوي رغماً عليه. ولكن مسلماً عليه السلام دخل باختياره. فإنّه أمر بالدخول. فدخل كالرجل الذي قال له الإمام الصادق عليه السلام: ألق نفسك في التنور فأطاعه وجلس في التنور[١].

وهذا إنّما يدل على علو مقام مسلم بن عقيل عليه السلام. وأنه مصداق الرواية التي تقول: علماء أُمتي كأنبياء بني إسرائيل[٢]. وفي رواية: أفضل من أنبياء بني إسرائيل[٣]؛ لأن الاتجاه الإسلامي يجعل الإنسان في قالب جديد نفسياً وعقلياً واجتماعياً وروحياً.

والشيء الذي لا ينبغي أن يفوتنا بهذا الصدد: أنّ الحسين عليه السلام لم يعلق على قضية التشاؤم. فإنّه لم يؤيده ولم ينقده. فإنّه لا توجد مصلحة في تأييده لكي لا تعتمد الناس عليه. ولا يمكن أن ينفيه؛ لأنه قد يصدق في بعض الأحيان. فكان من الأفضل أن يسكت عنه.

دخول مسلم بن عقيل عليه السلام في الكوفة:

قال المؤرخون: ولخمس خلون من شوال دخل الكوفة فنزل دار المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وكان شريفاً في قومه، كريماً، عالي الهمة، مقداماً، مجرباً، قوي النفس، شديداً على أعداء أهل البيت عليهم السلام.

له عقل وافر ورأي مصيب، خصوصاً بقواعد الحرب والغلبة على العدو. كأنّه مارس التجارب فحنكته، أو لبس الخطوب فهذبته. انقطع إلى آل الرسول الأقدس، فاستفاد منهم أدبا جماً وأخلاقاً فاضلة وناصح لهم في السر والعلانية[٤].

---

(١) الرجل هو: هارون المكّي، انظر: مدينة المعاجز ٦: ١١٥.

(٢) و (٣) أوائل المقالات، للمفيد: ١٧٨.

(٤) مقتل الحسين، المقرم: ١٤٧.

قالوا: ولما بلغ مسلم بن عقيل عليه السلام خطبة بن زياد ووعيده وظهر له حال الناس، خاف أن يؤخذ غيلة، فخرج من دار المختار بعد العتمة إلى دار هانئ بن عروة المذحجي. وكان شديد التشيع، ومن أشراف الكوفة وقرائها، وشيخ مراد وزعيمها، يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل، فإذا تلاها أحلافها من كندة ركب في ثلاثين ألفاً.

وكان من خواص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، حضر حروبه الثلاثة، وأدرك النبي صلى الله عليه وآله، وتشرف بصحبته. وكان له يوم قتله بضع وتسعون سنة[1].

وليس عشوائياً أن يختار مسلم أمثال هؤلاء؛ لأنهم الأخلص والأقوى والأشهر، والاستناد إليهم قوة في وقت الحاجة، كما أنّ استنادهم إليه قوة له، لا أقل إثباتاً، أي أمام المجتمع والناس.

مضافاً إلى جهة أُخرى، وهي أنّ كل هذه الأُمور تحتاج إلى تمويل لا يقوم بها مضيف فقير، وإن كان مؤمناً. وواضح أنّ ابن عقيل عليه السلام لم يحمل معه من الحجاز لا زاد ولا راحلة ولا مال، وإنّما وصل في غاية الصعوبة إلى العراق. فيحتاج إلى من يموله في مهمته وحركته. فكان له المختار وهانئ وغيرهما خير عون في ذلك.

هذا ومسلم بن عقيل عليه السلام لم يكن رأى الكوفة قبل ذلك. ولكنه حين دخلها لأول مرة لم يكن يتلدد في شوارعها كما تلدد فيها بعد أن تركه الناس. وإنّما الذي حصل أنه كان يعرف سماعاً عن اناس معينين بما فيهم المختار الثقفي، فهو يسأل عن داره ويقصده، وهذا يكفي.

ونلاحظ أنّ الحسين عليه السلام ترك الإشارة له إلى ذلك، وأنه ينزل في أي بيت، وذلك لعدة مبررات يمكن أن تكون مجتمعة:

---

(١) مقتل الحسين، المقرم: ١٥١.

أولاً: الاعتماد على خبرة مسلم الشخصية، وهي كافية جداً في ذلك.

ثانياً: أنه يتعمد أن لا يذكر اسم شخص معين، لكي لا تكون هناك نتائج محمودة أو غير محمودة بالنسبة إليه.

فمثلاً حين دخل النبي صلى الله عليه وآله المدينة لأول مرة لم يذكر اسم أحد، وإنما حين دعي إلى البيوت ذكر أن ناقته مأمورة، فبركت إلى جنب بيت أبي أيوب الأنصاري، والذي كان فقيراً لا يطيق شيئاً من المسؤوليات. فقد كان اخفاء اسمه متعمداً، كما أنّ اختياره فقيراً متعمداً لإظهار المعجزة في تيسير الأمور. فتقول الرواية بما مضمونه: أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: ائتني بفخذ شاة ورغيف خبز وبذلك أكل الناس كلهم ولربما لعدة أيام.

فلو صرح النبي صلى الله عليه وآله بأنه سوف ينزل عند فلان لكان ذلك خلاف المصلحة، فلعل الآخرين يعتبون، فبدلاً من المفاسد حصلت مصالح كثيرة.

واما في الكوفة فاختياره غنياً وقوياً متعمد أيضاً. وفي كلا الحالين فدرجة من الإخلاص متعمدة ومخطط لها أيضاً، لوضوح أنه لو نزل عند شخص غير مخلص لما استطاع التحرك على ما يرام. سواء قصدنا بذلك النبي صلى الله عليه وآله أو مسلم بن عقيل عليه السلام.

ثالثاً: أنّ المظنون أنهما ـ أعني الحسين عليه السلام ومسلماً عليه السلام ـ اتفقا على العنوان الذي يسير فيه في الكوفة ويقصده، أعني دار المختار الثقفي إلّا أن أحداً منهما لم يصرح بشي حفظاً للمصلحة العامة.

قالوا: ووافت الشيعة مسلماً في دار المختار بالترحيب، وأظهروا له من الطاعة والانقياد ما زاد في سروره وابتهاجه. فعندما قرأ عليهم كتاب الحسين عليه السلام، قام عابس بن شبيب الشاكري (وهو ممن قتل مع الحسين عليه السلام في الطف) وقال: إنني لا أخبرك عن الناس ولا أعلم ما في أنفسهم وما أغرك منهم، والله أُحدثك عما أنا موطن فسي عليه، والله لأجيبكم إذا دعوتم، ولأُقاتلن معكم عدوكم، ولأضربن

بسيفي دونكم حتّى ألقى الله ، لا أُريد بذلك إلّا ماعند الله(١).

وقال حبيب بن مظاهر (وهو ممن قتل في الطف أيضاً): قد قضيت ما في نفسك بواجز من قولك ، وأنا والله الذي لا اله إلّا هو على مثل ما انت عليه . وقال سعيد بن عبد الله الحنفي مثل قولهما(٢).

وأقبلت الشيعة يبايعونه حتّى أحصى ديوانه ثمانية عشر ألفاً(٣). وقيل بلغ خمسة وعشرين ألفاً.

وفي حديث الشعبي بلغ من بايعه أربعين ألفاً . فكتب مسلم بن عقيل عليه السلام مع عابس بن شبيب الشاكري يخبره باجتماع أهل الكوفة على طاعته وانتظارهم لقدومه . وفيه يقول : الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا ، فعجل الإقبال حين يأتيك كتابي(٤).

وكان ذلك قبل مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام بسبع وعشرين ليلة ، وانضم إليه كتاب أهل الكوفة وفيه : عجل القدوم يا بن رسول الله فإنّ لك في الكوفة مئة الف سيف فلا تتاخر(٥).

البيعة :

وهنا فكرة البيعة وهي مسح اليد باليد ، وهي طريقة ظاهرية تدعم الجهة الباطنية للإيمان . وكان العربي إذا أعطى عهداً وفى . حتّى إنهم قالوا للزهراء عليها السلام لو كنا نعلم ما تقولين ما بايعناه ، ولكننا بايعناه ولا نستطيع أن نتراجع . فهو يعطي الوفاء لأية

---

(١) و (٢) تاريخ الطبري ٤: ٢٦٤.

(٣) الإرشاد ٢: ٤١، تاريخ الطبري ٤: ٢٨١.

(٤) تاريخ الطبري ٤: ٢٨١.

(٥) الإرشاد ٢: ٧١، حياة الإمام الحسين ٢: ٣٣٥.

بيعة يكون قد أعطاها باختياره.

وقد أخذها الإسلام ومشى عليها النبي صلى الله عليه وآله في بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾(٢).

وواضح من الآية أن يد رسول الله صلى الله عليه وآله تكون هي العليا ويد الآخر هي السفلى، كما أن يد رسول الله صلى الله عليه وآله تكون ثابتة ويد الاخر تكون متحركة، إلّا أنّ جهة الحركة تختلف. والظاهر أنّها ينبغي أن تكون باتجاه جسم الولي وليس بالاتجاه المضاد، كما تدل عليه الرواية لبيعة الرضا عليه السلام في زمن المأمون. وليست البيعة على شكل المصافحة على أي حال.

وهي بالرغم من أهميتها الاجتماعية ونص القرآن عليها وفعل المعصومين لها، بما فيهم النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام بعد الخليفة الثالث والإمام الحسن عليه السلام بعد أبيه ومسلم بن عقيل عليه السلام والإمام الرضا عليه السلام، وما ورد عن المهدي عليه السلام إلّا أنّ الفقه والفقهاء لم يعتنوا بها كثيراً، وإنّما بقيت لمجرد الإعلام.

وذلك لعدة نقاط:

منها: أنّ بين البيعة الظاهرية والبيعة الباطنية وهو الاعتقاد بالولاء عموماً من وجه. فقد يجتمعان، كما في حبيب بن مظاهر الأسدي وعابس بن شبيب المالكي. كذلك قد يفترقان، فيأتي المنافق فيبايع، فهل تقبل بيعته ثبوتاً؟ وأما إثباتاً فتكون مجرد تغرير وخدعة قد يترتب عليها نتائج غير محمودة.

---

(١) الفتح: ١٠.

(٢) الفتح: ١٨.

ومن ناحية أُخرى: أنه يمكن الاكتفاء بالبيعة الباطنية وهي الإخلاص والولاء. وهي العمدة، فمثلاً إذا كان شخص بعيداً آلاف الأميال فهل يكلف أن يأتي إلى الإمام فيبايعه أو النساء مثلاً وهكذا. وماذا يقول أبناء العامة في ذلك؟ جزماً لا يجب! وإنّما سيصبح صاحبهم أياً كان خليفة لمجرد أنه بايعه جماعة قد يكونون مئة أو ألف. فيكون حجة وولياً على عدة ملايين لم تبايعه ولم تعرفه.

وعلى أي حال، فالبيعة وإن اختصت الآن بمسلك أبناء العامة فإنهم أكثر اعتقاداً بها منا. إلّا أنّها عندنا ممكنة وملزمة لصاحبها. نعم، عدمها لا يدل على عدم الولاء، كما أنّ وجودها لا يدل على الولاء. ولنا في وجودها أُسوة حسنة برسول الله صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام، فليس لنا أن ننكرها أصلاً. وإن كان الصحيح هو النص، رغماً على الناس ويفرض عليهم سواء بايعوه أم لا.

وهو على أي حال مسلك إعلامي جيد جداً من الناحية الاجتماعية والدينية. وقد سار عليه مسلم بن عقيل عليه السلام بالرغم من أننا نلاحظ أنه ليس في كتاب الحسين عليه السلام ذلك. وبالرغم من أنّ المبايعة له، فإنّه من الواضح أنّها ليست له، وإنّما ينظرونه ممثلاً للحسين عليه السلام فهي مبايعة للحسين عليه السلام عن طريقه. وأي منهما كان فهو المطلوب.

ثم إنّ في هذه الكتب الإشارة إلى استعجال حضور الحسين عليه السلام إلى الكوفة. وهي ضررورة واقعية أدركوها؛ لأنهم يتحسبون بالظن ما حصل مستقبلا من استفحال أمر الظالمين. ولو كان الحسين عليه السلام قد دخل الكوفة في ذلك الحين لتم الأمر ولتغير تاريخ الإسلام إلى العصر الحاضر. ولكن ليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

والذي يظهر أن كل من بايع يسجل اسمه ويذهب. حتّى أحصى ديوانه اثني عشر ألف رجل.

إلّا أنّ الذي يبدو بوضوح أنّ هؤلاء يفكرون بتفكير، والحسين عليه السلام يفكر بتفكير

آخر. فهؤلاء يفكرون تفكيراً اجتماعياً والحسين عليه السلام يفكر بالشهادة. وما كان أسهل عليه أن يركب الفرس وحده، أو في نفر قليل ويصل إلى الكوفة بيومين أو ثلاثة، ويدخلها قبل عبيد الله بن زياد. إلّا أنه أثقل رحله بالنساء والأطفال والرجال بعنوان أنه يأخذ جيشاً كبيراً من المدينة إلى الكوفة فثقلت حركته ولم يستطع الوصول إلّا بعد فوات الأوان؛ لأن الجيش مهما كان فإنّه يحتاج إلى طعام وشراب ومنام وغير ذلك كثير. والمفروض أنّ كل هذه الأُمور لا تكون إلّا بالمعجزة.

وهو لم يبطئ بالذهاب عبثاً. إلّا لأنه رأى أنّ نفعه ونفع الآخرين بشهادته أعظم من حكمه. وبيدنا أمران، أحدهما محسوس، وهو النفع الذي حصل بشهادته في الدنيا والآخرة. والآخر محتمل كأُطروحة، وهو أنّ الحكم الذي كان من الممكن أنْ يكون ليس في وقته ولا الناس مستحقون له ولا يتحملونه ولا يقومون بمسؤوليته. ومن أوضح نتائجه أنه من الممكن أن ينقلب ويزول ويأخذه الظالمون من أيديهم.

في حين أن المفروض بالحكم الحق إذا حصل أن لا يزول إلى يوم القيامة، بحيث يكون هو الوارث للأرض ومن عليها. ومن هنا ورد: (ودولتنا في آخر الدهر تظهر)(١)؛ لأنّ الله سبحانه يوفر لها علل البقاء والاستمرار، وتكون قد أخذت موقعها الحقيقي من الكون في حدود الحكمة الإلهية. أما التعجيل قبل ذلك فليس بمستحسن بالتأكيد.

مضافاً إلى إمكان القول بأنّ البلاء الدنيوي يقل بذلك الحين، أو يكون من نوع آخر حين يكون البشر محتاجين إلى هذا النوع من البلايا التي نراها في عصورنا الحاضرة. وهو الموجب لكمالهم ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ

---

(١) مقطع من بيت شعر منسوب إلى الإمام الصادق:

لكلّ أُناس دولة يرقبونها ودولتنا في آخر الدهر تظهر

الأمالي، للصدوق: ٥٧٨.

عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[١]، فإذا تسبب الحسين عليه السلام أو غير الحسين عليه السلام إلى تغيير ذلك، فقد تسبب إلى تغيير ما في الحكمة الإلهية من نفع البشر، وبالتالي فقد أضر بالبشر، وحاشاه.

وكذلك إذا تصورنا أنّ هذه البلايا تكون إعداداً لظهور المهدي عليه السلام المخطط في قضاء الله وقدره، ووجود المؤمنين العاملين للمهدي عليه السلام، فإذا تغير ذلك كان على خلاف مصلحة الظهور.

وعلى أي حال فأية أُطروحة ممكنة تكون مسقطة للاستدلال على خطأ الحسين عليه السلام حينما تباطأ عن الذهاب إلى الكوفة.

وكذلك، كما برهنا في الأضواء على أنه لم يرجع حين وصل إليه خبر مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام وذلك قبل أن يجعجع به الحر الرياحي بعدة أيام.

شكل البيعة:

نستطيع أن نفهم من القرآن الكريم، ومن الرواية في أخذ البيعة للامام الرضا عليه السلام التي سنذكرها بعد قليل إن شاء الله، أنّ الإمام المبايع ينصب يده، فيأتي الناس واحداً واحدا يمسحون أيديهم بيده. إذن، فالمبايعة ليست على طريقة المصافحة الحديثة.

وقد يتصور البعض أنّ المبايعة أن ينصب المبايع يده بحيث يجعل باطن كفه إلى الأعلى وهم يمسحون على يده. ولكن هذا غير صحيح، بدليل الآية الكريمة: ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[٢]؛ فإنّ الماسح سوف تكون يده أعلى من يد رسول الله صلى الله عليه وآله، في حين أنّ الآية تقول: ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾، أي يد

---

(١) الأنفال: ٤٢.

(٢) الفتح: ١٠.

رسول الله فوق ايديهم.

وأما الرواية التي وردت في بيعة الناس للإمام الرضا عليه السلام فتقول: إنه جلس الإمام الرضا عليه السلام واقبل الناس يبايعون. وقد نصب الإمام يده فجعل ظاهرها إلى الأعلى وباطنها إلى الأسفل. فأخذ الناس يمسحون باطن أيديهم بباطن يده ابتداءً من جهة الزند إلى أطراف الأصابع. إلّا أن واحداً من الناس مسح بالعكس أي ابتداءً من أطراف الأصابع إلى الزند. فالتفت الرضا إلى المأمون وقال: هذه هي البيعة الصحيحة، فكل أولئك مخطئون. فصاح المؤمنون ارجعوا وبايعوا الرضا مرة أخرى. فأقبلوا كلهم بايعوا بالعكس[1].

وحسب فهمي أنّ الحركة إذا كانت من الزند إلى أطراف الأصابع فكأنما يبتعد المبايع عن الإمام، وحينما تكون بالعكس فكأنه يعطي الإشارة إلى الاقتراب من الإمام.

والرواية تعتبر المصدر الوحيد لشكل البيعة بعد ضمها إلى الآية الكريمة.

إن قلت: كيف تكون يد الله تعالى عبارة عن يد رسول الله صلى الله عليه وآله مضافاً إلى أننا يمكن أن نفهم من الآية (قوة الله فوق قواهم، وهو قادر ومسيطر عليهم)؟

جوابه: أنه في الإمكان أن يكون المراد لله سبحانه وتعالى عدة معانٍ في الآية الكريمة ولا تنحصر في معنى واحد.

ويمكن أن تكون هناك عدة وجوه غير ما ذكر لحمل الآية على أنّ المراد يد رسول صلى الله عليه وآله:

---

(١) ورد في بحار الأنوار ٤٩: ١٤٤ «...فكانوا يصفقون بأيمانهم على أيمان الثلاثة من أعلى الإيهام إلى الخنصر ويخرجون، حتّى بايع في آخر النّاس فتى من الأنصار فصفق بيمينه من الخنصر إلى أعلى الإيهام فتبسّم الرضا وقال: كلّ من بايعنا بايع بفسخ البيعة غير هذا الفتى فإنّه بايعنا بعقدها».

الوجه الأوّل: أنّ الرسالة التي يتحملها رسول الله ﷺ نحو من العلقة بالله سبحانه وتعالى، مضافاً إلى استحالة أن تكون يد الله فوق أيديهم، فليس له يد جارحة ولا يصدق عليها الفوقية من الناحية المادية. وكذلك الاتصال المادي بين الله وبين عالم الممكنات لا يصدق. وكذلك هم من الناحية العرفية لم يبايعوا الله، وإنّما بايعوا رسول الله ﷺ، إذن، فقرينة المجاز موجودة.

الوجه الثاني: ما يسمى في علم الأُصول بالتنزيل، فنقول هنا بتنزيل يد رسول الله ﷺ منزلة يد الله، وليس المقصود أنّ له يداً جارحة، وإنّما هو بهذا المعنى الروحي الذي لا نفهمه.

الوجه الثالث: أننا نفهم من يد الله سبحانه القوى الكونية الفاعلة، فكل فاعل مؤثر، إنّما يؤثر بمشيئة الله وبإرادة الله، إما تشريعاً كالهداية الإسلامية، وإما تكويناً. فكل القوى الفاعلة هي أيدي لله سبحانه وتعالى، ومن جملة أيدي الله بهذا المعنى هو رسول الله، فهو يد الله؛ لأنه قوة فاعلة في الكون تكويناً وتشريعاً.

وحينما تكون يد رسول الله ﷺ جزءاً منه، فكأنما هي رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يد الله بهذا المعنى. إذن، فيد الله فوق أيديهم.

الوجه الرابع: وهو معنى باطني، فقد لوحظت يد رسول الله فانية في الله سبحانه وتعالى. وإذا لوحظت فانية في الله سبحانه فهي في عالم الفناء وفي طول لحاظ الفناء، تصبح يد الله سبحانه وتعالى وليست يد رسول الله ﷺ. فهي في الدنيا يد رسول الله ﷺ ولكنها في عالم الفناء هي يد الله جل جلاله.

اختيار يزيد لعبيد الله بن زياد

قال المؤرخون: فساء هذا جماعة ممن لهم هوى في بني أمية منهم: عمر بن سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسلم بن ربيعة الحضرمي وعمارة بن عقبة بن أبي معيط، فكتبوا إلى يزيد يخبرونه بقدوم مسلم بن عقيل ﷺ وإقبال أهل الكوفة عليه، وإن النعمان بن بشير لا طاقة له على المقاومة[1].

أقول: وكان هذا الكتاب سرياً لم يعلم به جماعة مسلم بن عقيل ﷺ، ولا مسلم نفسه، والوقت عندهم متوفر؛ لأنه ليس المفروض انفضاض الجمع في أيام أو أشهر.

قالوا: فلما وصل الكتاب إلى يزيد أرسل إلى سرجون مولاه يستشيره. وكان كاتبه وأنيسه. فقال له سرجون: عليك بعبيد الله بن زياد. قال: إنه لا خير عنده. فقال سرجون: لو كان معاوية حياً وأشار عليك به أكنت توليه؟ فقال: نعم. فقال: هذا عهد معاوية إليك بخاتمه، ولم يمنعني أن أُعلمك به إلّا علمي ببغضك له[2].

أقول: إذا كان العهد هو أن يوليه الكوفة: فهذا يحتاج إلى علم الغيب، وهم ليس عندهم علم الغيب، وإن كان في توليته البصرة فيزيد يعلمه. فلربما - كأُطروحة - أنّ معاوية كان يرجح أن يكون لعبيد الله بن زياد العراقين: البصرة والكوفة، فكتب بذلك كتاباً لعله ينفّذ - احتمالاً - في المستقبل. أو على - أُطروحة أخرى -: أن يكون سرجون كاذباً، وإنّما يريد أن يخدع يزيد لأجل تنفيذ أغراضه التي يدركها إجمالا،

---

(١) و (٢) مقتل الحسين، المقرم: ١٤٨.

بما فيها ما حصل في واقعة الطف. فإنّ سرجون الذي هو مسيحي وليس مسلماً مسؤول عنها.

قالوا: فانفذه إليه: وعزل النعمان بن بشير. وكتب إليه:

أما بعد، فإنّ الممدوح مسبوب يوماً، وأن المسبوب يوماً ممدوح. وقد سمى بك إلى غاية أنت فيها كما قال الأول:

رفعت وجاوزت السحاب وفوقه ... فمالك إلّا مرقب الشمس مقعداً

وأمره بالاستعجال على الشخوص إلى الكوفة، ليطلب ابن عقيل فيوثقه أو يقتله أو ينفيه(١). وفي بعض الروايات: إني ضممت إليك العراقين. يعني ولاية الكوفة زيادة على ولاية البصرة.

وهنا نرى أنّ الخلافة الظالمة كانت تعتمد على بعض اليهود أو النصارى. وليس في التاريخ أنهم دخلوا الإسلام، بل كانوا يعتمدون عليه حال كونهم يهود أو نصارى، وهم يعلمون أنهم يريدون السوء بالإسلام. بل كانت الخلافة عميلة إلى ملك الدولة البيزنطية بمقدار فهم الدول يومئذ.

ومن الطريف أنّ أمثال هؤلاء كانوا يعملون عند هذه النماذج وينصرونهم وينصحونهم. وكانوا ضد الشيعة وضد ولاية أمير المؤمنين عليه السلام منذ ذلك الحين وإلى هذا الحين وكل حين، بصفتهم أعدى الأعداء لهم ولمخدوميهم. ومن حيث إنهم لا يتفقون معهم في دين ولا دنيا. في حين أنّ تلك النماذج تتفق معهم في الدنيا وإن لم تتفق في الدين. وهم يعلمون أنّ هؤلاء قد أسقطوا الدين وأخذوا بالدنيا. والنصارى واليهود أيضاً قد أسقطوا الدين وأخذوا بالدنيا.

فهل نحن نعرف العلاقة بين ما يسمى بالدولة الإسلامية وبين الدول البيزنطية.

---

(١) مقتل الحسين، المقرم: ١٤٩.

فإنّه لا يرى منها: في التاريخ إلّا قليلاً. وتحتاج المسألة إلى تدقيق وإلى جمع القرائن على ذلك، وهي موجودة على أي حال.

فإنّ بعض الدول الآن توصف بأنها عميلة للاستعمار. ولكن الدول الآن أعقد وأكثر مالا وأكثر أجهزة وأكثر جيشاً وسلاحاً وأسهل اتصالاً. فالعمالة تكون محرجة وشديدة الحرج. ولكنها في السابق ليست كذلك. فإنّ الناس كانوا أنصاف جهلة بما فيهم شعب الدولة البيزنطية نفسها. فالعمالة آنذاك كانت أسهل حصولاً وأسهل إخفاءً.

والعمالة بهذا المعنى كانت موجودة في المجتمع الإسلامي، وكانت هناك أيادٍ عاملة في المجتمع، تدافع عن الدولة الأجنبية، ويأخذونهم بنظر الاعتبار. فهم رسلهم ونواظرهم، ونحو ذلك من الأُمور.

وليس تقرب هؤلاء، أي (سرجون) وأمثاله، لأجل المصلحة الشخصية، وإنّما لاجل المصلحة العامة بنظرهم، أي خدمة الدولة الظالمة التي ينتمي إليها.

إذن، يمكن أن نقول بصراحة: إنّ من قتل الحسين عليه السلام إنّما هو الدولة البيزنطية. وكذلك يمكن أن يقال: أنّ من قتل باقي الأئمّة عليهم السلام إنّما هي الدولة البيزنطية، على أيدي عملائها من ملوك بني أُمية وبني العباس. ولا يستبعد أن ينسب مقتل أمير المؤمنين عليه السلام إليهم. بل لا يستبعد أن ينسب مقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليهم. فهم يريدون بوسيلة وبأُخرى الإطاحة بالشيعة وبقادتهم؛ لأنهم لايتفقون معهم بدين ولا في دنيا.

فإنّ التركيز كان ولا يزال على الموالين لأمير المؤمنين عليه السلام. فالحسين عليه السلام إنّما قتل لأنه من الموالين. وكذلك سائر الأئمّة عليهم السلام إنّما قتلوا لأنهم زعماء الموالين.

فإنهم يعلمون أنّ الإخلاص في قلوب الشيعة. أكثر من الإخلاص عند غيرهم. وأنّ همة الشيعة أكثر من همة غيرهم. وأن أهداف الشيعة مختلفة عن أهداف غيرهم. فإنهم يخافون منها، ويحاولون السيطرة عليها. (وللبيت رب يحميه) على أي حال.

ويوجد هناك مبرر آخر للسيطرة على الشيعة ، وهو أنهم يضرونهم في الدنيا وفي دولهم الرئيسية ، مع احتمال توسع أمرهم . ويضرونهم في الدين أو يحاولون جادين إخراج النصارى واليهود عن دينهم ، وإدخالهم في الإسلام . مع شيء آخر ، وهو أنهم يضرونهم بالهدف . واليهود والنصارى لهم هدف ديني ، وهو في ذهن اليهود أوضح ، ومن هنا قد نجد أنهم أشد عملاً له من النصارى . والتوراة ناطقة بذلك . وهي مفسرة بسيطرة أهل الحق . إلّا أنهم يطمعون بها ، وهم يعلمون أننا أيضاً نطمع بها . كما يعلمون أنّ الحق معنا . فهم يريدون أن يدفعوا إرادة الله في مستقبلنا ، وهو مستحيل .

والدولة البيزنطية حسب معهودي مؤسسة قبل ميلاد المسيح ، ولكنها دخلت في المسيحية بعد المسيح بحوالي ثلاثمئة سنة أي قبل الإسلام بحوالي ثلاثمئة سنة . فكانت في عصر صدر الإسلام موجودة وفي عصر الأمويين والعباسيين إلى عصر الحروب الصليبية . بل لعلها كانت مستمرة إلى زمان محمد الفاتح الذي سقطت القسطنطينية على يده .

وهي في حينها أقوى دول العالم ، وكان الخلفاء يخافون منها ويمتثلون لأوامرها . وكان هناك قيصر روسيا لا أحد يشعر بأهميته ؛ لأنه أقل حركة وأضعف أمراً . ونلاحظ أنّ الجيوش الأُموية والعباسية كانت تحارب الدولة البيزنطية في مستعمراتها وليس في داخل بلادها ، كلبنان وقبرص وشمال أفريقيا . ولم يصدف ولا مرة أن حاولوا الدخول إلى اليونان أو إيطاليا أو رومانيا عن طريق البحر الأبيض المتوسط .

يبقى موردان للنقض :

أحدهما : دول أوربا الشرقية التي كانت ساقطة بيد المسلمين إلى عهد متأخر حين سقطت بيد الإفرنج في الحرب العالمية الأُولى وتخلت عنها الخلافة العثمانية . **فقد يقال :** إنها أُخذت من الدولة البيزنطية ، وهي مناطق رئيسية .

قلنا : كلا ، لأمرين :

١ ـ أنها كانت مستعمرة وليست رئيسية، وليس للدولة الأصلية جيوش كافية فيها.

٢ ـ أنها أنما أُخذت من قيصر روسيا لا من قيصر روما. يندرج في ذلك ما كان في غرب موسكو، مثل يوغسلافيا وجكسلوفاكيا، وجنوبها كأذربيجان وداغستان وغيرها.

الثاني: دخول الأندلس.

وجوابه من عدة وجوه:

١ ـ أنه لم يؤخذ من الدولة البيزنطية؛ لأن حكمها لم يكن واصلاً إلى هناك.

٢ ـ لو سلمناه فإنّه أمرٌ خاص بالقائد الذاهب إلى هناك.

٣ ـ أنهم كانوا يتوقعون نتائج طيبة جداً كما حصل فعلاً.

ثم إن الفتح الإسلامي كان في أكثر العصور المتأخرة تجارة محضة. فيقول: ذهب فلان فخرب وقتل وغنم ورجع. ثم يأخذ الأموال التي جلبها، ويترك الشعب الذي ضربه في مجاعة وعوز، بدون أن يفكر بأنْ يحكم فيه بالعدل والإسلام. وهو الديدن مئات السنين، وهو دليل واضح على طلب الدنيا وعدم الإخلاص في العمل.

حول كتاب يزيد لابن زياد:

وقوله: ليطلب ابن عقيل أو يقتله أو ينفيه، يعني ما يرى عبيد الله من المصلحة. فقد أهدر دمه إلّا أنه لم يعين قتله. فيكون تعيين قتله من عنديات ابن زياد. والسبب الرئيسي لذلك هو صمود مسلم بن عقيل ﷺ. فلو كان قد تنازل لبقى حياً ذليلاً، ولكنه مات عزيزاً. ومن ذلك قوله: السلام على من اتبع الهدى. فقال له الحرسي: ويحك سلم على الأمير. قال: ما هو لي بأمير. قال له عبيد الله:

سلمت أم لم تسلم فإنك مقتول[1]. لأنه رأى في تلك اللحظة ومن لحن كلامه

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٧. اللهوف / ابن طاووس: ٣٥.

صلابته بالحق وعدم استعداده للتنازل.

وحسب فهمي فإنّ فكرته هو أنه يجب أن يسير في الطريق الذي سار به إلى نهايته، ولا يجب عليه التقية التي يدفع بها الموت عن نفسه. أو قل: لا يجب عليه أن يتحمل الذلة التي يدفع بها الموت عن نفسه.

وذلك لأكثر من مصلحة:

أوّلاً: المصلحة العامة للدين وللحسين عليه السلام اذ يقال: أن رسول الحسين عليه السلام قد خانه أو أنه كان ضعيفاً قد تأخذه في الله لومة لائم. فلماذا أرسله الحسين عليه السلام وهو يعرفه على هذه الصفة. ولكنه لم يكن كذلك.

ثانياً: مصلحة الخاصة بالشهادة ونيل المقامات العليا.

وبذلك ينتفي في نظره حكم التقية لوجود الجهة الأهم أكيداً. وبذلك استعفائه السابق ـ لو صحت ـ لم يكن فيها خطر على المصلحة العامة، لأنه لم يكن قد واجه المجتمع ولا أعداء الله سبحانه. أما حينما يكون هناك خطر على المجتمع وعلى الدين فلابد من الصمود.

قالوا: فتعجل ابن زياد المسير إلى الكوفة مع مسلم بن عمرو الباهلي والمنذر بن الجارود وشريك الحارثي وعبد الله بن الحارث بن نوفل في خمسمائة رجل انتخبهم من أهل البصرة(١).

وهذا يدل على أنّ البصرة شاركت في قتل مسلم وقتل الحسين عليه السلام وليس الكوفة فقط. وقد شاركت قبل ذلك في قتال علي عليه السلام يوم الجمل. ومن الصحيح أنّ الجيش المعادي كانوا كلهم عراقيين إلّا القواد فإنهم حجازيون. وأما من بني أُمية فلم يكن أحد على الإطلاق. نعم، إنّما كان هو أمر من بني أُمية. أو ما حدث خارجاً من التخويف والترغيب ونحو ذلك.

---

(١) راجع: روضة الواعظين: ١٧٤. الإرشاد ٢: ٤٣.

قالوا : فجد في السير وكان لا يلوي على أحد يسقط من أصحابه ، حتّى إن شريك ابن الأعور سقط في أثناء الطريق وسقط عبد الله بن الحارث رجاء أن يتأخر ابن زياد من أجلهم ، فلم يلتفت ابن زياد إليهم مخافة أن يسبقه الحسين ﷺ إلى الكوفة .

ولما ورد القادسية سقط مولاه مهران . فقال له ابن زياد : إن أمسكت على هذه الحال فننظر القصر فلك مئة ألف . قال : والله لا أستطيع . فتركه عبيد الله . ولبس ثياباً يمانية وعمامة سوداء وانحدر وحده . فكأنه ترك رجاله خارج الكوفة ، وهذا من الغريب ، إذ لعله يواجه السلاح فيكون مضطراً إلى المقابلة . فكان من الضروري أن يدخل مع أصحابه . إلّا أنه كانه اكتفى بالتنكر ، فإنّ فيه سلامته . ومن المعلوم أنه ليس أحد من أهل الكوفة سيعرفه وخاصّة في زيه التنكري .

وأما دخوله مع رجاله فسيعرف البعض من أهل الكوفة بعض رجاله حتماً . فلا يكون ذلك مصلحته وهو لا زال في أول الطريق .

هو لا يريد أن يواجه أهل الكوفة بالقتال مباشرة ؛ لأنه سيكون فيه الطرف الأضعف فيفشل ، وإنّما لا بدّ من السيطرة على الوضع بالغيلة والمكر والتخويف ونحو ذلك ممّا صنع .

دخول ابن زياد الكوفة :

قالوا : وانحدر وحده . وكلما مر بالمحارس ظنوا أنه الحسين ﷺ فقالوا : مرحباً يابن رسول الله وهو ساكت ، فدخل الكوفة ممّا يلي النجف .

أقول : توجد هنا عدة أسئلة :

السؤال الأول : أنه لماذا دخل وحده ، ألا يمكن أن يدخل معه جماعة ؟

جوابه : حسب فهمي إنه لا يريد أن يعرف ، حتّى لا تكون هناك مضاعفات محتملة في أول طريقه . فلذا اتخذ خطوتين :

الأولى : إنّه تنكّر من ناحية الزّي حتّى لا يعرف .

الثانية: ترك أصحابه خارج المدينة فلعلهم يعرفون من بعض الكوفيين فيعلمون أنّه ابن زياد.

السؤال الثاني: ما هي المحارس؟

جوابه: المحارس هي محال الحراسة، والظاهر أن مسلم بن عقيل عليه السلام وأصحابه قد أكثروا من نقاط الحراسة بحيث يمر الداخل إلى المدينة بعدة نقاط.

السؤال الثالث: هل كان سبب سكوته هو إنه لا يريد أن يسمعهم صوته لكي لا يعرفونه؟

جوابه: حسب فهمي انه كان ساكتا احتقاراً لهم. لأنَّ الحسين عليه السلام لم يكن في ذلك الحين معروفاً بزيّه ولا بوجهه ولا بصوته؛ لأنّه قد فارقهم قبل خمسة عشر سنة.

قالوا: واستقبله النّاس بهتاف واحد: مرحباً يابن رسول الله، فساءه هذا الحال. وانتهى إلى (قصر الإمارة) فلم يفتح النعمان باب القصر، وأشرف عليه من أعلى القصر يقول: ما أنا بمؤدٍّ إليك أمانتي يابن رسول الله. فقال له ابن زياد: افتح فقد طال إليك ز فسمعها رجل وعرّفه للنّاس أنّه ابن زياد وربِّ الكعبة. فتفرّقوا إلى منازلهم.

وعند الصباح جمع ابن زياد النّاس في الجامع الأعظم وخطبهم وحذّرهم ومنّاهم العطيّة، فقال: أيّما عريف وجد عنده أحد من بغية أمير المؤمنين ولم يرفعه إلينا صلب على باب داره.

أقول: ويقصد بأمير المؤمنين يزيد بن معاوية، ويقصد ببغية أمير المؤمنين مسلم بن عقيل عليه السلام، ولكنّه لم يذكر بغيته هو، وإنّما ينتسب إلى ذاك باعتباره قد ولاهم على البلد فيكون التهديد عامّاً. وماذا يملك ملوك الدنيا إلّا التطميع والتخويف، وإلّا فإنّهم لا يملكون القلوب حقيقة ولكن يجب أن لا تأخذ الإنسان في الله لومة لائم، وإلّا كان مظنّة الانحراف والفساد من أي شيء، وخاصّة في مثل الضغط الذي أوجده ملك عبيدالله بن زياد.

ولم يكن في الكوفة إلّا نفر قليل جدّاً ممّن لا تأخذه في الله لومة لائم،

وإنّما ابتغوا مسلم ﷺ في ظرف السلامة والحرية ، وأمّا مع الضغط فمن الصعب البقاء على البيعة ، فلو نقض البيعة عيباً عند العرب فهم الآن مستعدون أن يبيعوا هذا الشرف بأرخص الأثمان ، لكي يحافظوا على حياتهم .

قالوا : ولما وضح الأمر لابن زياد أن مسلماً مختبئ في دار هانئ بن عروة دعى أسماء بن خارجة ومحمد بن الأشعث وعمرو بن الحجّاج وسألهم عن انقطاع هانئ . قالوا : الشكوى تمنعه .

أقول : يدل على أن هانئ يلازم الذهاب ربما اسبوعياً إلى ابن زياد . ولا أعتقد أنّ لذلك خصوصية به وأنّما بصفته أميراً على الكوفة وهو أحدُ كبرائها . ويريد حفظ مصالحه ومصالح عشيرته إقتصادياً واجتماعياً . فكان يزور باستمرار من يكون والياً على الكوفة سواء كان هو النعمان بن بشير أو عبيد الله أو غيرهما ؛ لأنّه مضطرّ أن يجامل الدولة حفاظا على دنياه .

إلّا أنّ المسألة الآن اختلفت كثيراً وأصبح فيها هدف ديني جليل ، وأصبح عبيد الله بن زياد عدو هذا الهدف ، فيجب تركه مهما كانت النتائج . وذلك حينما انتقل مسلم إليه .

فهل كان هانئ يذهب إلى دار عبيد الله بن زياد حال كون مسلم في دار المختار ؟ كلا ، لأن عبيد الله لم يكن أميراً على الكوفة يومئذ .

ونحن نستطيع أن نتصور المدة ، فإنّ مسلماً ﷺ انتقل إلى دار هانئ بعد ورود ابن زياد بأيام . فاذا كان هانئ قد قطع الذهاب إلى قصر الإمارة عند ورود مسلم بن عقيل ﷺ ، إذن ، فهو لم يذهب إلّا مرة واحدة أو لم يذهب إطلاقاً .

وجواب ذلك من وجوه :

١ ـ أن نكذب الرواية بسبع وعشرين يوماً[1] ، ونقول : إنّ المسألة طالت عدة

---

(١) يعني أنّ بين أخذ البيعة لمسلم ﷺ ومقتله سبعة وعشرين يوماً .

أشهر بحيث كانت له فرصة الزيارات. ولكن حتّى لو قلنا: إنّ هذه المدة مبالغ فيها فإننا غاية ما نستطيع أن نفرض ضعف هذه المدة، وهي أيضاً غير كافيه لاعتياد ذهاب هانئ إلى ابن زياد.

٢ ـ أن نقول بتكذيب هذه الرواية (انقطاعه عنا)، وأنه إنّما قتله بحيلة أُخرى.

٣ ـ أن نعتبر الانقطاع اعتبارياً أو اقتضائياً، يعني حيث من عادته الذهاب إلى الأُمراء.

٤ ـ أنّ شريكاً الأعور كان صديقاً لعبيد الله بن زياد، وعرف الأخير أنه نازل في بيت هانئ، وسمعنا عنه أنه سقط لكي يتخلف عبيد الله بن زياد، وسمعنا عنه أنه هو الذي حاول قتل ابن زياد غلية. وقد كان مخلصاً في تشيعه. إلّا أنّ هذا الوجه لا يتم؛ لأنه ينبغي أن يدعو شريكاً الأعور وليس هانئاً، ولا أقل أن يدعوهما معاً.

قال المقرم عن تاريخ الطبري: ولبث شريك بعد ذلك ثلاثة أيام ومات، وصلى عليه ابن زياد ودفنه بالثوية، ولما وضح لابن زياد أنّ شريكاً كان يحرض على قتله، قال: والله لا أُصلي على جنازة عراقي أبداً، ولولا أنّ قبر زياد فيهم لنبشت شريكاً[1].

٥ ـ أنّها مجرد حيلة لا ستدعائه، فإنّه كلام فارغ يراد به الإعداد للشر لا أكثر ولا أقل؛ لانه لم يكن قد ذهب هانئ لكي ينقطع. ولا أقل أنه لم يكن قد عوده الذهاب الكثير لكي يعتب عليه بالانقطاع.

٦ ـ أنّ ذلك باعتبار أننا نفهم من الانقطاع الاتصال السابق؛ فإذا لم نفهم ذلك انسد السؤال، ويقي الفهم على الانقطاع الأزلي.

٧ ـ أن زياد بن أبيه كان والياً على الكوفة حوالي ثلاث سنوات من سنة تسعة وأربعين إلى ثلاثة وخمسين[2]. فمن المحتمل أنّ ابنه عبيد الله كان معه وكان متصلاً

(١) مقتل الحسين، المقرم: ١٥٣.

(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٢٢٨.

بوجهاء الكوفة بما فيهم هانئ نفسه. وهذا يفسر معرفته بطرق الكوفة.

ويقول ابن الأثير: إنه خطب (زياد) فحصبوه، ومات في الكوفة سنة ٥٣[(١)]. وذهب عبيد الله إلى معاوية فأرسله والياً إلى خراسان. وهذا يفسر أنه لماذا وعد عمر بن سعد ملك الري؛ لأنه مطلع عليه، وله فيه معرفة ومعارف.

قالوا: فلم يقتنع ابن زياد بعد أن أخبرته العيون بجلوسه على باب داره كل عشية **وأقول:** وهي عادة موجودة عند كثير من الطبقات في كثير من المدن. ويستقبلون بعض أصدقائهم في الشارع، باعتبار أنّ داخل البيت لا يساعد على ذلك. فبالتأكيد أن هانئاً ومسلماً كانوا يستقبلون الناس في الفسحة التي أمام دار هانئ. فإنّه بالتأكيد لا يجلس وحده وإنّما مع مسلم وآخرين.

واصلا ان عبارة (يجلس) يعني يجلس لاستقبال الناس، ولا يراد بها الجلوس كيف كان. نعم لو لم يكن للفرد أصدقاء أو ضيوف جلس وحده، ولم يكن هانئ كذلك بصفته شيخ مراد ومضيف مسلم بن عقيل. فلا ينبغي أن نأخذ الأمر بسذاجة، كما ياخذه المتشرعة.

وذكروا عن الإمام الحسن ﷺ أنه إذا جلس على باب داره أو في الطريق وقف كل المارة ولم يمشوا إجلالاً له.

اعتقال هانئ ﷺ:

قالوا: فركب هؤلاء الجماعة إليه، وسألوه المسير إلى السلطان فإنّ الجفاء لا يحتمله وألحوا عليه[(٢)]. وهم لا يعلمون، بل لا يظنون بظن معتد به النتيجة التي حصلت فوراً، وهي أنه سجنه فوراً ولم يعد إلى داره، وأنه قتل على إثر ذلك. كما أن

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٢٤٨.

(٢) مقتل الحسين، المقرّم: ١٥٤.

هانئاً نفسه لم يكن يظن ذلك ، وكان له ثقة في عشيرته . فإنّه إذا صاح (وامذحجاه) ذهبت له الآلاف وأنقذته في أي موقف كان .

واذا كان هناك شيٌ ينبغي ان يفكر به ابن زياد من الشر ، فليس الزيارة الأُولى وليس غيلة . كما أنّ هذه الزيارة للمجاملة وستقلل غضب الدولة وابن زياد عليه ، وستفتح غض النظر وحرية التصرف لديه . ومن ثم سيكون هذا في مصلحته ومصلحة مسلم بن عقيل أيضاً . ومن ثم في مصلحة الدين والمذهب . إلّا أنّ ابن زياد كان أذكى من ذلك وأقسى من كل ذلك ، وقد غدر به من أول مرة .

قالوا : فركب بغلته ، ولما طلع عليه قال ابن زياد : أتتك بحائن رجلاه[(١)] .

و(حائن) يعني من حان حينه وقرب موته ، وهو دال على عزمه على قتله .

والتفت إلى شريح القاضي وهو منصوب من قبل الدولة للقضاء في الكوفة وقال :

أُريد صباءه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد[(٢)]

وهو البيت الذي تمثل به أمير المؤمنين عليه السلام تجاه ابن ملجم . وكلاهما من مراد ، فوقع في محله .

والبيت ينسب لعمرو بن معد يكرب قاله في ابن أُخته . ولا نعلم صلته بقبيلة مراد . إلّا أن نحمل (مراد) هنا على المعنى اللغوي . أو هو من مراد على أية حال .

وأمير المؤمنين عليه السلام كان صادقاً حينما قال ذلك ، فقد كان يعتني بابن ملجم بصفته أحد أصحابه ، كما كان حاله قبل ذلك . إلّا أنّ عبيد الله كان كاذباً في ذلك ، فلم يكن قد أظهر الخير لهانئ ولا طرفة عين . فقوله : أُريد صباءه غلط اكيدا . وهو كاذب ، وانما هي مجرد دعوى ولقلقة باللسان .

---

(١) الإرشاد ٢ : ٤٧ ، مقتل الحسين ، للمقرّم : ١٥٤ .

(٢) المصدر المتقدّم .

قالوا: ثم التفت إلى هانئ وقال: أتيت بابن عقيل إلى دارك وجمعت له السلاح، فأنكر عليه هانئ، واذ كثر الجدال دعى ابن زياد معقلاً. ففهم هانئ أنّ الخبر قد أتاه من جهته. فقال لابن زياد: إنّ لأبيك عندي بلاءً حسناً وأنا أُحب مكافئته. فهل لك في خير تمضي أنت وأهل بيتك إلى الشام سالمين بأموالكم، فإنّه جاء من هو أحق بالأمر منك ومن صاحبك.

فقال ابن زياد: والله لا تفارقني حتّى تأتيني به. قال: والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه. فأغلظ له ابن زياد وهدده بالقتل. فقال له هانئ: إذن تكثر البارقة حولك (يعني لمعان السيوف) وهو يظن أنّ مراداً تمنعه. فأخذ ابن زياد بظفيرته وقنع وجهه بالسيف حتّى كسر أنفه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته وحبسه عنده[1].

فإن قلت: ان قوله: (والله لو كان تحت قدمي ما رفعتها عنه) عبارة عن احتقار فلماذا قالها هانئ؟

قلنا: جوابه من عدة وجوه:

أوّلاً: أنّها قد تكون نقلاً بالمعنى والتغيير من الرواة.

ثانياً: أنّها لغة عامة تقال على كل أحد، وقد تستعمل للاحتقار، كقول معاوية عن العهود التي بينه وبين الإمام الحسن ﷺ (وها هي تحت قدمي). ولكن الاحتقار يعرف من السياق.

ثالثاً: أنّ (لو) امتناعية. فلم يقل إذا كان تحت قدمي لا أرفعها، وإنّما قال (لو). وهذا يمكن استغلاله للجواب. فيكون المعنى أنه لن يكون تحت قدمي، أو ممتنع أن يكون تحت قدمي؛ لأن شأنه أعلى وأرقى.

رابعاً: أن تحت القدم يعتبر أقوى مناطق الفرد لثقل جسمه عليه. وهو عبارة عن

---

(١) مقتل الحسين، للمقرّم: ١٥٥.

حمايته الكاملة.

خامساً: أن تحت القدم ـ بعكس السابق ـ يعتبر أسهل الأُمور تسليماً وذلك بخطوة واحدة عنه، وهي سهلة. فهو بالرغم من أنّ التخلي سهل جداً إلّا أنه لا يسلمه له.

قالوا: وبلغ عمرو بن الحجاج أنّ هانئاً قتل وكانت أُخته روعة (وفي رواية رويحة) تحت هانئ يعني زوجته، وهي أُم يحيى بن هانئ. فأقبل في جمع من مذحج وأحاط بالقصر. فلما علم به ابن زياد أمر شريحاً القاضي أن يدخل على هانئ ويعلمهم بحياته. قال شريح: لما رآني هانئ صاح بصوت رفيع: يا للمسلمين: إن دخل عليّ عشرة أنقذوني. فلو لم يكن معي حميد بن أبي بكر الأحمري وهو شرطي، لأبلغت أصحابه بمقالته. ولكن قلت: إنه حي. فحمد الله عمرو بن الحجاج وانصرف بقومه[١].

هانئ بن عروة في نظر ابن الأثير:

يفهم بوضوح من الكامل لابن الأثير أنه جعل هانئاً رجل دنيا، وأنه إنّما قتل في سبيل تقاليده الاجتماعية والعشائرية. فلا يكون شهيداً، وإنّما الشهيد هو الذي قتل لكي تكون كلمة لا اله الا الله هي العليا.

قال في الكامل: فدخل القوم على ابن زياد وهانئ معهم، فلما رآه ابن زياد قال لشريح القاضي: اتتك بحائن رجلاه. فلما دنا منه قال عبيد الله:

أُريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

وكان ابن زياد مكرماً له. فقال هانئ: وماذاك؟ فقال: يا هانئ ما هذه الأُمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين والمسلمين؟ جئت بمسلم وأدخلته دارك وجمعت

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٧٥، مقتل الحسين، للمقرّم: ١٥٥.

له السلاح والرجال وظننت أنّ ذلك يخفى علي ؟ فقال : ما فعلته . فقال : بلى . وطال بينهما النزاع . فدعا ابن زياد مولاه ذاك اللعين . فجاء حتّى وقف بين يديه . فقال : أتعرف ذلك ؟ قال : نعم ، وعلم هانئ عند ذلك أنه كان عيناً عليهم . فسقط ما في يده ساعة ، ثم راجعته نفسه . قال : اسمع مني وصدقني ، فوالله لا أُكذبك . والله ما دعوته ولا علمت بشي من أمره حتّى رايته جالساً على بابي يسألني النزول عليه ، فاستحييت من رده ، ولزمني من ذلك ذمام . فأدخلته داري وضيفته ، وقد كان من أمره الذي بلغك . فإنّ شئت أعطيتك الآن موثقاً تطمئن به ورهينة تكون في يدك حتّى انطلق وأُخرجه من داري وأعود إليك . قال : لا والله لا تفارقني أبداً حتّى تأتيني به قال : لا آتيك بضيفي تقتله أبداً . فلما كثر الكلام قام مسلم بن عمرو الباهلي وليس في الكوفة شامي ولا بصري غيره . فقال : خلني وإياه حتّى أُكلمه لما رآى من لجاجة . وأخذ هانئاً وخلا ناحية من ابن زياد بحيث يراهما . فقال له : يا هانئ أُنشدك الله أن لا تقتل نفسك وتدخل البلاء على قومك . ان هذا الرجل ابن عم القوم ، وليسوا بقاتليه ولا بضائريه ، فادفعه إليه فليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة ، انما تدفعه إلى السلطان . قال : بلى إنّ علي في ذلك خزياً وعاراً . لا أدفع ضيفي وأنا صحيح ، شديد الساعد ،كثير الأعوان . والله لو كنت واحداً ليس لي ناصر لم أدفعه حتّى أموت دونه . فسمع ابن زياد ذلك فقال : ادنوه مني . فأدنوه منه ، فقال : والله لتأتيني به أو لأضربن عنقك . قال : إذن ، والله تكثر البارقة حول دارك ، وهو يرى أنّ عشيرته سوف تمنعه . فقال : أبالبارقة تخوفني .

وقيل : إنّ هانئاً لما رأى ذلك الرجل الذي كان عيناً لعبيد الله علم أنه قد أخبره الخبر ، فقال : أيها الأمير ، قد كان الذي بلغك ، ولم أُضيع يدك عندي ، وأنت آمن وأهلك فسر حيث شئت .

فأطرق عبيد الله عند ذلك ومهران قائم على رأسه وفي يده معكزة . فقال : واذلاه هذا الحائك يؤمنك في سلطانك . فقال : خذه .

وأخذ مهران ظفيرتي هانئ ، وأخذ عبيد الله القضيب ولم يزل يضرب أنفه وجبينه حتّى كسر أنفه ، فسيل الدماء على ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتّى كسر القضيب .

فضرب هانئ يده إلى قائم سيف شرطي وجبذه فمنع منه . فقال له عبيد الله : أحروري ، أحللت بنفسك وحللت لنا قتلك . ثم أمر به وأُلقي في بيت وأُغلق عليه . فقام إليه أسماء بن خارجة وقال : ارسله يا غادر ، أمرتنا أن نجيئك بالرجل فلما أتيناك به هشمت وجهه وسيلت دماءه وزعمت أنك تقتله . فأمر به عبيد الله فلهز وتعتع ثم ترك ، فجلس . فأما ابن الأشعث فقال : رضينا بما رأى الأمير لنا كان أو علينا [١] .

فإذا كان الأمر كما يقال هنا ، إذن ، فلا نستطيع أن نقول : هو شهيد . فإنّه قتل في سبيل صيانة قانونه العشائري .

وجواب ذلك من عدة وجوه :

الوجه الأوّل : أنّ نطعن في سند هذه الروايات ، فإنّ هذا الكلام لا وجود له في المصادر الشيعية والإمامية والموالية ، وإنّما هو موجود فقط في المصادر العامة . فهم متعمدون هذا المعنى ؛ لأنهم يريدون بوضوح فضح الشخصيات الإمامية والمجاهدة والضاربة بالسيف بين يدي المعصومين عليهم السلام ، وأصحاب المعصومين عليهم السلام . فإما أنّ نطعن بابن الأثير نفسه ، وإما أن نطعن بالرواة السابقين عليه . وعلى كل تقدير فالمسألة ساقطة .

فإن قلت : إذا كان ابن الأثير على هذا المستوى فلماذا لم يغض من شأن مسلم ابن عقيل ، مع العلم أنّ من كان اتجاهه هكذا فلابد أن يغض من شأن كلا الشخصين .

قلنا : إنه فعل ذلك أحيانا ، إلّا أنه لم يستطع ، لوضوح شأن مسلم بن عقيل عليه السلام

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

بشكل أجلى وأعلى من هانئ بكثير، كما هو واضح.

الوجه الثاني: أنه يمكن ـ بعد التسليم بصحة النقل ـ أنه يحمل كله على الصحة.

أما الكراهة في أن يكون مسلم بن عقيل عليه السلام عنده، فباعتبار الشعور بثقل المسؤولية الدينية الملقاة على عاتقه واعتبارها شديدة الصعوبة، ولعلها تؤدي إلى القتل. مع العلم أنه كان في حل منها وبرئ منها لو لم يكن مسلم بن عقيل عليه السلام قد قصده. فهذا الكره تعبير آخر عن الهيبة لتلك المسؤولية.

وأما قوله: ضيفي ونحو ذلك فإنّه إنّما يتكلم بلغة المجتمع لكي يلقي الحجة على ابن زياد **أوّلاً**، ولا يفهمه اتجاهه الديني **ثانياً**. ولو احتج بالجهة الحقيقية لما اقتنع ابن زياد.

الوجه الثالث: أننا نعرف هانئاً رضوان الله عليه كان متقدماً في السن، وقوياً في الحق ومن صحابة النبي صلى الله عليه وآله، وقد شارك أمير المؤمنين في حروبه. ثم هو كان مستعداً للموت في سبيل أهل الحق. ويكفينا أن نلتفت أنّ ضيفه لو كان من أهل الباطل لكان يمكنه أن يجعل هنا مبرراً للقبض عليه، بأن يخدعه بالخروج من بيته أو يرسله لحاجة ونحو ذلك، فإذا خرج تم القبض عليه وبرئت الذمة منه. ولكنه لم يفعل ذلك اتجاه مسلم وفداه بحياته

تفرق أصحاب مسلم بن عقيل عليه السلام:

يوجد هناك نفس المطلب في مقتل المقرم وفي تاريخ ابن الأثير وهو عبارة عن إعطاء السبب الذي جعل أصحاب مسلم بن عقيل عليه السلام يتفرقون بهذه السرعة. ولكنه يوجد فرق بين مقتل المقرم وتاريخ ابن الأثير أُريد أن أُبرزه.

يقول المقرم: ولما بلغ مسلماً خبر هانئ خاف أن يؤخذ غيلة، فتعجل الخروج قبل الأجل الذي بينه وبين النّاس، وأمر عبد الله بن حازم أن ينادي في أصحابه، وقد ملأ بهم الدور حوله. فاجتمع إليه أربعة آلاف ينادون بشعار المسلمين يوم بدر:

(يا منصور أمت) (أي المنصورون بالله يميتون أعداء الله).

ثم عقد لعبيد الله بن عمرو بن عزيز الكندي على ربع كندة وربيعة ، وقال : سر أمامي على الخيل . وعقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على ربع مذحج وأسد ، وقال : انزل في الرجال . وعقد لأبي ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان . وعقد للعباس بن جعدة الجدلي على ربع المدينة . وأقبلوا نحو القصر ، فتحرز ابن زياد فيه ، وغلق الأبواب ولم يستطع المقاومة ؛ لأنه لم يكن معه إلّا ثلاثون رجلاً من الشرطة وعشرون رجلاً من الأشراف ومواليه .

لكن نفاق الكوفة وما جبلوا عليه من الغدر لم يدع لهم علماً يخفق . فلم يبق من الأربعة الاف إلّا ثلاثمئة . وقد وصفهم الأحنف بن قيس بالمومسة تريد كل يوم بعلاً .

ولما صاح من في القصر : يا أهل الكوفة اتقوا الله ولا توردوا على أنفسكم خيول الشام ، فقد ذقتموهم وجربتموهم . فتفرق هؤلاء ، حتّى إن الرجل يأتي أخاه وابنه وابن عمه ، فيقول له : انصرف . والمرأة تأتي زوجها فتتعلق به حتّى يرجع . فصلّى مسلم بن عقيل عليه السلام العشاء في المسجد ومعة ثلاثون رجلاً ، ثم انصرف نحو كندة ومعه ثلاثة ، ولم يمض إلّا قليل وإذا لم يشاهد من يدله على الطريق . فنزل عن فرسه ومشى متلدداً في أزقة الكوفة لا يدري إلى أين يتوجه[١] .

وأما ما جاء في الكامل لابن الأثير فإنّه قال : وأتى الخبر مسلم بن عقيل فنادى في أصحابه (يا منصور أمت) وكان شعارهم . وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً ، وحوله في الدور أربعة آلاف . فاجتمع إليه ناس كثير ، فعقد مسلم لعبد الله الكندي على ربع كندة ، وقال : سر أمامي . وعقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على ربع مذحج وأسد . وعقد لأبي تمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان . وعقد لعباد بن جعدة الجدلي على ربع المدينة .

---

(١) مقتل الحسين ، للمقرّم : ١٥٥ و ١٥٦ .

وأقبل نحو القصر، فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرز القصر وأغلق الباب. وأحاط مسلم بالقصر وامتّد المسجد والسوق من الناس. وما زالوا يتجمعون حتّى المساء، وضاق بعبيد الله أمره وليس معه في القصر إلّا ثلاثون رجلاً من الشرطة، وعشرون رجلاً من الأشراف وأهل بيته ومواليه. وأقبل أشراف الناس يأتون إلى ابن زياد من قبل الباب الذي يلي باب الروميين. والناس يسبون ابن زياد وأباه. فدعى ابن زياد كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج في من أطاعه من مذحج. فيسير ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة وحضرموت فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس. وقال مثل ذلك للقعقاع بن ثور الذهلي وشبث بن ربعي التميمي وحجار ابن أبجر العجلي وشمر بن ذي الجوشن الضبابي، وترك وجوهاً عنده استئناساً بهم لقلة عدد من معه.

وخرج أُولئك النفر يخذلون الناس، وأمر عبيد الله من عنده من الأشراف أن يشرفوا على الناس من القصر فيمنوا أهل الطاعة، ويخوفوا أهل المعصية ففعلوا. فلما سمع الناس مقالة أشرافهم أخذوا يتفرقون، حتّى إن المرأة تأتي ابنها وأخاها وتقول: انصرف الناس يكفونك. ويفعل الرجل مثل ذلك. فما زالوا يتفرقون حتّى بقي ابن عقيل في المسجد في ثلاثين رجلاً.

فلما رأى ذلك خرج متوجهاً نحو أبواب كندة، فلما خرج إلى الباب لم يبق معه أحد. فمضى في أزقة الكوفة لا يدري أين يذهب، فانتهى إلى باب امرأة من كندة يقال لها طوعة.. الخ[1].

وهذا الأُسلوب من البيان أجود بكثير من أُسلوب المقرم، ولكن مع ذلك تبقى فيه شائبة أسئلة وإشكالات يمكن توجيهها إليه.

وهذه الإشكالات لا حاجة إلى بيانها، وإنّما أُبينها بالأجوبة والوجوه الآتية:

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٢٧١ ـ ٢٧٢.

الجواب الأول: أنّ هذا كله فرع صحة النقل التاريخي. واما إذا كان فاسداً أو مزيداً فيه أو محرفاً ونحو ذلك من الأُمور، اذن فنحن لا نعرف ما الذي وقع بالتحديد في الكوفة.

الجواب الثاني: أنّ المؤرخين قالوا: إن القصر ليس فيه تحصين كافٍ. ولكننا ينبغي أن نلاحظ موقف هؤلاء المهاجمين، هل يعلمون عدد من كانوا في داخل القصر. فلربما تكون قوة لا قبل لهم بها. فمن الذكاء أن يأخذوا بنظر الاعتبار كل الاحتمالات، وليس أنهم يقومون بعملية أو هجوم غير معلومة النتائج.

الجواب الثالث: وإن كان إلى حد ما خلاف ظاهر عبارة الكامل، ولكنه كأُطروحة جيدة وعليها بعض القرائن. فإنّه عقد لهؤلاء القواد الأربعة بعنوان: سر أمامي. وقد بقي هو يدبر اللمسات الأخيرة للأمر. ويحتاج إلى أن يبقى في مركزه، لا أنه يكون في الخط الأول أو خط المواجهة. حينئذ نضم مقدمتين:

المقدّمة الأُولى: أنّ المبادرة أصبحت لعبيد الله بن زياد، أي المكر الذي مكره. ومسلم كان لا يدري. فالتخذيل بدأ ومسلم لا يعرف، وتفرق الناس ومسلم لا يعلم.

المقدّمة الثانية: أنّ الجيش لا يتحرك إلّا بأمر، وإلى تلك الساعة لا توجد أوامر. فإنّه لم يكن موجوداً ليأمرهم. والجيش ليس له الحق بأن يقوم بأي شيء مالم يأخذ تخويلاً من قائده الرئيسي. إلى أن حصلت الحركة المضادة، وانتهى الحال.

الجواب الرابع: أنه لم يكن المخطط في المهاجمة فوراً. فكل ما في الأمر أن يجمعوا الجيش ويستقر الحال، وكل فرد يشعر بمسؤوليته ويشعر أنّ قائده فلان. فإذا أصبح الصباح فإنهم سوف يهجمون. فالوقت أضيق من أن تحصل فيه المهاجمة، وإنّما هو وقت الراحة. فالعسكر في مثل هذا الوقت لا يصلح أن يكون جيشاً مرتباً. وأما الآن فإنهم يتفرقون إلى منازلهم للراحة، ثم يجتمعون صباحاً لكي يبدأوا الحرب من جديد. وإنّما يحاصر القصر بحراسة كاملة من قبل جماعة معتد بها. فلربما كان

مسلم يخطط بهذا المعنى. فاستغل الفرصة ابن زياد ففعل ما فعل من الأشياء.

الجواب الخامس: أن التحاق الفرد في أي جيش في الحروب السابقة يكون باختياره، فليس لهم أن يقتلوه أو يضربوه إذا لم يخرج، ولا أنهم يمدوه بالسلاح. وإنّما يخرج هو بقناعته فيقاتل.

فهؤلاء الذين خرجوا مع مسلم إنّما خرجوا بقناعتهم. ونحن نعلم أنهم ليسوا على مستوى واحد. فكثير منهم مذبذبون، جمعوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. فبمجرد أن يروا الباب مغلقة يمكن أن ينسحبوا. فكل الأُمور أنما هي اختيارية.

الجواب السادس: تأثير مكر ابن زياد، وهو تأثير جيد دنيوياً. وعبيد الله بن زياد يعرف نفوس أهل الكوفة وأشراف أهل الكوفة. ويعرف من يرسل ممن يستطيع أن يقنع قليلاً أو كثيراً. فطمعهم وخوفهم وخذلهم، وكلها أكاذيب. لكنهم لو كانوا سمعوها من ابن زياد نفسه لكذبوها. لكنهم سمعوها من أُناس يحسنون بهم الظن. ففي الإمكان إضلال الناس عن طريق من يدعي لنفسه الوثاقة في كل جيل. ولما تضاءل الجيش أيسوا من النصر، فخير لهم أن يتفرقوا.

الجواب السابع: عدم التخطيط المسبق، فبمجرد أن وصلهم خبر اعتقال هانئ انطلق شعار (يا منصور أمت)، فاجتمع الجيش. فكان الجيش لا يحتاج إلّا إلى أمر بالولاية لكي يجتمع. وهذا في نفسه جيد، ولكنه ينبغي أن يكون في مجتمع إما ساذج، بحيث ليس فيه مكر وخداع، وإما في مجتمع عالي الإيمان أو الإخلاص، بحيث لا يؤثر فيه المكر والخداع. ولم يكن مجتمع الكوفة من هذا الشكل ولا من هذا الشكل.

والملحوظ بوضوح أنّ مسلم بن عقيل عليه السلام لم يتابعه عند انفراد، أحد من أعدائه ولا أحد من مواليه وأصدقائه.

أما عدم متابعة أعدائه، فينبغي أن يكون واضحا، حيث كانوا يخافون من بقاء

الناس في المسجد، والدنيا كانت مظلمة فلا يتضح وجود شخص مسلم بن عقيل عليه السلام وربما لأجل ذلك تخلى مسلم بن عقيل عليه السلام عن فرسه ـ إن صحت الرواية ـ لأنه لو كان راكبا لكان ملفتاً للنظر.

واما عدم متابعة أصحابه له، فلأجل سببين لا أقل:

الأول: لكي لا تخلوا الساحة لابن زياد، فلابد من وجود بعض المؤمنين لأجل بث الفكرة الحقة في أذهان الناس.

الثاني: أنهم يعلمون أنّ الحسين عليه السلام مقبل، فيحافظون على أنفسهم لأجل خدمة الحسين عليه السلام.

ومن الواضح حسب النقل التاريخي أنّ مسلم بن عقيل عليه السلام لم يطلب إجارته من أحد من الناس. ويمكن إعطاء عدة أسباب لذلك، فإنّه لا يريد امتنان أحد منهم. مضافاً إلى حصول الاطمئنان بالشهادة.

مضافاً إلى طلب الشهادة، مضافاً إلى أنه ربما تسبب إلى انزال الشر عليه ـ يعني على من يطلب منه ـ فيكون مسؤولاً أمام الله سبحانه. مضافاً إلى سقوط الأسباب والاتكال محضاً على الله سبحانه.

استجارة مسلم بن عقيل عليه السلام في دار طوعة:

وأما دار طوعة فيعتبره مسلم بن عقيل عليه السلام هبة من الله سبحانه؛ لأنه جاء صدفة باللغة الدنيوية.

واستجارته في بيتها له معناه؛ لأنه يكون فيها بعيداً ـ حسب الظاهر ـ عن عيون القوم وبعيداً عن السياسة باللغة الحديثة، وهو لم يطلب منها إلّا استجارة ليلة واحدة، وفي الصباح يدبرها مدبر الأُمور ويحمد القوم السرى.

وطبعاً كان مسلم بن عقيل عليه السلام لا يعلم أنّ ابنها عميل السلطة أو يمكن أن

يبلغ عنه.

فإن قلت: فلماذا لم يحسب مسلم حساب ذلك ولو احتمالاً.

قلنا: لم يكن له بديل غيره. وأما بيوت أصحابه فلم يكن يعرف الطريق إليها. مضافاً إلى ما قلناه من أنهم لم يطلبوا منه ذلك فكيف يدخل عليهم.

وأما خروجه إلى البرية ليلاً وحده فهو أشد خطراً ولا يعرف الطرقات والشوارع الرئيسية، وليس له مقصد معين يقصده. وليس في الأطراف إلّا الرعاة والفلاحون، ولا توجد مدينة كبيرة إلّا البصرة، وهي بعيدة جداً، مضافاً إلى كونها ليست أقل خطراً من الكوفة عليه.

مضافاً إلى إمكان التعرف عليه في المحارس، وإن لم يكن قد أمروا فوراً بالقبض عليه. إلّا أنهم يعلمون ما يحدث في داخل الكوفة، فلربما منعوه عن الخروج أو قتلوه ونحو ذلك. وهذا احتمال وارد، سواء عرفوه أم عرفهم نفسه أو لم يكن ذلك.

وهنا يحسن الالتفات إلى أني وجدت في بعض كتب أسد حيدر صاحب كتاب: (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة)، وله كتاب حول تاريخ الحسين عليه السلام، بعنوان (مع الحسين في نهضته) يقول فيه ما مؤداه: (وسواء صحت قصة طوعة أو لم تصح). فكأنه يريد بصراحة أن يشكك فيها، وهو ليس بالفرد الاعتيادي، بل هو مدقق وذكي.

وما يمكن أن يكون سببُ ذلك عدة أمور محتملة:

أوّلاً: ضعف سند النقل التاريخي، فنستطيع أن نقول: إنه مرسل وليس له إسناد، وكل نقل مرسل فهو ليس بحجة، فهذا ليس بحجة.

ولكن هذا يمكن أن يجاب بأكثر من جواب واحد حلاً ونقضاً:

١ ـ انه وارد في الكتب المعتمدة القديمة، كالكامل لابن الأثير والإرشاد للمفيد وكشف الغمة للأربلي. وإذا كان على هذا المستوى فليس لنا أن نناقش فيه، وليس

لنا في التاريخ ما هو أفضل من ذلك سنداً إلّا النادر.

٢ـ أننا لو ناقشنا بمثل هذه الحادثة، فينبغي أن نناقش في كثير من الحوادث؛ لأن عدداً معتداً به منها أيضاً متصف بنفس هذه الصفة. مع العلم أن المتشرعة يعترفون بها.

٣ـ أننا يمكن أن نجمع قرائن دالة على الصحة؛ لأنه توجد أشياء سابقة ولاحقة على هذه الرواية من أوضحها أنه هوجم في بيت طوعة، وكذلك ذهاب ولدها لإخبار ابن زياد، وكذلك ارسال ابن زياد لمجموعة من اصحابه للقبض عليه أو لقتله. فهذه كلها أمور مربوطة ببيت طوعة، فتكون قرينة على صحة هذه الرواية، إما بالدلالة المطابقية أو بالدلالة التضمنية. فإذا جعلت كقرائن فسوف يحصل نحو من الاستفاضة للرواية.

ثانياً: لعله حمل أصحابه الخاصين على الصحة، وأنهم دعوه إلى بيوتهم وأخفوه عندهم كما هو واجبهم على ما نتصور ويتصور. وإذا كانوا فعلوا ذلك فلا تصل النوبة إلى بيت طوعة.

إن قلت: إنه حورب في اليوم الثاني، وهذا كله حصل أمام بيت طوعة.

جوابه: أنه حورب وأُرسل له عدة دفعات من الجيش، ولكنه لا دليل على أنه أمام باب طوعة، بل أمام باب الذي اعتصم به أياً كان صاحبه.

ولكن ممّا يدفع هذا الاحتمال قضايا عديدة:

منها: أنّ التاريخ ينسب ذلك إلى بيت طوعة، وليس هذا من اختيارنا، وإنّما باختيار المؤرخين وهذا يكفي.

ومنها: أننا عرفنا أن مسلم بن عقيل عليه السلام حسب النقل التاريخي لم يطلب من أحد استجارة، ولم يطلب أحد منه إجارته. فلم يلجئ إلى أصحابه؛ لأنه يتوقف على أحد هاتين المقدمتين، فإما أن يقول لأحد، وإما أن يقول له أحد. إذن،

كيف يلجأ إلى أصحابه ؟

مضافاً إلى قرينة أخرى محتملة ، وهي أنه لو كان لجأ إلى أصحابه ، أو نقله أصحابه إلى بيت كامل الأمان لما حصل هذا الذي حصل ، أي لما دوهم في بيته وحورب وقتل ، بل كان آمنا عدة أيام ولربما لعدة أشهر ، ولربما كان من المنتظر أن يكرر الحركة والتوجه والتدخل بالأمور الاجتماعية مرة ثانية .

ثالثاً : لعله يدعي أن مسلم بن عقيل ﷺ حين نادى بالجيش وجمعه ، حارب وحورب وقتل كما يقتل أي واحد حامل السلاح ومعارض .

جوابه : أنّ هذا غير محتمل وخلاف نص وتسالم التاريخ . فإنّ الجيش الذي أعده مسلم بن عقيل ﷺ في ذلك اليوم لم يحارب ولم يقتل منه ولا واحد ، لا مسلم بن عقيل ﷺ ولا غيره . ولم يكن لدى ابن زياد الجيش الكافي لمقابلة هؤلاء ، وإنّما تسلسلت الحوادث حسب النقل التاريخي .

فالظاهر أنّ حادثة طوعة متحققة حسب الاطمئنان للنقل التاريخي .

وقد يخطر في البال أنّها كان يجب أن ترفض إجارته لأحد أسباب . فإنّ تم سبب من هذه الأسباب فكان ينبغي أنّها لا تجيره وكانت مقصرة في إجارته . وإن لم يتم ولا سبب ، إذن ، فنعم ما فعلت .

السبب الأول : أنّها امرأة أجنبية عن مسلم بن عقيل ﷺ لا يستطيع أن يراها أو أن يجلس معها فقهياً وشرعياً ، فينبغي لها أن تحذر من كل رجل .

جوابه : أنّها لم تدخله إلى أن استوثقت من حقيقته . فهو عالي المقام ، وقد عرفها نفسه ، ولربما شرح لها باختصار قضية فشله في تأسيس الجيش ونحو ذلك من الأمور :

السبب الثاني : أنّ انفراد الاجنبيين حرام في نفسه ، وهذا ما حصل في دار طوعة ويقول السائل : إن هذا حرام عليهما معاً .

جوابه : من وجهين :

أولاً : كأطروحة أنّها لم تكن متفقهة بهذا الحكم الشرعي ، وأما هو فلم يعلم بالصغرى . فلعل في البيت أطفالاً أو زوجاً فلا يحرم إن كان معهما ثالث .

ثانياً : ما من شيء حرمه الله إلّا وأحله في حال الضرورة . فإنّه وإن كان محرزاً أنه سوف يجتمع في المنزل ولا ثالث معهما ، ولكن تلك الحرمة تسقط عند وجود العسر والحرج والضرورة .

السبب الثالث : أنّها كانت تعلم أنّ ولدها عميل قصر الإمارة ، فكان عليها أن تعتذر من مسلم بن عقيل عليه السلام في ذلك ، وأن إدخاله في بيتها خطر عليه وليس فيه استجارة عملياً كما حصل فعلاً .

جوابه : من عدة وجوه :

أولاً : أنّها عامية وبسيطة ولا تدرك هذه الأمور الاجتماعية والسياسية ، أو أنّها يمكن ان تغفل عنها وتتساهل فيها وتتناساها ، من أدنى ملابسة .

ولعل ذهنها انشغل بشي آخر ، وهو أنّها عرفت أن شخصاً ما من أهل البيت عليهم السلام واقف على بابها ، فأخذتها الهيبة والتفكير في شأن مسلم بن عقيل عليه السلام .

ثانياً : لعلها لم تكن تعلم بعلاقة ولدها بقصر الإمارة ، ولم يخبرها عن ذلك . فهي لا تعلم علاقاته الاجتماعية .

فإن قلت : إنه يبدو أنّها شاكة به ؛ لأنه عندما سألها : لماذا تكثرين الدخول والخروج إلى البيت ؟

قالت : اله عن ذلك . فلماذا تلهيه إذا كانت واثقة منه .

قلنا : إنه هذا لا يدل على أنّها مسبوقة بأي شيء عن علاقته بقصر الإمارة ، وانما كان ذلك زيادة في الحيطة والحذر . ففي الإمكان أنّ النفس الامارة بالسوء أو جهة الخوف قد تدعوه إلى شيء .

ثالثاً: أنها لعلها كانت تعلم بعلاقته المشبوهة بالقصر، لكنها لا تعلم نوع العلاقة ما هو؟ فهل هي من قبيل التجسس وإعطاء الأخبار أو شيء آخر له جهة اقتصادية أو جهة اجتماعية. فحينما تجهل عمله فانها تجهل أنه سوف يعطي خبر مسلم بن عقيل عليه السلام.

رابعاً: انها ظنت انها بالمواثيق والأيمان تسيطر على ولدها، وقد حملته على ذلك فعلاً وأعطاها ما تريد فعلاً. إلّا أن ذلك لم يؤثر فيه.

وإذا نظرنا إلى السبب النفسي الذي حمل ابن طوعة على نقل الخبر (وهو طبعاً رجل لا دين له) برزت عدة أُمور غير متنافية:

الأول: خوفه سوء العاقبة الدنيوية التي حصلت من تهديد ابن زياد وهو: أنّ من عرف مسلم في بيته مستجيراً فإنّه سوف يقتل. فرأى أحسن طريقة في نظره أن يشي به حتّى يكفى شر التهديد.

الثاني: أننا نستطيع أن نلاحظ أنه ليس هو الذي أجار مسلماً، وإنّما أجارته أُمه. فهو من هذه الناحية يشعر أنه غير مسؤول عنه من حيث الاستجارة. ومن هذه الناحية لا يكون موضوعاً للحكم العشائري بالالتزام بالاستجارة، فإنّه يقول ويشي من دون رادع من دين ولا دنيا.

الثالث: أنه يدور أمره بين ثلاثة احتمالات لا رابع لها:

الاحتمال الأول: إبقاء مسلم بن عقيل عليه السلام في دارهم فيموت تحت تنفيذ تهديد ابن زياد.

الاحتمال الثاني: إخراجه من البيت، وهذا ـ بعد التنزل عن الوجوه السابقة ـ يعتبر خيانة للقانون الاجتماعي والعشائري.

الاحتمال الثالث: تسليمه الى السلطة، وهذا أهون الشرور الدنيوية في نظره. فكأن التسليم الى السلطة له جانب استثناء من القانون العشائري.

الرابع: كأُطروحة، انه كان عميلاً فعلاً وذا علاقة بالقصر، ومن هنا قام بوظيفته تلك، أو أنه عميل، لكنه لم يكن مأموراً بالتسليم، وإنّما أراد أن يتزلف اليهم.

الخامس: أنه سلمه طمعاً بالجائزة، وهي موجودة في كل الأجيال. فالسيطرة إما خوفاً وإما طمعاً. حيث قال ابن زياد: أنّ من يأتي به له ديته. وقد وجدنا في جيلنا وفي غير جيلنا من يتوصل الى قتل ابنه أو أخيه أو أبيه في سبيل أن يطمع بالجائزة. فحين وجد مسلم عنده وفي داره اعتبر ذلك فرصة ذهبية له. وما قيمة مسلم وغير مسلم بإزاء الذهب الفتان، من وجهة نظره.

إن قلت: إنه أعطى عنه خبراً، وليس إعطاء الخبر عنه تغريراً بحياته؛ لأنه لا يعلم أنه سوف يقتل. فلعله يسجن أو يعنف ثم يطلق سراحه. فلم يكن متسبباً الى قتله مباشرة.

جوابه من أكثر من وجه:

١ ـ أننا نعلم بيننا وبين الله تعالى أنه ليس له تسليمه على كل حال حتّى لو تكلموا معه كلمة احتقار واحدة، فإنّه سوف تكون مسؤوليتها على هذا الرجل، فضلاً عما إذا تكلموا أكثر من ذلك، فضلاً عما إذا قتلوه، وهذا ينبغي أن يكون مسلماً.

٢ ـ أنّ ابن زياد كان قد خطب خطبته بالليل، وجمع الناس بعد خروج المعارضين، وهدد وتوعد وطمع الناس. فموقفه واضح. فأنه إذاكان يهدد من يجير مسلماً عليه السلام فكيف لا يهدد مسلماً نفسه.

٣ ـ أننا لو غضضنا النظر عن ذلك، فقد كان الموقف المتازم ينذر ابالخطر فعلاً، وهذا ينبغي أن يكون واضحاً. وخاصّة بعد تأسيس الجيش من قبل مسلم بن عقيل عليه السلام فإنّه حمل السلاح بوجه عبيد الله بن زياد. فحينئذ ماذا يستحق من حمل السلاح بوجه السلطة إلّا القتل باصطلاحهم؟

وممّا قد يثار بهذا الصدد أنّ الحرب التي خاضها مسلم بن عقيل عليه السلام

مع المهاجمين كانت حرب انفرادية فلم يعاونه فيها أحد من خلق الله تعالى ، لا من الأشرار ولا من الأخيار. ويبدو أنه قاتل راجلاً بلا جواد . ويبدو من ارتكاز المتشرعة والمؤرخين أن هؤلاء المهاجمين كانوا فرساناً ، فكيف حاربهم بدون فرس ، فما أسهل أن يقتل ؟

وهذا يمكن الجواب عليه من زاويتين لا أقل :

الأولى : أننا نقول بوضوح : إنهم لم يكونوا فرساناً ، وإنّما أيضاً كانوا راجلين ، لأن مناسبات القضية تقتضي ذلك .

الثانية : أنّ المسألة هي أنّ التعارف الاجتماعي يقتضي ذلك . فنستطيع أن نقول : إن هناك ارتكازات عرفية ، وإن كانت دنيوية لكنها موجودة . ومنها : مماثلة المتحاربين من ناحية كونهما راجلين أو فارسين . فمن واجب أحدهما أن يكون مثل الآخر .

كما ينبغي بهذا الصدد ذكر السؤال التالي : وحاصله أننا قد نتوهم أو نتخيل أنه يجب على مسلم بن عقيل ﷺ شرعاً التسليم للجيش المهاجم ، حفاظاً على نفسه .

جوابه من عدة وجوه :

أوّلاً : أنه كان ذلك طلباً للشهادة ؛ لأنه يعلم أنه سوف يقتل بأيدي شرار خلق الله . فلا بأس أن يحارب في سبيل الله ويقتل لكي يكون شهيداً . وهي فرصة طيبة من الناحية الأُخروية سنحت له بهذا الصدد .

ثانياً : أنه من العار الدنيوي -إذا كنا ننظر نظراً دنيوياً - أن يشتهر أنّ مسلماً ﷺ سلم سلمياً لعدوه بعد أن كان قد أعدّ نفسه طيلة هذه المدة .

ثالثاً : أنه علم أنه مقتول على أي حال ، سواء حارب أم سالم ؛ لأن القرائن الاجتماعية العامة ماشية بهذا الطريق . فإذا كان الأمر هكذا فعلام يجامل ويذل نفسه وهدفه ودينه ؟ فخير له في الدنيا وفي الآخرة أن يموت شريفاً من أن يموت ذليلاً .

رابعاً : أنه لو جامل وهادن فسوف يكون خلاف مصلحة الدين وخلاف مصلحة

المذهب وخلاف مصلحة الحسين عليه السلام الذي يفترض به في ذلك الحين أنه مستعد الى المجي الى الكوفة، أو في طريقه إليها. وبمعنى من المعاني تكون فضيحة للحسين عليه السلام لأنه يمثل الحسين عليه السلام.

وأما إلقاء القبض عليه فسببه واضح؛ لأنها كانت حرب انفرادية لم يشاركه أحد فيها إطلاقاً، فمن الطبيعي ـ وإن كانت هذه العبارة دنيوية ومؤسفة ـ فمن الطبيعي أن ينهار، مهما كان شجاعاً ومقداماً؛ لأنهم بالمئات وهو واحد، ولكن ذلك لم يحصل، مثله في ذلك كمثل الحسين عليه السلام لما قتل أصحابه وبقي مفرداً أمام الجمع الغفير. وهو موقف يرسله الله ويرزقه لخاصة خلقه حين يريد أن يبتلي صبرهم وثباتهم. ومعنى ذلك أن الفرد الذي ابتلي بذلك على مستوى المسؤولية. وقد وفوا بموقفهم ذلك أفضل الوفاء.

وصية مسلم بن عقيل عليه السلام:

قالوا: ثم طلب مسلم بن عقيل عليه السلام أن يوصي إلى بعض قومه، فإذن له. فنظر مسلم إلى جلسائه وفيهم عمر بن سعد، فقال: يا عمر، إنّ بيني وبينك قرابة ولي إليك حاجة، وقد يجب لي عليك نجح حاجتي وهي سر، فمتنع عمر أن يسمع منه فقال له عبيد الله: لِمَ تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمك؟ فقام معه فجلس حيث ينظر إليهما ابن زياد، فقال له: إنّ عندي ديناً في الكوفة استدنته منذ قدمت الكوفة سبعمائة درهم فاقضهما عنّي، وإذا قتلت فاستوهب جثّتي من ابن زياد فوارها وابعث إلى الحسين من يردّه، فإنّي قد كتبت إليه أعلمه أنّ النّاس معه ولا أراه إلّا مقبلاً. فقال عمر بن سعد إلى ابن زياد: أتدري أيّها الأمير ما قال لي؟ إنّه ذكر كذا وكذا، فقال له ابن زياد: الله لا يخونك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن[١].

---

(١) الإرشاد ٢: ٦١.

وفي ذلك بعض الأسئلة : لعل أوضحها على الأطلاق أنه اختار عمر بن سعد لكي يكون وصياً له مع ما عليه من خبث وفسق ، ويكفينا أنه أصبح قائد الجيش المضاد للحسين عليه السلام في عرصة الطف . فكيف حصل ذلك ولماذا ؟

جوابه من عدة وجوه :

أوّلاً : إمكان الطعن في سند الرواية ، وهذا يكفي .

ثانياً : أننا ينبغي أن نلتفت إلى هذه النكتة ، فالمستقبل في ذلك الحين كان مجهولاً ، فواقعة الطف لم تكن موجودة ، ولم يكن أحد يعرف أن عمر بن سعد سوف يكون القائد للجيش المعادي للحسين عليه السلام . وإنّما هو مجرد رجل من غير الموالين للحق ومن الموالين للسلطان . وبتعبير آخر هو أُموي الولاء والهوى ، فإلى تلك اللحظة لم يكن متطرفاً في العناد .

ثالثاً : أنّ له معه قرابة ، فكان أمل مسلم بن عقيل عليه السلام أن يصون له قرابته وأن يحترمها .

رابعاً : لعله وجده بالسن أو في الرشد الاجتماعي قابلاً لذلك ، ويستطيع أن يتحمل هذه الوصية ، ومن المحتمل راجحاً أنه ينفذها .

خامساً : أنه كان من المتعذر لمسلم أن يختار حقيقة أي فرد أو أن يدعو من خارج القصر أي شخص ، فإنّه يخاف عليهم ، وانما عليه أن يختار من الحاضرين فقط . فقد وجده أفضل من يحتمل فيه ذلك . وكل الباقين ليسوا حتّى بهذه الدرجة من الاستحقاق .

سادساً : ما ذكره السيّد المقرم ، من أنه أراد أن يكشف إلى الكوفيين سوء سريرة ابن سعد ، ويظهر خيانته وانحطاطه ، وعن هذا الطريق فإنّه لا يكشف عن حقيقته بما هو عمر بن سعد ، بل عن طبقة من الناس كلهم على هذا المستوى . وهذا ما حصل فوراً حتّى لابن زياد ، حيث نسمعه يقول فيه بالرغم من أنه من أصحابه :

(ولكن قد يؤتمن الخائن).

سابعاً: أنّ وجهة الامتحان الإلهي فيها فقط كونها سراً. وإلّا فهي ليست بسر، وإنّما قال له بأنها سر امتحاناً له، وقد فشل في الامتحان. ومن القرائن على أنّها ليست سراً أنه لم يحصل لها أي رد فعل سيئ لا عام ولا خاص، يعني من قبل ابن زياد.

ومن المطمأن به أنه لم يؤد واحدة من هذه الوصايا بالتأكيد.

والسؤال الآخر حول ذلك: أنه لماذا لم يؤد مسلم بن عقيل عليه السلام دينه قبل ذلك؟

جوابه من عدة وجوه:

أوّلاً: أنه لم تحصل له هذه الفرصة، وفي المثل (يرى الحاضر ما لا يرى الغائب).

ثانياً: أنّ دينه لم يكن قد حصل وقته، أو لم يكن مطالباً به.

ويكفي الاحتمال لدفع الاستدلال، كما يكفي حمل مسلم بن عقيل عليه السلام على الصحة.

والسؤال الآخر: أنّ مسلم بن عقيل عليه السلام لم يسم اسم الدائن لعمر بن سعد، فكيف يستطيع أن يؤدي دينه لو كانت عنده هذه الهمة؟

جوابه من أكثر من وجه:

أوّلاً: أنه خاف على الدائن من ذكر اسمه في ذلك المجلس، فإنّ وجده، فبها ونعمت، وإلّا فهو معذور.

ثانياً: أنّ الدائن يعرف نفسه، فإنّ جاء وطالب وصي مسلم بن عقيل عليه السلام يعطي ماله، وإلّا فجزاه الله خيراً.

والسؤال الآخر: لماذا لم يحفظ تركته لورثته؟ وهو يعلم بمجي الحسين عليه السلام، فيكفي أن تسلم التركة إلى الحسين عليه السلام ليقسمها بين الورثة، ونحن نعلم أنّ له زوجة وبنتاً وأولاداً قتلوا في الطف بدون عقب.

جوابه : أنه من الواضح فقهياً ومتشرعياً وجوب أداء الدين قبل تقسيم التركة. فكان من حق مسلم بن عقيل عليه السلام بل من واجبه ذلك. نعم لو بقيت من التركة بقية وجب دفعها إلى الورثة. لكن يبدو أنّ المسألة كانت اطمئنانية له ، بأن لا يزيد منها مقدار معتدٌ به. كما له أنّ يسكت عن الزائد فيأكله عمر بن سعد مقابل جهده في أداء دينه.

والسؤال الآخر: أنه لماذا لم يوصل خبر فشله الدنيوي وسيطرة الظالمين عليه إلى الحسين عليه السلام قبل ذلك ، يعني قبل تورطه وإلقاء القبض عليه.

جوابه : أننا لو لاحظنا وجدان مسلم بن عقيل عليه السلام لوجدناه أنه كان يأمل الفوز إلى حين القبض عليه. وما دام يأمل الفوز فلا معنى لأن يخبر الحسين عليه السلام بفشله ؛ لأنه لا يعتقد أنه فاشل. ولعله كان يحتمل ذلك حتّى بعد دخوله في دار طوعة. ونحن لانعلم ماذا كان يفكر عند اتصاله بأصحابه من هناك لو سنحت الفرصة له ، أو أنه يخرج من الكوفة ويجمع المال والرجال ويدخلها منتصراً. وعلى أي حال فوجود مثل هذا الأمل يمنع إخبار الحسين عليه السلام بخلافه ، والاحتمال مبطل للاستدلال.

والسؤال الآخر: أنه هل كان من الممكن لعمر بن سعد أن يوصل الخبر إلى الحسين ، والحسين عليه السلام في ذلك الحين كان في طريق العراق ولم يكن في المدينة ؟

جوابه : أنّ هذا كان مجهولاً لمن كان في الكوفة حتّى لمسلم بن عقيل عليه السلام نفسه ، بحيث أنّ المفروض أنّ الحسين عليه السلام باق في المدينة إلى تلك الساعة وبعد ذلك. ولا يعلم أحد هنا حدود تحركاته ولا رد فعله تجاه رسالة مسلم بن عقيل عليه السلام إليه.

فإن قلت: فإنّ مسلم بن عقيل عليه السلام قال ـ كما في بعض الروايات ـ: لا أبكي لنفسي وان كنت لا أُريد لها طرفة عين تلفاً ، وإنّما أبكي لأهلي المقبلين ، أبكي حسيناً وآل حسين. وهذا يدل على علم مسلم بن عقيل عليه السلام بإقبال الحسين عليه السلام نحو الكوفة ونحو العراق.

قلنا: إن قوله: المقبلين، يعني اقتضاءً لا عليّة ولا فعلا. يعني من شأنهم الإقبال؛ لأنهم وصلهم كتاب مسلم بن عقيل ﷺ يطلبهم ولم يعلم الرد بخلاف ذلك. فمن شأنهم أن يقبلوا بغض النظر عن زمان ومكان ذلك.

فإن قلت: فإنّ المفروض بالحسين ﷺ الإسراع بالمجيء. ولو كان قد أسرع لكان الآن في الطريق. وقد طلبوا منه الإسراع فعلاً. فقد يحصل الاطمئنان لمسلم بن عقيل ﷺ في كون الحسين ﷺ في الطريق وليس في المدينة.

قلنا: إن كان ذلك كما هو المظنون، فالأمر بإيصال الخبر إليه، يعني أنه يبحث عن محل وجوده على كل حال، ويحاول الوصول إليه بكل صورة وإخباره عن الحال. لعله يترك التوجه إلى العراق أو يمكن أنْ يتوجه إلى أي مكان أخر.

وعلى أية حال استطاع مسلم بن عقيل ﷺ في أقصى إمكانه المتوفر تلك الساعة أن يفرغ ذمته من حيث إيصال الخبر إلى الحسين ﷺ. ولم يكن يستطيع أكثر من ذلك بالتأكيد.

ولكن من الواضح تأريخيا أنّ عمر بن سعد لم يعمل ذلك. وإنّما وصل الخبر إلى الحسين ﷺ عن أحد طريقين: إما بالمعجزة حين أجاب سلام مسلم بن عقيل ﷺ قائلاً: عليك السلام يا غريب كوفان. وإما بالسبب الطبيعي وهو الفرزدق ورفيقه، حيث قالا له: لم نخرج من الكوفة إلّا ورأينا جثة مسلم وهانئ تجران بالحبال في أزقة الكوفة. فبكى وترحم على مسلم، ولكنه لم يعزم على تغيير مقصده.

قالوا: ثم التفت ابن زياد إلى مسلم ﷺ وقال: إيها ابن عقيل، أتيت الناس وهم جمع ففرقتهم.

أقول: بل الأمر بالعكس؛ لأنه جاءهم وهم متفرقون فجمعهم. فهو كذب صريح.

فقال مسلم بن عقيل ﷺ: كلا لست أتيت لذلك، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر. وأتيناهم لنأمر

بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب[١].

أقول: هذا الزعم بلسان حالهم لا فعالهم.

قال ابن زياد: ما أنت وذاك؟ لِمَ لم تعمل فيهم بذلك إذ أنت في المدينة تشرب الخمر؟ قال: أنا أشرب الخمر؟ أم والله إنّ الله ليعلم أنّك غير صادق، وأنّك قد قلت بغير علم، وإنّي لست كما ذكرت، وأنّك أحقّ بشرب الخمر منّي، وأوْلىٰ بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً فيقتل النفس التي حرّم الله قلتها ويسفك الدم الحرام على الغصب والعداوة وسوء الظن... فشتمه ابن زياد وشتم علياً وعقيلاً والحسين[٢].

فقال مسلم بن عقيل عليه السلام: أنت وأبوك أحق بالشتم، فاقض ما أنت قاض، يا عدوّ الله[٣].

وحيث إنّ مسلم بن عقيل عليه السلام لا سبيل له لدفع الشر عن نفسه فخير له أن يسلم لقضاء الله وقدره.

مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام:

قالوا: فأمر ابن زياد رجلاً شامياً أن يصعد به إلى أعلى القصر. وفي مقاتل الطالبيين انه طلب بكير بن حمران الذي ضربه مسلم بن عقيل عليه السلام على رأسه وعاتقه. فجاءه فأمره بذلك ليحقق فيه شفوته. في حين أنه في مقتل المقرم أنه مات.

وعلى أية حال فدعوته تدل على عدة أمور:

١ ـ أنه حي إلى ذلك الحين.

٢ ـ أنّ ضربته خفيفة بحيث لم تؤثر في نشاطه، وقد كانت حدثت في نفس اليوم.

---

(١) و (٢) الإرشاد ٢: ٦٢.

(٣) لواعج الأشجان: ٦٥.

٣ ـ يبدو من سياق الرواية أنه الوحيد الذي ضربه مسلم بن عقيل ﷺ إذ لو كان قد ضرب غيره لم يكن أي ترجيح بينهما أو بينهم ، اللهم إلّا أن يقال : إنّ الباقي قتلى أو مجروحين جروحاً بالغة ، وهذا هو الوحيد الذي جروحه خفيفة . ولو كان أكثر من واحد جروحه خفيفة لكان التفضيل بينهم أيضاً صعباً من قبل ابن زياد ، إلّا ان نقول بتكذيب الرواية والطعن في سندها . أو يدعى زيادة ولائه لبني أُمية أو زيادة قوته في قطع الرقبة حيث فصل رأسه عن جسده .

وحيث يدور الأمر بين الروايتين ، فالظاهر أن بقاءه حياً هو الأوكد ؛ لوجوده في مقاتل الطالبيين خلاف مقتله بضربة مسلم بن عقيل ﷺ فإنّه ينقلها المقرم عن الخوارزمي ، وهو أضعف .

وكذلك قوله : فأمر ابن زياد رجلاً شامياً أن يصعد به إلى أعلى القصر ويضرب عنقه . ، هو أيضاً منقول عن مقتل الخوارزمي . اللهم إلّا أن نقول : إنّ أصل بكير بن حمران من الشام . ومهما يكن من أمر فالمسالة واضحة ، إذ يسلطون على الفرد من أضداده الدينيين أو الدنيويين .

قالوا : أن يصعد به إلى أعلى القصر ويضرب عنقه ويرمي برأسه وجسده إلى الارض .

وكان غرضه بالأمر برميه عدة أُمور :

١ ـ الزيادة في النكاية والانتقام ،كأنه في نظرهم لم يكن القتل كافياً ، بل لا بدّ من إضافة شيء إليه .

٢ ـ الزيادة بالفضيحة الإهانة .

٣ ـ الزيادة في الشعور بالانتصار والارتياح من التخلص من مسلم بن عقيل ﷺ كما كان قد ألقاه في الأزبال ، وحاشاه .

٤ ـ الزيادة في الإعلان عن قتله وتسليمه إلى أصحابه مقتولاً مهاناً ، في نظرهم .

٥ ـ الزيادة في إخافة الآخرين وإرهابهم ، حتّى إنه ربما أثر في عدم خروج مذحج لإنقاذ هانئ والدفاع عنه ، لما يعرفون ويرون من قسوة ابن زياد .

قالوا : فأصعده إلى أعلى القصر ، وهو يسبح الله ويهلله ويكبره .

أقول : ولم يمانع ويحوج نفسه إلى السحب أو إلى الذلة المتزايدة ، فإنّه يعلم أنه مقتول لا محالة .

قالوا : ويقول اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وخذلونا وكذبونا (١) . وتوجه نحو المدينة وسلم على الحسين عليه السلام . وفي بعض الروايات أنّ الحسين عليه السلام سمع سلامه وأجابه بصوت مسموع : وعليك السلام يا غريب كوفان . إلّا أنّ المقرم لم يروها ، ولو كانت في مصدر معتمد لرواها .

وأشرف به الشامي على موضع الحذائين وضرب عنقه ورمى برأسه وجسده إلى الأرض ، ونزل مذعوراً . فقال له ابن زياد : ما شأنك ؟ قال : رأيت ساعة قتله رجلاً أسود سيئ الوجه حذائي عاضاً على إصبعه ففزعت منه . فقال ابن زياد : لعلك دهشت ؟

اقول : وهذا هو أول أشكال العقوبة ، أي أنّ الله تعالى يعاقبه حين تلبسه بالجريمة بهذا المقدار . ثم هو إلى جهنم وساءت مصيراً .

ويمكن أن يرد هنا السؤال التالي : أنه لماذا رأى هذا الأسود ؟ وما هي الأُطروحات التي يمكن ذكرها عن الحكمة الالهية في ذلك ؟

جوابه من عدة وجوه :

أوّلاً : إقامة الحجة على ابن زياد وغيره ، وعلى الفاعل أيضاً بأنه قد عمل عملاً سيئاً جداً .

---

(١) الإرشاد ٢ : ٦٣ .

ثانياً: أنه تأنيب وعقوبة للفاعل.

ثالثاً: أنه يعطى على سوء عمله علامة يتذكرها طول عمره.

رابعاً: أنه نحو من التنبيه من الله سبحانه وتعالى على ضرورة التوبة والرجوع إلى مسلك ومذهب ابن عقيل نفسه. باعتبار أنّ المسلك الذي يؤدي إلى هذه النتيجة مسلك سيئ لا بدّ من التخلص منه وتبديله.

والموقف يدل على الإشارة إلى السوء أكيداً بسواد وجهه وعضه على إصبعه، فإنّه دليل عرفاً على الندم، وإذا فعله الآخر دل على التأنيب، وأنّ هذا ممّا ينبغي أن يندم عليه.

وعادة تكون الصورة ثابتة غير متحركة. كما أنّ أمثال هذه الموجودات لا تتكلم، وإنّما تعطي بيانها وتؤدي غرضها بالإشارة، وهو العض على الإصبع.

وهو أمر ليس بالبعيد، ففي كتب التاريخ أنّ المعتضد العباسي الذي بدأ الخلافة في بغداد بعد سامراء، وكان قوياً قاسياً في معاملة الناس. وهو الذي أخذ الاعتراف من أحد السراق وقتله قتلة متميزة غريبة. وهو الذي أرسل للفحص عن دار الإمام العسكري عليه السلام، أنه كان يرى شبحاً بأزياء مختلفة في كل مرة. وأنه يأمر بإغلاق الأبواب وإقامة الحراس عليها، ومع ذلك يرى الشبح ويتكرر ذلك عنده كثيراً.

وقد فسرنا ذلك في تاريخ الغيبة الصغرى بأنه نتيجة تأنيب الضمير، ونقول هنا: إنه إما دليل من الله على ذنوبه وعيوبه، وإما هو إذلال له من حيث لا يستطيع التخلص، بعد أن كان قد عظم نفسه في المجتمع تعظيماً كبيراً.

والإنسان قابل لأن يتعظ بعدة أمور:

منها: برؤية نتائج من قبله.

ومنها: برؤية عظمة الخلقة.

ومنها: برؤية الذباب عليه، فإنّه سيكون تحت أرجل الذباب.

ومنها: بضعفه أمام الأمراض والبلايا، في حين أنّ أمثال هؤلاء، كالمعتضد وأضرابه لم يكن يتعظ بمثل ذلك ولا يعير له أهمية، فيبلوه الله سبحانه بمثل ذلك للزيادة في التنبيه، وإنّما هو رحمة به لإمكان توبته، ولكنه من قساوة القلب بحيث لا يستحق التوبة.

وأما نوعية هذه الأشباح فلا ينبغي السؤال عنها، هل هو من الجن أو من الملائكة أو من خلق آخر من خلق الله سبحانه، المهم أنه خلق مطيع يؤدي غرضه.

وأما جواب ابن زياد لعلك دهشت، فقد أخذه عمداً على نحو التساهل وعدم الالتفات إلى أهميته.

ومن الأسئلة التي تعرض هنا: أنه لماذا لم يلق القبض أو القتل على خاصّة مسلم بن عقيل ﷺ كمسلم بن عوسجة وأبي ثمامة الصائدي وكثيرين غيرهم. مع أنّ معقلاً كان يأتي بأخبارهم جميعاً، ومن أدلة عدم إلقاء القبض عليهم التحاقهم بركب الإمام الحسين ﷺ ولو كانوا مسجونين لما استطاعوا ذلك.

جوابه من عدة وجوه:

أوّلاً: أنه ربما أُلقي القبض على جماعة بدون ذكرهم في التاريخ.

ثانياً: أنّ هناك بعض النقول تقول عن عدد منهم أنه سجن في بيته، كما وجدته في كتاب (سفير الحسين) ذكره بدون مصدر. وهو ما يسمى بالإقامة الجبرية، ولذا سجن هانئاً في غرفة القصر.

ثالثاً: أنّ الله سبحانه أنجاهم وأعمى أبصار الظالمين عنهم. وخاصّة بعد أن عملوا بالتقية جزماً وأخفوا وجوههم عن التجول بين الناس.

مقتل هانئ رضي الله عنه :

قالوا : ثم أُخرج هانئ إلى مكان من السوق يباع فيه الغنم وهو مكتوف[١] .

أقول : لأنه بعد مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام يكون كل شيء قد انتهى ظاهراً ، وصفا الجو لابن زياد والحكم الأُموي . كل ما في الأمر أنه ينبغي التخلص من العدو الآخر ، وهو هانئ بن عروة رضي الله عنه ، وتأخر مقتله عن مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام معقول جداً . وإن كان يمكن القول بأنه لمجرد الصدفة ؛ لأنهم لهم يلتفتوا قبل مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام إلى مقتل هانئ . وأما حين أُريق الدم فلا ينبغي الاقتصار على مسلم بن عقيل عليه السلام بل ينبغي أن تصفوا الساحة لهم من كل الأعداء المتحمسين ضدهم ، وأهمهم هانئ .

وظاهر النقل التاريخي أنه قد حصل ذلك في نفس اليوم .

قالوا : فجعل يصيح : وامذحجاه ولا مذحج لي اليوم ، يا مذحجاه ! وأين مذحج ؟ ! فلما رأى أنّ أحداً لا ينصره ، جذب يده ونزعها من الكتاف ثمّ قال : أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم يحاجز به رجل عن نفسه[٢] .

وهذا موقف جليل جري قلما يقفه المحكومون ، فإنهم غالباً يسلمون بالنتيجة ويدفعون أنفسهم مجاناً إلى القتل ، مع أنه في إمكانه أن يفعل الكثير ما دام الموت أمامه على كل حال ، وإنّما هي موتة واحدة .

والظاهر أن المقاصد في ذلك تختلف :

منهـا : التسليم لأمر الله تعالى .

ومنهـا : الشعور بالضعف والذلة أمام السيطرة الأُخرى .

---

(١) و (٢) الإرشاد ٢ : ٦٤ .

ومنها: خوف والإهانة مع اليقين بعدم النجاة.

ومنها: عدم السلاح عنده فلا يؤثر أي شيء يقوم به.

ومنها: خوف المضاعفات والألم المتزايد، فإنّ الموت المقبل عليه قد يكون أسهل من بعضها.

وعلى أي حال فنحن نلاحظ بوضوح من التاريخ أنّ مسلم بن عقيل عليه السلام لم يناقش كما ناقش هانئ وصاح. وانما صعد مسلم بن عقيل عليه السلام مع قاتله باختياره تسليماً لأمر الله وقضائه.

فإن قلت: فإنّ هانئاً يستنهض عشيرته، ومثل هذا النداء يعتبره سبباً لمجيء الآخرين للدفاع عنه. في حين لم يأتِ أحد؛ لأن المسألة ليست عشائرية، وإنّما هي بيد السلطان. ولا طاقة لأحد على السلطان في نظرهم. ولكنه من ناحيته كان يحتمل الاستجابة وإن كان احتمالاً ضعيفاً.

قلنا: نعم، بهذا المقدار أراد أن يستغل الجانب العشائري إلى جنب الحق المهتضم وليس فقط لنجاة نفسه. والدليل على أنه لم يكن ينظر إلى الجانب العشائري محضاً ما قاله بعد ذلك مطالباً بالسلاح للدفاع عن نفسه. إذ لو كان الجانب العشائري وحده مطلوباً له لسكت. وإنّما كان يدعوهم لنصرة الحق المهتضم.

قالوا: وقيل له مد عنقك. فقال: ما أنا بها سخي وما أنا بمعينكم على نفسي، فضربه بالسيف مولى لعبيد الله بن زياد تركي يقال له رشيد، فلم يصنع فيه شيئاً. فقال هانئ: إلى الله المعاد، اللهم إلى رحمتك ورضوانك. ثم ضربه أُخرى فقتله[١].

أقول: وليس في الرواية أنه قطع رأسه، نعم روي أنه أرسل ابن زياد رأسيهما إلى الشام. ولكن لعله قطع بعد الوفاة كما قطعت رؤوس الأصحاب في واقعة الطف.

---

(١) الإرشاد ٢: ٦٤.

قالوا: وهذا العبد قتله عبد الرحمن بن الحصين المرادي مع عبيد الله بالخازر[(١)]. ولم يذكر مناسبة قتله. فلعله مع التوابين أو المختار أو بسبب شخصي. وهذه النقطة منقولة عن تاريخ الطبري.

وكانت هذه الطبقة حاقدة على المجتمع من ناحية، وعلى أهل الحق من ناحية أخرى، وتشعر بمسؤولية العبودية لهؤلاء وتنفذ له كل طلباته مهما كانت.

قالوا: وأمر ابن زياد بسحب مسلم بن عقيل عليه السلام وهاني رضي الله عنه بالحبال من أرجلهما في الأسواق، وصلبهما بالكناسة منكوسين.

والكناسة المنطقة التي تجتمع بها الأزبال في المدينة. وفي ذلك زيادة في احتقارهما. كأنه ألقى جثتهما في الأزبال. وكذلك النكس في الصلب زيادة في الاحتقار. وقد صلب جماعة من أهل البيت عليهم السلام كذلك كزيد بن علي، ويحيى وغيرهم. ونص التاريخ على بعضهم انهم مصلوبون عراة زيادة في النكاية، ولكن لم ينص ذلك في مسلم بن عقيل عليه السلام وهانئ رضي الله عنه.

قالوا: وأنفذ الراسين إلى يزيد فنصبهما في درب من دمشق، وكتب معهما إلى يزيد كتاباً. وأجابه يزيد على كتابه يمدحه فيه ويشكره، وفيه يقول: «إنّ حسيناً قد سار إلى الكوفة وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان وبلادك من بين البلدان، وابتليت به من بين العمال. وعندها تعتق أو تعود عبداً كما تعبد العبيد»[(٢)]، فإما أن تحاربه أو تحمله إليّ.

وليس في النقل التاريخي أنه أرجع رأس مسلم وهانئ إلى مدافن الجسدين. ومن البعيد أن تحصل فرصة لذلك. بخلاف رأس الحسين عليه السلام فإنّه توجد هناك روايات وأقوال معتد بها على رجوعه إلى مدفنه في كربلاء. والظاهر أنّ الإمام

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٢٨٤.

(٢) مثير الأحزان: ٢٩، تاريخ مدينة دمشق ٦٥: ٣٩٥، البداية والنهاية ٨: ١٧٨.

زين العابدين ﷺ هو الذي أخذه من يزيد وأرجعه معه إلى كربلاء وألحقه بالجسد عند مرورهم بكربلاء.

تبقى أُطروحة واحدة، وهي أنّ السجاد ﷺ أخذ الرأسين معه ضمن الرؤوس، إلّا أنه لم ينقل أنه جاء إلى الكوفة إلى دفنهما.

وبطبيعة الحال نحن لا نجل ابن زياد الذي فعل هذه الأفاعيل أن يدفن الرجلين بدون تغسيل ولا تكفين؛ لأنه لا يهتم بأحكام الدين، ولو اهتم أحيانا فإنما يهتم لمصلحة نفسه وأصحابه لا لمصلحة أعدائه.

فإن قلت: فإنهما من الشهداء، والشهيد لا يغسل ولا يكفن، بل يصلى عليه ويدفن بثيابه.

قلنا: هذه القاعدة لا تنطبق على مسلم وهانئ. فإنّ من شروطها قيام حرب فعلية بين جيشين وأن يموت المقتول خلال القتال. وكلا الأمرين لم يكن له وجود يومئذ. نعم، هما شهيدان أكيداً، بل من أعظم الشهداء، ولكن ليس بهذا المعنى.

تبقى الإشارة إلى مطلب واحد وهو أنّ المختار الثقفي حين حركته طالب بدم الحسين ﷺ ولم يطالب بدم مسلم بن عقيل ﷺ مع أنه أيضاً في الكوفة ولم يكن قد مضى على مسلم بن عقيل ﷺ زمان طويل. وكان كل من في الكوفة يتذكر مسلماً ﷺ.

وهذا له عدة مبررات، منها:

١ ـ أنّ قضية مسلم بن عقيل ﷺ من ضمن قضية الحسين ﷺ. فإذا طالب المختار بقضية الحسين ﷺ فقد طالب بقضية مسلم بن عقيل ﷺ؛ لأنها واحدة لا تنفصل.

وكما لم يذكر اسم مسلم بن عقيل ﷺ لم يذكر اسم حبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وأضرابهم؛ لأن قضيتهم واحدة مع الحسين ﷺ. فذكر الحسين ﷺ يكفي عن الجميع.

٢ ـ أنّ ذكر الحسين عليه السلام هو الذي يجمع الناس والمهمة ، ويكون له الصولة والجولة دون غيره كما هو واضح . والمهم أن يذكر مفرداً دون شريك لكي يؤثر هذا الأثر .

٣ ـ أنّ ذكر الحسين عليه السلام ينسي ذكر الآخرين مهما كانوا ، وإنّما قتل المختار رجال بني أُمية ؛ لأنهم أعداء الحسين وليس لأنه قتلوا الآخرين .

كما يقول الشاعر :

أنست رزيتكم رزايانا التي سلفت وهونت الرزايا الآتية

ومصائب الأيام تبقى برهة وتزول ، وهي إلى القيامة باقية

٤ ـ أنه من قال أنّ المختار ذكر الحسين عليه السلام وحده ؟ وإن كانت العبارة مشهورياً : يالثارات الحسين . ولكن هذا لم يثبت بطريق معتبر ، بل لعلها : يا لثارات الحسين وأصحابه وأهل بيته . وعلى العموم فحركة المختار كانت تريد أن تستوعب كل من يمت إلى الحسين عليه السلام بصلة . وخاصّة جميع من قتل في واقعة الطف ، بل تشمل مسلماً وهانئاً أيضاً .

ولا ينبغي أن ننسى أنّ مسلم بن عقيل عليه السلام له مع المختار تاريخ ؛ لأنه نزل في داره في أول حركته . ومن المستحيل أن ينسى المختار كل هذا التاريخ .

وبهذا ينتهي الكلام عن مسلم بن عقيل عليه السلام رسول الحسين عليه السلام . وطبعاً هذا الذي قلناه لا يخلو من نقص ؛ لأننا حذفنا ما كنا ذكرناه في كتابنا أضواء على ثورة الحسين عليه السلام ، ويضم بعضها إلى بعض يكمل المطلب .

والحمد لله رب العالمين

٥ شوّال ١٤١٨هـ

محتويات الكتاب

مقدّمة الكتاب ٩
مقدّمة المقرّر ١٣
مقدّمة الدرس ١٧
نصرة الحسين عليه السلام ١٩
علاقة الحسين عليه السلام بمن قبله ومن معه ومن بعده ٢٥
علاقة الحسين عليه السلام بمن قبله ٣٣
علاقة الحسين عليه السلام بمن قبل الإسلام ٣٣
علاقة الحسين عليه السلام بنبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله ٣٤
علاقته بالزهراء عليها السلام ٤٢
آية القربى ٤٣
آية التطهير ٤٥
معنى التطهير والرجس ٥٨
مقارنة بين التطهير وإذهاب الرجس ٦٩
الاستدلال على العصمة بالتطهير ٧١
علاقة الحسين عليه السلام مع أخيه الحسن عليه السلام ٧٩
هل أنّ صلح الحسن مقدمة لثورة الحسين عليهما السلام ؟ ٨١
علاقة الحسين عليه السلام بمن معه ٩١

علاقة الحسين عليه السلام بمن بعده ٩٧
في إخلاص المختار ١٠١
حول ثورات العلويّين ١٠٧
علاقة الحسين عليه السلام بالسجّاد وزينب عليهما السلام ١١٣
العقيلة زينب بنت علي عليهما السلام ١٢٣
المصادر التي ذكرت زينب عليها السلام ١٣٢
الوجه في خلو بعض الروايات عن ذكر زينب عليها السلام ١٣٤
حول سكينة بنت الحسين عليه السلام ١٤١
السبب المحتمل في تغيّب زينب عليها السلام عن بعض الحوادث ١٥٥
علاقة الحسين عليه السلام بالفقهاء والعلماء ١٦١
في احتمال ارتفاع حكم التقية ١٦٥
علاقة الإمام المهدي عليه السلام بعد ظهوره بالحسين عليه السلام ١٦٩
حوادث الظهور ١٨٤
علاقة الحسين عليه السلام بالشعراء ١٨٧
دعبل الخزاعي ١٨٧
المتنبي ١٩٢
شوقي ١٩٣
الشريف الرضي ١٩٤
محمد مهدي الجواهري ١٩٥
جمال الدين ١٩٧
من نصروا الإسلام من خارجه ١٩٧
من نصروا المذهب من خارجه ٢٠٣
طلب البيعة ليزيد ٢٠٧

نصيحة عبد الله بن الزبير ٢١٣
كتب أهل الكوفة ٢١٧
هدف يزيد من قتل الحسين عليه السلام ٢٢٩
تقديم النصيحة للحسين عليه السلام ٢٣٣
كتاب الحسين عليه السلام إلى البصرة ٢٣٩
مهمة مسلم بن عقيل عليه السلام ٢٤٠
دخول مسلم بن عقيل عليه السلام في الكوفة ٢٤٦
البيعة ٢٤٩
شكل البيعة ٢٥٣
اختيار يزيد لعبيد الله بن زياد ٢٥٧
حول كتاب يزيد لابن زياد ٢٦١
دخول ابن زياد الكوفة ٢٦٣
اعتقال هانئ رضي الله عنه ٢٦٧
هانئ بن عروة في نظر ابن الأثير ٢٧٠
تفرق أصحاب مسلم بن عقيل عليه السلام ٢٧٣
استجارة مسلم بن عقيل عليه السلام في دار طوعة ٢٧٨
وصية مسلم بن عقيل عليه السلام ٢٨٦
مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام ٢٩١
مقتل هانئ رضي الله عنه ٢٩٦

محتويات الكتاب ٣٠١